فقه القلوب

جمال ماضى

فقه القلوب

إهداء

- إلى الحبيبة الرءوم ... إلى المجاهدة الصابرة .
- إلى التى ظلت فى محنتى قلباً عظيماً مع قلبى .
- إلى التى أعطتنى الكثير وما تزال مما نقص من معانى الحياة .
- إلى التى تمنحنى فى كل يوم حياة جديدة ، من عواطفها الصادقات ، كما أهديت بمحمد وأحمد ومصطفى ..
- إلى قلبها الصافى أهدى (فقه القلوب) ... إلى زوجتى .

جمال

❤ ❤ ❤

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

رقم الإيـــداع: ٥٧٠٧/ ٢٠٠٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N

978-977-456-085-9



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم ...

وبعد ،

لهذا الكتاب قصة ، فقد شرعت في تنفيذ فكرته بعدما وقفت على خطورة حركة القلب فى عمل الإنسان وتحقيق عبوديته فى الدنيا وحصوله على الرضا والقرب من ربه فى الآخرة ، خاصة أن المتحدثين أكثروا فيه من العموميات ولم يفصلوا جزئيات العمل ، ويوضحوا مراحل القرب والأنس بالعبودية ، وشعور الإنسان بحلاوة الإيمان والمداومة والثبات فى الاتصال بالله تعالى .

وبعد ما وجدت فى تجارب علمائنا وسلفنا وصالحى أمتنا الكثير والكثير من جلال حركة القلب وعمله فى الإنسان والحياة والمجتمع ، مما فتح أمامى أبوابا من المعرفة فى حياة وروح أبدع وأكمل وأجمل علاقة فى وجود الإنسان .. علاقة القلب بربه وحياته فى ميادين من الفرح والسرور والأنس والبهجة لا يعرفها أحد ولا يفهمها من يسمعها إلا من تذوقها وأحس بحلاوتها .

وكان لزاماً عليّ أن أخلو مع ربى وأخلو مع قلبى فى مناجاة يومية ، لأرى الآثار وأقطف الثمار ، وحاولت وحاولت ... وأحسست بأن معى ربى سيهدين ، ودارت أسئلة كثيرة : عن قلوب الكافرين والقرآن يفصل صفاتها وملامحها وحركتها ولماذا هم كافرون ؟ وكيف يتحركون اليوم بلا قلوب ؟ وعن قلوب المنافقين البغيضة ؟ ولماذا هم كذلك ؟ وكيف يتحركون اليوم ؟ وبأى صفات ينطلقون ؟ .

ثم عن قلوب المؤمنين وصفاتها وعملها ومنازل سيرها حتى القرب من ربها ولماذا المسلمون اليوم لا يتحركون بقلوبهم ؟ ولا يعرفون هذا الفقه الخطير .. الذى به ساد أوائلنا وارتفعت رايتنا .

وازدادت المحاولة وازددت حماساً لها ... وإذا بقدر الله يقدر لى منحة كريمة وخلوة عظيمة وتفريغاً للقلب والعقل والقلم من كل هم إلا الإقبال على

استكمال المحاولة فرأيت الخير كله فى قدره ، ولمست لطيف صنعه ، وكمال قضائه ، ولم يبق إلا جهدى أقدمه وإلا كنت من الخاسرين ، وما الجهد إلا محاولة لإزالة التراب عما دفن من معانى وحقائق عاشها علماؤنا وشرحها أئمة ديننا لكتاب الله وسنة المصطفى ﷺ ... حول < **فقه القلوب** > ... ولا استرسل فالصفحات التالية تغنى عن كل إسهاب ، وأتقدم شاكراً لقارئ هذا الكتاب ، وأرجو الله أن يمنحنا الفقه فى قلوبنا ، كما أطلب آملاً من أخى القارئ أن يدعو لى كلما استحسن أمراً ، وأن يسامحنى ويعفو كلما وجد زلة ، فالنقص طبيعتنا ، والمسامحة تجبر الكسور ، والعفو شيمة الكرماء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

جمال ماضى





تمهيد
لماذا فقه القلوب ؟

* غـــاية خلق القلب
* مـــاذا فى القلب ؟
* البصيرة عمل القلب
* الفقه صفة القلب
* علم القلوب هو الفقه
* أهمية فقه القلوب

تمهيد
لماذا فقه القلوب ؟

غاية خلق القلب :

لقد خلق الله تعالى القلب لأجل أن يسافر إلى ربه تعالى ، ويقطع المنازل إلى لقاء الله عز وجل ، فلأجل الله خلقت القلوب قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ ولقد شرف الله القلب بهذه الغاية الجميلة التى هى فخره فى الدنيا وذخره فى الآخرة ، فالقلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله ، وهو العامل لله والساعى إلى الله ، والجوارح أتباع وآلات يستخدمها القلب ويستعملها كراع فى رعيته وصانع لآلاته .

والقلب هو المستغرق بربه فيصير مقبولاً ، وإذا استغرق بغيره صار محجوباً ، وهو فى الحقيقة الذى يسعد ويفرح بالقرب من ربه ، وهو الذى يشقى ويحزن بإعراضه عن ربه ، والطاعة فى حقيقتها طاعة القلب لربه ، فينشر على الجوارح أنوار وإشراقات الطاعة ، والمعصية هى معصية القلب لربه ، بما فى ذلك من آثار الظلمة والوحشة من سواد على الجوارح .

وبمعرفة القلب يعرف الإنسان نفسه فإذا عرفها عرف ربه ، وبجهله يجهل الإنسان نفسه فإذا جهلها جهل ربه ، فمن جهل قلبه كان بغيره أجهل ، ومعرفة القلب أصل وأساس السالكين .

ولتحقيق هذا الهدف جعل الله للقلب جنوداً تأتمر بأمره وتنفذ ما يطلبه منها فى طاعة وإذعان قال الله تعالى : ﴿ ...**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**... ﴾ هذه الجنود لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا الله ، وهى مجبولة على طاعته ، لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمرداً ، كالعين واليد والرجل وسائر الأعضاء .

وهى ثلاثة أصناف : **الأول** : **الإرادة** وهى الباعث إما لجلب النفع أو دفع الضرر ، **الثانى** : **القدرة** وهى المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد . **والثالث** : **الإدراك** بأعضاء معينة مبثوثة فى البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، **ومن جنود القلب** : العلم والحكمة والتفكر وبهم ينتصر القلب ، وما خلا منهم قلب إلا وأصبح عقله مسخر لشهواته وكان ينبغى أن تكون الشهوة

مسخرة للعقل .

وبهذا الشرف استأهل القلب القرب من الله تعالى لسببين : لعلمه بحقائق الدنيا والآخرة ، ولإرادته : فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه ، انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وتعاطى أسبابها .

والقلب لا يمن الله عليه بعطاياه إلا إذا حصل العلم والمعرفة بنوعيها النظرى منها والعملى المكتسب بالخبرات ، وعلى قدرهما تتفاوت المنازل وتتباين ، ثم بعدها يعرض صاحب القلب نفسه إلى ربه بتطهير قلبه وتزكيته ، فيفتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا . . .** ﴾ وهذه الرحمة تظهر فيمن عرض قلبه لنفحات ربه كما روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها** » . وعن أبى هريرة رضي الله عنه فى المتفق عليه قول النبى ﷺ عن ربه : « **من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً** » ويدل ذلك أن نور العلم والمعرفة يحجب لخبث أو كدورة أو شغل من جهة القلوب فكما قيل : إن القلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى .

ومن تحقق فيه ذلك فقد تشبه بالملائكة فحقيق أن يلحق بهم ، وجدير بأن يسمى ملكا ربانيا ، ففى قوله تعالى على لسان صواحبات يوسف عليه السلام : ﴿ . . . **مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ .

ماذا فى القلب ؟

* فى حديث ابن عمر قال : قيل يا رسول الله أين الله فى الأرض ؟ قال : فى قلوب عباده المؤمنين .

وفى الخبر المأثور عن الله تعالى : لم تسعنى سمائى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى المؤمن .

وفى معنى قوله تعالى : ﴿ **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ الشعراء / ٨٩ ، قيل أى مما سوى الله ليس فيه غير الله .

وسئل النبى ﷺ عن معنى قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ . . .** ﴾ الأنعام / ١٢٥ ، ما هذا الشرح ؟ قال : التوسعة يعنى أن النور إذا قذف فى القلب اتسع له الصدر وانشرح . ولذلك فإن المؤمن ينظر بنور الله ، ومن نظر بنور الله كان على بصيرة من الله وكان عمله بنوره طاعة لله تعالى .

مما دفع بعض العارفين إلى قوله : منذ عشرين سنة ما سكن قلبى إلى نفسى وما ساكنته طرفة عين .

وتفصيل ذلك كما بين العلماء : (على العبد أن يعلم أن عمره كله يوم ، وأن يومه كله ساعة ، وأن ساعته كلها وقته الآن ، وأن وقته حاله ، وأن حاله قلبه ، فأخذ من حاله لقلبه ما يقر به مقلّبه بنهاية عمله) ، ولذلك فأوقات قلبه إما لذكر أو شكر أو صبر أو رضا ينظر إلى الرقيب ، ويجلس إلى الحبيب ، لا ينظر إلا إليه ، ولا يعكف إلا عليه .

وعن ابن مسعود قول النبى ﷺ : « **فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير** » ورحم الله الحسن رضي الله عنه وهو يقول : إنما هما همان يجولان فى القلب : هم من الله تعالى وهم من عدوه ، فرحم الله عبداً وقف عند همه ، فما كان لله أمضاه ، وما كان من عدوه يجاهده .

وعن حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « **القلوب أربعة :**

قلب فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن

وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر

وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق

وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل النفاق فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المدتين غلبت عليه حكم له بها » .

البصيرة عمل القلب :

* يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ الأعراف / ٢٠١ ، فأخبر الله عز وجل أن جلاء القلوب الذكر ، به يتبصر القلب ، وأن باب الذكر التقوى ، والتقوى باب الآخرة ، والتقوى محلها القلب ، ففى بيان مجمل صفة القلب قال ﷺ: « **التقوى ها هنا** » وأشار إلى القلب ، وبين الله تعالى أن القلوب المقفلة مفتاحها التقوى فقال : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا** ﴾ المائدة / ١٠٨ ، ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ البقرة / ٢٨٢، وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ **رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ** ﴾ آل عمران / ١٩٣ ، قال المفسرون : سمعناه من قلوبنا ، وقالوا فى تفسير ضده لأعدائه ﴿ .. **أُولَئِكَ**

﴿ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فصلت / ٤٤ ، أى بعيد عن قلوبهم ، وبين الله تعالى أن العمى الحقيقى فى القلب فقال : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الحج / ٤٦ ، فأهل القلوب يتعظون بلا واعظ من الناس ، ويزدجرون بلا زاجر ، وعلى قدر رقة القلب ولطف جوهره وصفائه وحسن طهارته تكون أنوار الله فيه ، يقول على رضي الله عنه : إن لله فى أرضه آنية وهى القلوب فأحبها إليه أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره :

أصلبها فى الدين .

وأصفاها فى اليقين .

وأرقها على الإخوان .

الفقه صفة القلب :

* يقول الله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ** ﴾ المنافقون / ٧ ، والفقه صفة القلب لا صفة لسان ، وفى اللغة تقول : (فقهت) بمعنى فهمت وابن عباس يفسر قوله تعالى : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا** ﴾ الأعراف / ١٧٩ ، يقول : لا يفهمون بها ، ويجعل الفقه الفهم ، وقيل إن القلب خزانة من خزائن الملكوت مثله كمثل المرآة تقدح الخواطر فتوقد فى القلب فيتلألأ فيه للتأثير فمنها :

* ما يقع فى سمع القلب فيكون فهما :

* ومنها ما يقع فى بصر القلب فيكون نظراً وهو المشاهدة .

* ومنها ما يقع فى لسان القلب فيكون كلاما وهو الذوق .

* ومنها ما يقع فى شم القلب فيكون علماً وهو الفكر .

وأكمل تأثير ما وصل إلى سويداء القلب وهو المباشرة ومن هذا قول النبى ﷺ : « **اسألك إيمانا يباشر قلبى** » فسر ذلك أحدهم فقال :

(إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب كان العبد محباً للآخرة وللدنيا وكان مرة مع الله تعالى ومرة مع نفسه ، فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب أبغض العبد الدنيا وهجر هواه) .

علم القلوب هو الفقه :

* يقول تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ** ... ﴾ ق/ ٣٧ ، أى من تولى الله حفظ قلبه ، وقال النبى ﷺ : « **ما حاك فى صدرك فدعه والإثم حواز**

القلوب » أى ما يؤثر فيهــا لرقتهـاـ ولينها ، وقال للرجل الذى سأله عن البر والإثم :

« **استفت قلبك وإن أفتاك المفتون** » أى إن المتقين فوق علمهم ومعرفتهم علم آخر هو (علم القلـوب) و (فقه القلـوب) فأهل العلم يعلمون حكم اللـه الذى هو حجـة وقلبك فقيه بالإيمـان تنظر بـه ، فعلم القلـوب وفقـه القلـوب هـو حقيقة الإيمان ، ولا يصلـح أن يرد رسـول الله ﷺ السـائل إلا إلى فقيـه فلولا أن علم القلب هو حقيقـة الفقه بعد المعرفة والعلم ما رد صاحبه إلـى قلبه يستفتيه الذى هو علم العلـم وفى الحديث عن النبى ﷺ : « **البر ما اطمـأن إليـه القلب وسكنت إليه النفس وإن أفتـوك .. وأفتـوك** » .

يقول ابن مسعود : لما مات عمر رضي الله عنه إنـى لأحسب أنـه ذهب بتسعة أعشار العلم ، فقيل تقول هـذا وفينا جلـة الصحابة فقـال : ليس أعنـى العلم الذى تريدون إنما أعنى العلم بالله تعالى ، فجعل العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم ، وفضل العلم باللـه بتسعة أعشارها . لقد سئل الجنيد : يا أبا القاسم يكـون لسان بلا قلب ، قال : كثير ، ثـم سئل فيكون قلب بلا لسـان ، فقـال : نعـم قد يكـون ، ثم سئل : فإذا كان لسان وقلب ، قال : فذلك .

يقول ﷺ : « **رحـم اللـه من سـمع منا حديثـا فبلغه كما سـمعه ، فرب حامل فقه غيـر فقيه ورب حامـل فقـه إلـى من هو أفقه منه** » فقد أخبر ﷺ أن حامل الفقه قد يكون غير فقيه القلب ، إذا لم يعمل بعلمه ، وأنه قد يحمله إلى من هو أفقه منه إذا عمل به وإذا وعـاه ، كما قال فى الخبر الآخـر : « **رب مبلغ أوعى من سامع** » .

فمدحه بالعمل به إذا وعاه ، فتذكر بـه وتفكر فيـه ، وإن لم يكـن سمعه منه ﷺ ، وقال الله تعالى : ﴿ ... وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ الحاقة / ١٢ ، يعنى أذن القلب ، الحافظة ما سمعت الذاكرة لما وعت ، وقد جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ... أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أى أذن عقلـت من اللـه تعالى أمره ونهيه فوعته وعملت به .

أهمية فقه القلوب :

(سُئل الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية : أيُهما أولى معالجة ما يكره الله من قلبك مثل : الحسد والحقد والغل والكبر والرياء والسمعة ورؤية الأعمال



وقسوة القلب ، وغير ذلك مما يختص بالقلب من درنه وخبثه ؟ أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة : من الصلاة والصيام وأنواع القربات : من النوافل والمنذورات مع وجود تلك الأمور فى قلبه ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب رحمه الله : ـ الحمد لله ـ من ذلك ما هو عليه واجب وأن للأوجب فضل وزيادة كما قال تعالى فيما يرويه عنه رسول الله ﷺ : « **ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه** » ثم قال : « **ولا يزال عبدى يتقرب إلىَ بالنوافل حتى أحبه** » والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب ، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده ـ فإذا خبث الملك خبث جنوده ، ولهذا قال النبى ﷺ : « **ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله** » وكذلك أعمال القلب لابد أن تؤثر فى عمل الجسد ، وإذا كان المقدم هو الأوجب سواء سمى باطناً أو ظاهراً ، فقد يكون ما يسمى باطناً أوجب مثل ترك الحسد والكبر فإنه أوجب عليه من نوافل الصيام ، وقد يكون ما سمى ظاهراً أفضل : مثل قيام الليل ، فإنه أفضل من مجرد ترك بعض الخواطر التى تخطر فى القلب من جنس الغبطة ونحوها ، وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وترث الخشوع ، ونحو ذلك من الآثار العظيمة : هى أفضل الأعمال والصدقة والله أعلم) مجموعة الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ص ٣٨١ ، ٣٨٢ جـ ١١ .

* **ثم أخيراً** :

كل عمل إن قل ، اتفق علماء القلوب ، أنه لابد فيه من ثلاثة معانى ، قد استأثر الله تعالى بتولية أمرها :

أولها : التوفيق لقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّه ﴾ هود / ٨٨ .

ثانيها : القوة لقوله تعالى : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّه ﴾ الكهف / ٣٩ .

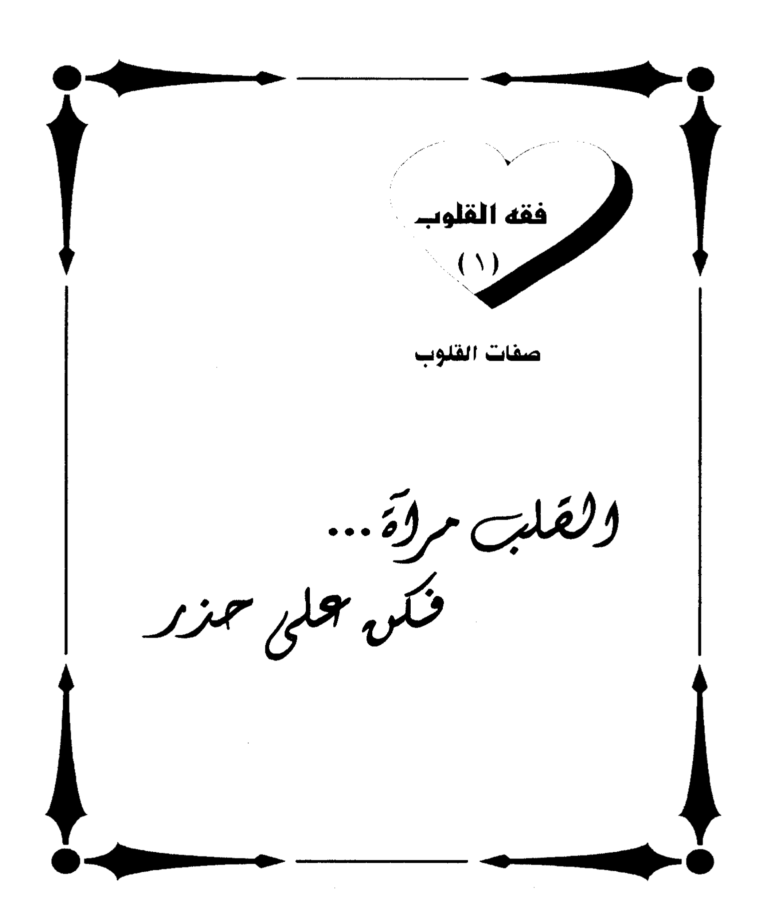
ثالثها : الصبر لقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّه ﴾ النحل / ١٢٧ .

ومن مظاهر ذلك أن الله تعالى بمشيئته يقلب الكون فى قوله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ النور / ٤٤ ، ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الأنعام / ١٣ ، ويقول تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ الأنعام / ١١٠ .

فحقيقـــة القلوب سرعة تقلبها كالقدور ، فالقلب مكان للتقليب بما فيــه من خزائن الغيب ، ولذلك كـــان النبى ﷺ يقســم : لا ومقلب القلوب . لما شـهـد من عظيم القـدرة ولطيف الصنع فى التقليب وكـان من دعـائه ﷺ : « يا مقلب القلوب ثبت قلب على دينك » قالوا له : (أو تخاف يا رسول الله . قال : «وما يؤمننى والقلـوب بين أصبعين من أصابـع الرحمن يقلبها كيفمـا شـاء » .
فسبحان مصرف القلوب . ومن أجل ذلك جاء هذا الكتاب وليس سبيلنا فيه أن نسرد فضائل الأعمال بل حركة القلب ، لأنه بطهارته وصفائه ونقائه تزكو الأعمال ويتقرب العاملون من ربهم ، وهى غاية العباد السالكين المشمرين .
ونسأله تعالى أن يتقبــل منا ومنــكم وأن يتحقــق فـى قلوبنا كل ما يطلبه الله منا ، وغاية خلق القلوب ، وما انتشر الإسلام إلا بقلوب حققت هذا المعنى ، ووعت هذه الحقيقة الناصعة ، وهذا هو الطريق لرفع راية الإسلام واستئناف الحياة به من جديد ﴿... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الروم / ٤:٥ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

❤ ❤ ❤


فقه القلوب
(١)
صفات القلوب
القلب مرآة...
فكن على حذر

بين يدى الصفات
القلب مرآة .. فكن على حذر

إذا كان القلب وعاء تظهر من خلاله الصفات المختلفة ، فقد اجتمع رأى العلماء المختصين بالقلوب أن هناك أصولاً أربعة : وهى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية ، تجتمع فى القلب ، فكأن المجموع فى الإنسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم ، فالخنزير هو الشهوة لجشعه وحرصه يدعو إلى الفحشاء ، والكلب هو الغضب فى عداوته وضراوته يدعو إلى الظلم والجور ، والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع .

وقد تعجب بعض العلماء من هذا الذى ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة وهو فى حقيقة أمره ماثلا بين يدى خنزير ساجداً له مرة وراكعاً أخرى منتظراً إشارته ، أو رأى نفسه فى الحقيقة ماثلا بين يدى كلب ، عابداً له مطيعاً سامعاً لما يأمره به .

ووفق هذه الطاعة تظهر الصفات المصاحبة فطاعة خنزير الشهوة يصدر عنها : الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والمجانة والهتكة والعبث والجشع والملق والحرص والحسد والحقد والشماتة وغيرها .

وأما طاعة كلب الغضب يصدر عنها إلى القلب صفات : التهور والبذالة والبذخ والصلف والتكبر والعجب والاستهزاء وتحقير الناس والظلم والشر وغيرها ، وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب يصدر عنها : صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والغش والخنا وغير ذلك .

أما إذا اتبع القلب سياسة الربانية استقرت فيه صفات ربانية من العلم والحكمة والبصيرة واليقين والمعرفة ، فيضبط بهذه الصفات الشهوة والغضب فيصل بهما إلى حد الاعتدال من العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والحياء ثم يضبط الغضب بصفات الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والعفو والثبات والشهامة والوقار .

وبهذا الوصف يكون القلب كمرآة تزيده الصفات الحميدة جلاء وإشراقاً ونوراً حتى يتلألأ فيه الحق ، ففى حديث أم سلمة بإسناد جيد قول النبى ﷺ :

« **إذا أراد الله بعبـد خيـراً جـعل له واعظاً من قلبـه** » رواه الديلمى فى مسند الفردوس ، أما الصفات المذمومة فإنها تتراكم كدخان على مرآة القلب حتى يسودُ ويظلم ويصير محجوباً عن الله تعالى وهو الران ، يقول تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين / ١٤ . وهنالك يطبع على القلوب ، فتعمى عن إدراك الحق وصلاح الدين وتبتهين بالآخرة ، فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من أخطار دخل من أذن وخرج من أذن ، ولم يستقر في القلب أو يحركه إلي توبة يقول تعالي : ﴿ ... قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾المتحنة / ١٣، وخلاصة ذلك : أن طاعة الله سبحانه مصقلة للقلب ومعاصيه مسودات له ، فمن عصي اسود قلبه ، ومن اتبع السيئة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره .. كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ثم يتنفس لا تخلو عن كدورة ... فالقلب مرآة فكن علي حذر ... عن أبي سعيد الخدري فيما رواه الإمام أحمد قول رسول الله ﷺ : « **القلب أربعة :**

قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن

وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر

وقلب أغلف مربوط على غلافه وذلك قلب المنافق

وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق » .

وإذا كان القلب مرآة .. فلنكن على حذر من موانع الفهم والفقه والمعرفة أجملها الإمام الغزالى فى خمسة أسباب تمنع عن القلب الفقه وهى :

١- نقصان فى ذات القلب فلا تنجلى له المعرفة .

٢- كدورة تتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات .

٣- معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة كالواقف خلف المرآة .

٤- حجاب بينه وبين القلب لا يدرك به الحقيقة .

٥- الجهل بجهة العثور على المطلوب .

والتعليق على هذه الموانع أنها تكاد تكون مرتبطة المراحل ، أى أن الأولى إذا انتفت منعت ما بعدها ، فالقلب إن كان فى ذاته نقصاناً فلا ينفعه شئ أما إن توفر فى القلب الكمال والتأثير فإن المعاصى بتراكمها تحول بينه وبين الفقه ، لسوادها وظلامها وحجبها نور الله تعالى ، فإن توفر فى القلب التأثر والطاعة والصفاء وصاحبه لا يطلب الحق ولا يصرف فكره إلى التأمل بل صرف همه

إلى شهوات الدنيا وعلائقها فإنه كالذى لا يقف محاذيا بمرآته شطر المطلوب ، أما إذا نجح فى انتقاء المواقع الثلاث فإنه على خطر من الرابع كحائل وحجاب خارجى لا يدرك به الفقه ، من بدعة أو تعصب لتقليد رسخت فى قلبه وصارت حجاباً عن الفقه . أما الخامسة فهى التى تضيع على صاحبها كل نجاحاته فى انتقاء الموانع السابقة لأنه بمعرفته بجهة الصورة تتجلى له حقيقة المطلوب لقلبه .

والقلب مفطور على معرفة الحقائق ومخلوق للفهم والفقه وهذا شرف من الله لعباده اختصه بهم يقول تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ** ... ﴾ قال المفسرون : الأمانة هى المعرفة والتوحيد ، والقلب مستعد لحمل الأمانة .. فما الذى يثبطه عن النهوض بأعبائها وواجباتها ؟ نعم .. هى هذه الموانع السابقة وصدق رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة : « **كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه** » متفق عليه .

وفى قوله ﷺ : « **لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات** » وعن عبد الله بن عمر بإسناد صحيح : أنه قيل يا رسول الله : من خير الناس فقال : « **كل مؤمن مخموم القلب** » فقيل : وما مخموم القلب ؟ فقال : « **هو التقى لا غش فيه ولا بغى ولا غدر ولا غل ولا حسد** » ، ومن فقه عمر بن الخطاب قوله : **رأى قلبى ربى** .

❤ ❤ ❤

أولا : صفات قلوب الكافرين من كتاب الله تعالى

١- أكنة على القلوب
٢- حمية الجاهلية
٣- قلوب منكرة
٤- قلوب منكرة
٥- ولكن تعمى القلوب
٦- اشمئزاز القلب
٧- قلوب مختومة
٨- قلوب قاسية
٩- قلوب مطبوعة

ولا يحذر الكافرون مكر الله

١- الرعب فى قلوبهم
٢- شتات قلوبهم
٣- حسرة فى قلوبهم
٤- اشراب القلب

أولا : صفات قلوب الكافرين
من كتاب الله تعالى

١ـ أكنة على القلوب :

يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ... ﴾ الإسراء / ٤٦ .

ويقول تعالى : ﴿ ... وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ... ﴾ الأنعام / ٢٥ .

ويقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ... ﴾ فصلت / ٥ .

مسلك الكافرين مسلك عجيب ، مطموسون عن الحقيقة ، وأنى لقلوب مغلقة ضيقة نكدة أن تستوعب أو أن تفقه ، إنهم يعترفون : فقالوا قلوبنا فى أغطية .. فلماذا تتعب نفسك ، إن كلماتك لن تصل إلى قلوبنا .. بل فى أذاننا صمم فلا تسمع دعوتك ولا تعى رسالتك ولن يكون هناك اتصال بيننا وبينك ، فبيننا وبينك حجاب سميك ، فاتركنا واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا ، دعنا فنحن لا نبالى بقولك وفعلك وإنذارك ووعيدك فإذا شئت فامض فى طريقك فإنا ماضون فى طريقنا ولن نسمع لك ، وافعل ما أنت فاعل .

وهات وعيدك فإننا غير مبالين .

وربما يسأل سائل أليس هذا القرآن يسرى إلى آذانهم ؟ أليست قلوبهم تتجاوب مع القرآن ؟ وتأتى الإجابة ... لا .. إن الله تعالى جعل بينهم وبين الرسول حجاباً خفياً ، لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب ، فلتتلى عليهم الآيات فهل ينتفعون ؟ وليسمعوا القرآن فهل يهتدون ؟ إن هذا الحجاب وإن هذا الغطاء على القلب جعلهم لا ينتفعون به ولا يهتدون بالقرآن الذى يتلوه محمد ﷺ .

٢ـ حمية الجاهلية :

يقول تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ... ﴾ الفتح / ٢٦ .



حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت ، الحمية التى جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله ﷺ ومن معه يمنعونهم من المسجد الحرام ويحبسون الهدى الذى ساقوه أن يبلغ محله الذى ينحر فيه ، وذلك من أجل سبب واه ولكنه ملك قلوبهم ..

فكانت حمية الجاهلية التى تتحرك وتحركهم ، كى لا تقول العرب إنه دخل عليهم عنوة .. ذلكم هو السبب الذى اقتنعوا به وهو فى الحقيقة حمية الجاهلية لا حمية عقيدة ، لا حمية منهج ، أما المؤمنون فحماهم الله من هذه الحمية المتعجرفة وأودع مكانها السكينة والتقوى .

ما الذى يحرك الكافرين اليوم على الأرض للنيل من الإسلام وتدمير المسلمين فى كل مكان ، أليست حمية الجاهلية الكبر والفخر والتعنت ، فبأى عقيدة يلتزمون إذن وبأى منهج يسيرون ؟!

٣ـ قلوب منكرة :

يقول الإمام القرطبى فى تفسير قوله تعالى :

﴿ ... فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ النحل / ٢٢ .

أى قلوبهم لا تقبل الوعظ ولا يتجمع فيها الذكر ...

وذلك لأن الذكر عبودية القلب واللسان وهى غير مؤقتة فالقلوب بور وخراب والذكر هو عمارتها وأساسها .

ولذلك فأبدان الذين لا يؤمنون بالآخرة بقلوبهم التى لا تتعظ ولا تتذكر أصبحت قبوراً لقلوبهم ، وقلوبهم فيها كالأموات فى القبور : فما بالك بهؤلاء الكافرين وقد تعطل فيها الواعظ ويقول تعالى : ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ فاطر / ٢٢ .

وشبههم الله فى موت قلوبهم بأهل القبور ، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان ولم تتحرك كانت ميتة حقيقةوليس هذا تشبيها لموتها بموت البدن بل ذلك موت القلب والروح .

ولقد جمع الله تعالى بين عذابين لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، أصحاب القلوب المنكرة ، يقول تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ⁽¹⁵⁾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ المطففين / ١٥ : ١٦ .. فحرمهم من الجنة أولاً ثم من النظر إلى وجهه الكريم فى جنات عدن ، وهما اللذان جمعهما الله لأحبابه

فى قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ . . . ﴾ يونس ٢٦/ ، فالحسنى : الجنة ، والزيادة : رؤية وجهه الكريم فى جنات عدن .

إن هذه القلوب المنكرة قد اختلط عليها الحق فلا تراه أبداً واضحاً بيناً ، يقول تعالى : ﴿ . . . وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ . . . ﴾ النساء / ١٥٥ ، فالأول كفر عناد .. والثانى كفر طبع ، بل أن الله عاقبهم على ترك الإيمان بأن قلّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له يقول تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الأنعام / ١١٠ .

٤ـ قلوب مقفلة :

يقول تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد / ٢٤ .

المتأمل فى القرآن الكريم ، هو المتدبر لآياته ، ومعنى التدبر : تحديق نظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تعقله وتدبره وتفهمه ، قال الحسن : (نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملا) . وهنالك يمتلك المسلم نوراً وفرقاناً يفرق بين الغى والرشاد والهدى والضلال ، هذا النور فى القلب يجعله فى حياة وسعة وانشراح وبهجة وسرور فإذا به فى شأن والناس فى شأن آخر .

أما الكافرون فقلوبهم مغلقة عن التدبر وعن هذه الحياة وعن هذا التذوق ، فقد سدوا المنافذ أن يدخل ، وعطلوا الشعور والإحساس يقول تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الشعراء / ٢٠٠ .

ويقول تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الحجر / ١٢ .

نسلكه فى قلوبهم مكذباً بما فيه مستهزأ به ، لأن القلوب لا تحسن أن تتلقاه إلا على هذا النحو سواء فى هذا الجيل أم فى الأجيال اللاحقة ، فالمكذبون أمة واحدة من طينة واحدة .

وهذا ما يفسر لنا الغمز والطعن والسب والنيل من آيات الله ، وإطلاق السهام حول كتاب الله تعالى ، فلا يدهش داهش كيف يتحرك هؤلاء هذه الحركة ؟ وكيف يمتلكون هذه الجرأة على كتاب الله ؟ وتباً لأذيالهم البلهاء من المنافقين الذين ساروا دربهم ويروجون أراءهم وهى كفر بواح .

وهذا نوع من عقاب الله لهؤلاء الكافرين ألا يكون لهم شرف الانفتاح على إشراقات القرآن فعلى هذه الهيئة نظمه الله فى قلوبهم .. ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ يونس / ٨٨ .

لقد حاول كثير من كفار مكة أن يستمعوا إلى القرآن الكريم من محمد ﷺ ، ويتواعدون على الانصراف ثم يتسللون المرة تلو المرة ، ثم ينصرفون ... فهل انتفعوا بعد هذه المحاولات به ؟ يقول تعالى : ﴿ ... ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة / ١٢٧ .

فقد صرف الله قلوبهم عن الهدى فإنهم يستحقون أن يظلوا فى ضلالهم يعمهون ، ﴿ ... بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ عطلوا قلوبهم عن وظيفتها فهم يستحقون ذلك !.

٥ـ ولكن تعمى القلوب :

وتمضى سنة لا تتخلف ، ولا تتبدل ، إن التدبر الحقيقى والاعتبار المؤثر ، هو فى إدراك القلب لهذه الحقيقة ، فيدرك عبر الآثار والدروس ، وعبر السير والتأمل فى التاريخ ومصارع الغابرين عين الحقيقة ، يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ... ﴾ الحج / ٤٦ .

نعم .. هل خلت صدورهم من القلوب ؟ أم كانت لهم قلوب ؟ فلماذا يرون ولا يدركون ؟ ويصغون ولا يعتبرون ؟ ويتأملون ولا يتعظون ؟ إنها الحقيقة ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ... ﴾ العيون مفتحة والأحداق شاخصة وتكاد العيون تخرج من محارجها ... دون وعى ولا إحساس ، دون اعتبار أو شعور ، دون بصر أو بصيرة .. يقول تعالى : ﴿ ... فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الحج / ٤٦ .

ولو سكت القرآن عن قوله ﴿ ... وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ ... ﴾ لاستوفى المعنى ولكن للزيادة فى التأكيد من ناحية وزيادة فى إثبات العمى وتمكنه من تلك القلوب من ناحية أخرى ، جاء قوله عز وجل ﴿ ... الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ فالله يمعن فى التحديد فماذا لو كانت هذه القلوب مبصرة ؟! .. والله (لجاشت بالذكرى وجاشت بالعبرة وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة فى مصارع الغابرين وهى حولها كثير) الظلال جـ ٣ .

بل ماذا لو تمكن الإيمان منها فتحول البصر إلى بصيرة ؟ (والبصيرة نور يجعله الله فى عين القلب ، يفرق به العبد بين الحق والباطل ، ونسبته إلى القلب كنسبة ضوء العين إلى العين ، وهذه البصيرة وهبية وكسبية فمن أدار النظر فى أعلام الحق وأدلته وتجرد لله من هواه استنارت بصيرته



ورزق فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل) ابن القيم المدارج جـ ٣ .

٦ـ اشمئزاز القلب :

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ... ﴾ الزمر / ٤٥ .

سبحان ربى من حال هؤلاء الكافرين وحركة قلوبهم المعتمة لا يستطيعون بحال أن يغيروا من واقع قلوبهم الأليم ، إن الآية لتصور هؤلاء الكافرين على عهد النبى ﷺ وهم يبشون ويهشون وتنفرج أساريرهم ويستبشرون كلما ذكرت آلهتهم ، كلما ذكرت أهواؤهم ، كلما ذكرت خبائثهم ، كلما ذكرت أرجاسهم ، ولكن إذا بهم ينقضون ويتفرقون لاشمئزاز قلوبهم ، وهذا سر العداء الثورى والخصومة السريعة لأهل الحق ، لأنهم يذكرونهم بالله ، ويدعون إلى الله ، ويرفعون راية التوحيد ، فإذا الذين من دونه من علمانية ساقطة أو شيوعية ملحدة أو قومية خاسرة أو تهريج منحرف أو إباحية مضلة رأيتهم يهشون ويبشون بل يتراقصون ويحتفلون ويبزخون !!

(إن الآية لتصف حالة نفسية تتكرر فى شتى البيئات والأزمان فمن الناس من تشمئز قلوبهم كلما دعوا إلى الله وحده وإلى شريعة الله وحدها قانوناً وإلى منهج الله وحده نظاماً) الظلال جـ ٥ .

ونتساءل لماذا وصلوا إلى هذا الحد ؟ يحتفلون فى أمريكا لمقتل الإمام الشهيد حسن البنا ، يتراقصون كل يوم حين يدمرون البلدان ويغتصبون الطاهرات ويذبحون العلماء ويشردون الأطفال ؟ وتأتى الإجابة واضحة : هؤلاء هم ممسوخو الفطرة ، منحرفو الطبيعة ، الضالون المضلون ، وإن شئت فتأمل فى حياة الغاب التى يحيونها فى بلدانهم !.

٧ـ قلوب مختومة :

يقول تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ﴾ البقرة / ٧ .

ويقول تعالى : ﴿ ... إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ... ﴾ الأنعام / ٤٦ .

ويقول تعالى : ﴿ ... وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ... ﴾ الجاثية / ٢٣ .

ويقول تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ... ﴾



الشورى / ٢٤ .

إن الختم من الله على القلب ، ألا تصل إلى القلب حقيقة من الهدى أو الحق أو الضوء ، وذلك وفاقاً على استهتارهم وعنادهم وجحودهم ، وحتى لا يبكى أصدقاء الكافرين فليعلموا أن قلوبهم صلدة معتمة مغلقة مظلمة جامدة نكدة ، وكل ذلك من حركة الختم على القلوب . فمن أين إذن يدخل النور ؟ (لقد انطمست فى القلب المختوم تلك المنافذ التى يدخل منها النور ، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الادراك ، وطاعته للهوى ، طاعة العبادة والتسليم) الظلال جـ ٥ .

وكم حاول الكافرون إثارة الشبهات حول دعوة الداعية الأول رسولنا ﷺ ، وقد جاء القرآن ليرد على شبهتهم ويدحضها ، قالوا أن محمداً لم يوح إليه فرد عليهم الله تعالى ، لو شاء الله لختم على قلبه ﷺ فلا ينطق بقرآن كهذا أو أن يكشف الباطل الذى جاء به ويمحوه ، وأن يظهر الحق من ورائه ويثبته ... ما كان ليخفى عليه ما يدور فى خلد محمد ﷺ حتى قبل أن يقوله : إنه عليم بذات الصدور .

ولكن هل وعت قلوب الكافرين الرد الإلهى على ما أثاروه من شبهات ؟ وكم يثيرون اليوم من شبهات وشبهات ، الردود واضحة والبراهين بينة ، ولكن الختم على قلوبهم ، جعلهم لا يعون ولا يدركون ولا يفهمون ..

٨ـ قلوب قاسية :

يقول تعالى : ﴿ ... فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ... ﴾ الحديد / ١٦ .

ويقول تعالى : ﴿ ... فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ... ﴾ الزمر / ٢٢ .

ويقول تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ... ﴾ الحج / ٥٣ .

ويقول : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ... ﴾ الأنعام / ٤٣ .

ويقول تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ ... ﴾ المائدة / ١٣ .

ويقول تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ... ﴾ البقرة / ٧٤ .

لقد نعت الله تعالى الكافرين بالقلوب القاسية وجعل ذلك عقوبة منه لما

نقضوا ميثاقهم فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ المائدة / ١٣ ، وذلك حينما أعرضوا وجحدوا وعاندوا وتمادوا بنقض المواثيق والعهود .

وبين الله أن هذا النوع من القلوب لا ينتفع بذكر ولا يتعظ بموعظة لأنها كالحجارة بل أشد قسوة فى عتمها وظلامها وجمودها ، فقلوبهم أجدب من الحجارة ، وإن لهم سابق عهد معها ، فقد رأوا الحجر يتفجر منه اثنتا عشر عينا ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقا ! ولكن القلوب القاسية مجدبة جامدة .

وكم حاولت القلوب القاسية أن تفتش عن الشبهات لتجعل منها مادة للجدل واللجاج والشقاق وهذا عملها الأسود لا يستند إلى أساس ولا ينطلق إلا من حجر صلد مظلم .

وكما ينزل الماء من السماء فينبت به زرع مختلف ألوانه ، كذلك ينزل من السماء ذكر تتلقاه القلوب الحية فتنفتح وتنشرح وتتحرك حركة الحياة ، وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية التى لا حياة فيها ولا نداوة !! .

وحينما يعلم الله الخير فى القلوب فيشرح هذه القلوب للإسلام وتنفتح على أنواره ، فتستضيء وتشرق ولذا فالفرق كبير والبون بعيد بين هذه القلوب وبين قلوب أخرى قاسية أبت إلا الموت والغلظة والجفاف والظلام والعتم .. فشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء .

إن حقيقة القلوب لتنجلى من خلال الآيات ، تلك القلوب التى تتلقى الإسلام فينقلب حالها مع الله بشاشة وانشراحاً واستنارة وإشراقاً .. وهذا بالتأكيد ليس كالقاسية قلوبهم .

ثم يأتى تحذير عام من الله تعالى فى هؤلاء الذين طال عليهم الأمد بلا تذكير ولا تذكر .. ماذا حدث لقلوبهم ، تبلد القلب وقسا ، وانطمست بشاشته وغاب نوره ، وأظلم ، فلابد من تذكير هذا القلب السريع التقلب ، السريع النسيان . حتى يرق ويشف ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة وأن يشرق فيه النور وأن يخشع لذكر الله .. فالله يحيى الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة وكذلك القلوب حين يشاء الله ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الحديد ١٧/ . الظلال ج ٥ .

٩ـ قلوب مطبوعة :

يقول تعالى : ﴿ ... وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ... ﴾ النساء / ١٥٥ .

ويقول تعالى : ﴿ ... كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ يونس / ٧٤ .

ويقول تعالى : ﴿ ... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ غافر / ٣٥ .

يقول القرطبي : طبع على قلوبهم أى حجبهم عن فهم المواعظ (ج ٦) ، (فقد عطل الله فيهم أجهزة الإدراك والاستقبال ، بل أغلق منافذ الشعور والعلم) الظلال ج ٣ .

أما الإمام ابن القيم فيرى أن كفرهم أولاً كان إنكاراً أو جحوداً من عند أنفسهم ﴿ .. وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ... ﴾ ، فلما رأى الله ذلك فى قلوبهم فألحق بهم النوع الثانى وهو الكفر بالطبع على القلب من الله جزاء جحودهم وعنادهم .

وهكذا يبين الله تعالى أنهم السبب الرئيسى فى عقاب الله لقلوبهم بالطبع وسد منافذ الإدراك ، فبتكذيبهم وتطاولهم على أهل العلم الصحيح استحقوا أن يطمس الله قلوبهم فلا تنفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله ، ولتطاولهم على الرسالة والوحى والنيل من الهدى فإنهم يستحقون أن يطبع الله على قلوبهم لما يعلمه الله تعالى من هذه القلوب .

ثم تأتى الآيات على لسان مؤمن آل فرعون وهى تهدد المتكبرين المتجبرين وكيف أن الله تعالى لم يبق فيها موضعاً للهدى ولا منفذاً للإدراك ، وهذا سر عدم استجابة المتكبرين والمتجبرين ، فهو إنذار من الله بأن الله طمس على قلوبهم وطبع عليها فهم فى غيهم يعمهون وعن هزلهم لا يتوقفون .

❤ ❤ ❤

ولا يحذر الكافرون مكر الله

١ـ الرعب فى قلوبهم :

يقول تعالى : ﴿ ... فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ... ﴾ الحشر / ٢ .

ويقول تعالى : ﴿ ... وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ... ﴾ الأحزاب / ٢٦ .

ويقول تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ... ﴾ آل عمران / ١٥١ .

ويقول تعالى : ﴿ ... سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ ... ﴾ الأنفال / ١٢ .

يتحرك الكافرون بهذه الصفات ، وينسون أن لله عز وجل جنوداً ومؤيدات لا يدركونها ، فقد كانت من المؤيدات الإلهية لرسولنا ﷺ « **ونصرت بالرعب عن مسيرة شهر** » .. والمتأمل فى قلوب الكافرين وخفقات الرعب والخوف والهلع فيها يرى عجائب قدرة الله تعالى وتأييده لعباده الصادقين .

ربما يكون الوعد فقط من الله تعالى : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ الأنفال / ١٢ ، كفيل بنهاية المعركة وهزيمة الكافرين وضمان لنصر أوليائه ، وهذا الوعد بين وصادق فهو من الله الجليل القادر القاهر ، وما إن واجه المؤمنون الكافرين إلا وقد تحرك فى قلوبهم الخوف والاضطراب من الرعب الذى ألقاه الله فيها ، وهذا الوعد وتحقيقه وهذه الحقيقة وحركتها فى قلوب الكافرين تتوقف على وجود حقيقة الإيمان فى قلوب المؤمنين ، يقول صاحب الظلال (جـ ١) (حقيقة الشعور بولاية الله وحده ، والثقة المطلقة بهذه الولاية ، والتجرد من كل شائبة شك فى أن جند الله هم الغالبون) .

ولأن قلوبهم خاوية من الركن الركين والسند الصحيح والقوى القادر ، ولأنهم لا يستندون إلى أى نوع من القوة ، فهل تنفعهم آلهتهم من دون الله بشئ ، هل ينتفعون بما أشركوا بالله أن تصد عنهم (قذف الرعب !!) .

إنه بكل التأكيدات إذن الرعب يقذف فى قلوبهم حيث لا سند ولا قوة ولا

سلطان والقاذف هو القادر القاهر المتين ، وما يهود بنى قريظة منا ببعيد فقد آتاهم الله من داخل أنفسهم ! لا من حصونهم ! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب ففتحوا حصونهم بأيديهم ! وأراهم أنهم لا يملكون قلوبهم ولا يمتنعون على الله بإراداتهم ! فقد أتاهم الله من الجهة التى لم يحتسبوها أبداً من حيث داخل كيانهم .

والعجب أن الكافرين اليوم مدججون بأسلحة فتك تتطور يوماً بعد يوم ، ويحظرونها عن غيرهم ، وينوّعون من أسلحة الدمار والإهلاك والتى لا توجد إلا فى ترساناتهم ، ومع ذلك وفى معركتهم مع الحق الأعزل ، يحتشدون احتشاد المرعوب ، ويجمعون قواهم من عدة وعتاد وعدد فى ترسانات الخوف والهلع ، ويرتجفون من كل حركة بل من كل صوت ، بل من كل نداء خافت غير مسموع ، إنه الرعب فى قلوبهم ، فأين القلوب المؤمنة ؟!! .

٢ـ شتات قلوبهم :

هذه هى الحقيقة الثانية التى يعلمها الكافرون جيداً يقول تعالى : ﴿ ... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ... ﴾ الحشر/ ١٤ .

ونحن هنا لسنا فى محاولة لسرد التاريخ والشروح ، ولكن الذى يعنينا نؤكد على هذه الحقائق من خلال ما جعله الله ثابتاً فى القلوب لا يتحول ولا يتبدل لنأخذ منه العبرة والدرس .

ما واجه المؤمنون اليهود فى أى معركة منذ عهد النبى ﷺ إلا ويفرون كالجرذان أمام المسلمين ليس لما بينه الله من حقيقة إلقاء الرعب فى قلوبهم بل لحقيقة أخرى .. فقد يجتمعون فى معسكر واحد ، تحت صف واحد ، تحت لواء واحد ، تحت قوة واحدة ، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا لنتأمل فى أحوال الكافرين ليسوا كذلك ، إنهم يعمدون اليوم أن يعملوا فى صورة تكتلات ومنظمات وهيئات ، ويعشقون أن يطلقوا على أعمالهم : الدولية ، والعالمية ، والمتحدة ، ليزيفوا على الناس هذه الحقيقة ، إن كل ما يفعلونه هو مظاهر كاذبة ، خارجية خادعة ، وإنما تجمعاتهم قائمة على اختلاف المصالح واتفاق الأهواء وتصادم الاتجاهات ، وهم يعلمون ذلك جيداً .

فماذا لو صدق المسلمون ولو مرة واحدة وواجهوا هذه الحقيقة متجمعين متراصين متآلفة قلوبهم على الله حقاً ، ماذا لو صدق المسلمون وتجمعت

قلوبهم كما أراد الله أمام هذه المعسكرات .. والله لانكشفت هذه المعسكرات التى تختفى وراء معسكر واحد ، أمام المسلمين ، والمتأمل لتاريخنا يستقرئ منه أن أهل الكتاب والمنافقين لا ينالون من المسلمين إلا حال تفرق قلوب الأمة المسلمة . والعجب أن الكافرين كما يعلمون حقيقتهم يعلمون ذلك جيداً فعمدوا فى غفلة من أمتنا إلى تفرقتها منذ الأندلس وحتى اليوم مروراً بإسقاط الخلافة العثمانية .

ومن حكمة العلى القدير تقرير هذه الحقيقة فى قلوب عباده المؤمنين ليهون فيها من شأن أعدائهم وإن كان ظاهرهم فى تجمع رصين ، ثم يرفع من قلوب أحبابه الهيبة ممن سواه لتمتلأ بربها ومعرفته هنالك تتجمع القلوب التى استنارت به تعالى فى صف واحد ، وأحسب أن يومها لن تقف لها قوة فى الحياة .

٣ـ حسرة فى قلوبهم :

يقول تعالى : ﴿ ... **لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ** ... ﴾ آل عمران / ١٥٦

وهذه هى الحقيقة الثالثة التى أودعها الله فى قلوب الكافرين ، ويعلمونها تمام العلم .

إن صاحب العقيدة فى الله تعالى كما يقول الإمام ابن القيم فى المدارج جـ٣ : (يفتح له باب الشعور بمشهد العبودية فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده ، فيشهده مالك الضر والنفع والخلق والرزق والاحياء والإماتة فيتخذه وحده وكيلا ويرضى به رباً ومدبراً وكافياً) ، ثم يطوى الكون عن قلبه بحيث لا يبقى فيه إلا الله الواحد القهار ، فهل يخشى صاحب العقيدة بعد ذلك موتاً أو خوفاً من قتل فى سبيل الله ؟! .

أما تصور الكافر فهو محروم من هذه العقيدة ، مقطوع عن هذه الحقيقة ، ولذا فهو كما يقول صاحب الظلال جـ١ (أما الذى يفرغ قلبه من العقيدة فى الله على هذه الصورة المستقبحة فهو أبداً مستطار أبداً فى قلق) .

ولذا فإن الكفارين تذهب قلوبهم حسرات كلما مات لهم أحد وهو يضرب فى الأرض يسعى فى رزق الله ، أو قتل فى معركة .



إن الآية الكريمة لتصور الحقيقة وهى تتحرك عقب يوم أحد فقد اتخذ الكافرون من مقاتل الشهداء مادة لإثارة الحسرة فى قلوب أهلهم واستجاشة الأسى على فقدهم فى المعركة .

وكما تأكلهم الحسرة لمقاتلهم ومصارعهم ، فإن مجرد الاستعداد للمعركة والخروج إليها يذهب بأنفسهم حسرات جعلها الله عبرة لمن يعتبر !! فعندهم الخروج هو علة الموت وسبب القتل فيهرعوا إلى منعهم من الخروج ! .

أما المؤمنون فهم يتحركون مع أجل الله ويدورون مع نداء المضطجع ويسيرون مع قدر الله وسنته فى الموت والحياة فأنى لهم أن يتحسروا !!.

٤-إشراب القلب :

وهذه حقيقة رابعة جرّبها اليهود ، ويعلمون مغبتها ، يقول تعالى : ﴿ ... قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ... ﴾ البقرة / ٩٣ .

التصوير القرآنى يصورها فى صورة ساخرة هازئة وفى تهكم مضحك ، أشربوا ماذا ؟! أشربوا العجل ! وأين أشربوه ؟! فى قلوبهم ، محاولة ساخرة أن يُدخل عجلاً فى قلوبهم فيستقر ويقر ويوجه العقل والبدن والجوارح !! محاولة هازئة أن يحشر فى قلوبهم حشراً العجل !! فإذا بالخيال يسرح : كيف أشربوه وكيف يدخل ؟ وكيف حُشر ؟ وينسى الانسان معنى الآيات وعظة الموقف ! .

إن معنى الآيات وعظة هذه الحقيقة أن حبهم لعبادة العجل فاقت كل عبادة ، وسمت عن كل حب ، حتى لكأن قلوبهم قد أشربته إشراباً ، فقد ملأ العجل عين قلوبهم ، وإن كان ظ عمل القلب من العبادة : المحبة لله والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له ، وإخلاص الدين لله ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه ، وعلى أقداره ، والرضا به وعنه ، والموالاة فيه والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، وغير ذلك من أعمال القلوب .. تصور أن الكافرين تتحرك قلوبهم لغير الله بهذه الأعمال ، لعجل أو لدنيا أو لهدف أو لجاه أو لسلطان أو لمال أو لحمية أو لانتقام ، وهذا ما يفسر ثبات قلوب الكافرين على الضلال والإضلال والصبر على ذلك .

أما المؤمنون فهم الأعلون بما رزق الله قلوبهم من منازل القرب منه ، فإذا تذوق القلب طعم حب العبادة ومحبة ربه ، يبقى القلب مأسوراً فى يد



حبيبه ممتحنا بحبه ، فالناس ممتحنون مفتونون بما يفنى من مال وصور ورئاسة معذبون بذلك قبل حصوله وحال حصوله وبعد حصوله ، أما هو فينعم من قرب ربه ، وفى موقف يوم القيامة ، وكما يقول الإمام ابن القيم جـ ٣ فى المدارج :

(وقد أسمعهم المنادى (لينطلق كل قوم مع ما كانوا يعبدون) فيبقون فى مكانهم ينتظرون معبودهم وحبيبهم الذى هو أحب شئ إليهم حتى يأتيهم فينظرون إليه ويتجلى لهم ضاحكاً) .

أين هؤلاء ممن أشربت قلوبهم بحب عبادة غير الله عز وجل ؟!! .



صفات قلوب المنافقين
من كتاب الله تعالى

١ـ ريبة في قلوبهم
٢ـ وتأبى قلوبهم
٣ـ قلوب غافلة
٤ـ قلوب مريضة
٥ـ قلوب مطبوعة
٦ـ ولما يدخل الإيمان في قلوبهم
فليحذر المنافقون مكر الله

صفات قلوب المنافقين
من كتاب الله تعالى

١ـ ريبة فى القلوب .

يقول تعالى : ﴿ ... وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ التوبة / ٤٥ .

ويقـول تعالـى : ﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ... ﴾ التوبة / ١١٠ .

ويقـول تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا ... ﴾ النور / ٥٠ .

أمر هؤلاء المنافقين عجيب وغريب ، نهكت أمراض الشهوات والشبهات قلوبهم ، وغلبت أهدافهم ومقاصدهم السيئة على إرادتهم ونياتهم فأفسدتها ففسادهم قد أوشك على الهلاك ، وعجز عن علاجهم أحذق أطباء القلوب العارفين .

ومن صفات قلوبهم القبيحة التردد والشك والريب ، الذين يؤمنون بالله ويعتقدون بيوم الجزاء لا ينتظرون أن يؤذن لهم فى أداء فريضة الجهاد ! أولئك وقد خلت قلوبهم من اليقين والايمان يتلكأون ويعتذرون ويتلمسون الأعذار الواهية ويخترعون العوائق فى سبيل كل عمل ، لعل عائقاً يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة ، التى يتشدقون فى شرحها ، ويتظاهرون بالثبات عليها ، وهم فى حقيقة الأمر : يرتابون فيها ويترددون .

فلماذا وصلوا إلى هذا الحد ؟ هل الطريق إلى الله لم تكن واضحة فى أذهانهم وقلوبهم ؟! ، إن الطريق إلى الله أشد وضوحاً وأعظم استقامة وليس هذا بكلام نظرى وإنما روته دماء الأصحاب الكرام وأعمال وفتوحات التابعين ومن تبعهم وثبت على دينه إلى يومنا ! فلماذا إذن هذا التردد فى الموقف ؟ والشك فى القلب ؟ .

... نعم هم الذين لا يعرفون الطريق لأنهم لم يحاولوا بقلوب صادقة أن يتعرفوا عليه وكيف وفى قلوبهم المرض ؟! فتجدهم يترددون ويتلكأون ! ثم إن بعضهم وإن عرف الطريق قبل نفاقه فهو يتنكبها إتقاء لمتاعب الطريق التى يعرفها . ثم يبقى هذه الموقف الذى صورته الآيات لهؤلاء الذين نافقوا وبنوا

مسجد الضرار وبناة كل مساجد الضرار : لقد انهار الحرف المنهار ، انهار بناء الضرار الذى أقيم عليه ، انهار به فى نار جهنم وبئس القرار ! ولكن ركام البقاء بقى ثابتاً فى قلوب بناته ! بقى (ريبة) فيها وشكا وقلقاً وحيرة .

وهكذا ستظل هذه القلوب لا تعرف الاطمئنان ولا تجنح إلى الاستقرار ولا تتذوق الثبات ، إلا كما قال القرآن : أن تتقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور .

والإمام ابن القيم فى المدارج يرى كما يرى ابن تيمية فى تفسير ﴿ **إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ** ﴾ أى بالتوبة لأن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه وهذا هو تقطعه ثم يقول : (من لم يتقطع قلبه فى الدنيا على فرط حسرة وخوفاً ، تقطع فى الآخرة إذا حُقت ، فلا بد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة) .

وفى التساؤل القرآنى فى الآية الثالثة تقرير بأن مرض القلب أو الريبة فى القلب جدير كل منهما أن ينشئ هذا الأمر ويحدث هذا الانحراف فبالمرض اختلفت به فطرته عن استقامتها ، فلا تتذوق إيماناً ولا تسير على منهج قويم .

٢ـ وتأبى قلوبهم :

يقول تعالى : ﴿ ... **يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ التوبة / ٨ .

ربما يعجب الناس من قول أحدهم لحلاوته ولينه وطلاوته ويشهد الله على ما فى قلبه من كذب وغش وتدليس ، يقول تعالى : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**﴾ البقرة / ٢٠٤ .

فلماذا يرضونكم بأفواههم ؟ ولماذا يعطون الناس من معسول القول ؟ إن الله تعالى تتبع هؤلاء ففضح سرائرهم ، وأظهرها على وجوههم وفلتات لسانهم ، فلا يخفون بحال على أهل البصائر من المؤمنين وقد بين الله حقيقة ما فى قلوبهم أنها تأبى تنفيذ ما تعلن وما تقول ، فهم يرضونكم بالقول اللين وتنفيذ العهود والمواثيق وقلوبهم تأبى أن تقيم على العهد ، قلوب تنغل عليكم بالحقد ، وتأبى أن تقيم على الوفاء أو الود لكم .

٣ـ قلوب غافلة :

يقول تعالى : ﴿ .. **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** .. ﴾ الكهف / ٢٨ .



أغفلنا قلبه : فهو حكم من الله تعالى حين اتجه إلى ذاته ، وإلى ماله ، وإلى أبنائه ، وإلى متاعه ، ولذائذه وشهواته فلم يعد فى قلبه متسع لله تعالى .

والغفلة : هى نوم القلب ولهذا تجد كثيراً من الأيقاظ فى الحس نياماً فى الواقع ، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن .

والقلب الغافل لا ينتفع من الدنيا إلا انتكاسة وابتعاداً ونوماً ويحمل ذلك معه فى البرزخ وفى موقف القيامة وعلى الصراط .

والقلب الغافل الذى يشتغل بهذه الشواغل فيجعلها غاية حياته لا جرم ، يغفل عن ذكر الله فيزيده الله غفلة ويملى له فيما هو فيه .

وهكذا تتفلت الأيام من بين يديه حتى يلقى ما أعده الله تعالى له ولأمثاله (من سوء العاقبة) الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم .

٤ـ قلوب مريضة :

وردت آيات كثيرة تتحدث عن صفة المرض فى قلوب المنافقين نختار منها هذه الآيات لنتعرف على حقيقة المرض الذى يريده الله فى قلوبهم .

يقول تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ الأحزاب / ١٢ .

ويقول تعالى : ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ** ...﴾ التوبة / ١٢٥ .

ويقول تعالى : ﴿ ... **رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** ... ﴾ محمد / ٢٠ .

ويقول تعالى : ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ** .. ﴾ الانفال / ٤٩ .

ويقول تعالى : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ... ﴾ البقرة / ١٠ .

ويقول تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ** ... ﴾ محمد / ٢٩ .

ربما من خلال تلاوتك للآيات تبين لك كم هى قاسية هذه الصفة فى قلوب المنافقين ، فهو مرض يزيده الله فى قلوبهم ، استعصى على أطباء القلوب من العارفين أن يعالجوه .



والمرض الذى فى قلوبهم يفقدهم تماسكهم ويسقط عنهم ستار الرياء الذى يتسترون به ، هذا المرض يدفعهم إلى الجهر بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين وذلك من شدة الهول والروع الذى لا يثبت له إيمانهم الهش المهلهل ، فى غزوة الأحزاب كان قولهم : ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ المرض هنا عدم إدراكهم للحقيقة ومن شدة الهول انطلقت ألسنتهم تفصح عما فى قلوبهم من علة .

وإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال أى الأمر به أو بيان حكم المتخلفين عنه فى أى شأن من شئونه إذا بأولئك ﴿ ... الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ من شدة الخوف والهلع يصلون إلى هذا الضعف والرعشة والتخاذل بل إلى حد الغشية ﴿ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ وتلك طبيعة المرض ثم يقولون ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ والمرض هنا أنهم لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، فهم يرون ظواهر الأمور دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ودون أن يشعروا بقوة الله تعالى والثقة فيه واستصغار شأن الجموع لأنها لا تستند إلى عقيدة ، فلا جرم إذن أن يظنوا أن المسلمين مخدوعون فى موقفهم مغرورون بدينهم ، فالقلوب الخاوية ترى الواقع المادى ولا ترى شيئا وراءه أما القلوب المؤمنة فإنها تبصر ما وراءه من واقع حقيقى يشمل جميع القوى .

ومن هنا نتعرف على سر انحرافهم عن الطريق المستقيم ففى طبيعتهم أنفة وفى قلوبهم علة ، ويجعلهم ذلك يستحقرون أن يزيدهم الله مما هم فيه فالمرض ينشئ المرض والانحراف يبدو صغيراً ثم يتسع ويزداد وهذه سنة لا تتخلف ولا تتبدل .

وإن هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض يفسدون المجتمعات وإن ساروا فى ركب المؤمنين ورفعوا شعاراتهم ، فالله تعالى يحذر زوجات النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ ... إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ... ﴾ الأحزاب / ٣٢ .

نهاهن الله عن مخاطبة الأغراب من الرجال وهن فى نبراتهن ذلك الخضوع اللين الذى يثير شهوات الرجال ويحرك غرائزهم ويطمع مرضى القلوب ويهيج رغائبهم !! .

والقلوب المريضة التى تثار موجودة فى كل عهد وفى كل بيئة وتجاه كل امرأة ، فتباً لهم !! وأنه لاطهارة من الدنس ولا تخلص من الرجس حتى تمنع الأسباب المثيرة من الأساس وبهذا نطق القرآن وجاء الإسلام فهل من معتبر ؟!

هؤلاء يحسبون أنهم بهذا المرض فى قلوبهم قد أتقنوا فن النفاق وقد استطاعوا إخفاء نفاقهم ؟! ولكن القرآن يسفه ظنهم بإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين ، يقول للنبى ﷺ : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ** .. ﴾ محمد / ٣٠ ، أى لو نشاء لكشفنا لك عنهم بأشخاصهم وأسمائهم .

٥ـ قلوب مطبوعة :

يقول تعالى :﴿ ... **فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ المنافقون / ٣ .

ويقول تعالى ﴿ ... **رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ التوبة / ٩٣ .

ويقول تعالى : ﴿ .. **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ محمد / ١٦ . هؤلاء المنافقون عرفوا الإيمان ، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر فى قلوبهم ، وإن القلب الذى يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر ، قلب ليس فيه فقه أو تذوق أو حياة وإلا فكيف يعود إلى الكفر الكالح بعد الإيمان ؟! .

أما المؤمنون فالإيمان مثبت فى قلوبهم بيد الله مكتوب فى صدورهم بيد الله ، فلا زوال ولا اندثار ولا انطماس ولا ريب ولا غموض . وهذا ميزان دقيق لا يجتمع فى قلب واحد : ودّ لله ورسوله أو ودّ لأعداء الله ورسوله ، أما معاً فلا يجتمعان ﴿ ... **وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ... ﴾ المجادلة / ٢٢ .

ولقد كان حال المنافقين عجيباً حينما يكونون عند رسول الله ﷺ يستمعون أى (يستمعون باهتمام) ولكنهم فى الحقيقة يتظاهرون بذلك وقلوبهم غافلة لاهية مغلقة مطموسة ـ ثم يتبعون سياسة الغمز واللمز ويسألون : إن ما يقوله محمد لا يُفهم !! لا يعنى شيئاً يفهم !! ﴿ ... **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ .

وكم من أحوال عجيبة نراها اليوم لطابور يفعل هذه الأفعال ويعمد إلى سياسة الغمز واللمز بالإسلام وينالون من حقائق الدين مدعين تصحيح



المفاهيم وتبيين المواقف وهم لا يشعرون أن الله قد طبع على قلوبهم ، ويتبعون أهواءهم .

وأقسى ما تكون من حركة هؤلاء حين يرتضون الخمول والبلادة والوخم والاحتجاب عن مزاولة أى نشاط حى وثاب ! فالحركة هى الحياة وإن الراحة والبلادة هى الموت وهى التى تطبع على القلوب : ﴿ ... رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة / ٩٣ ، والذين يرضون بالدون هم الذين هدفهم السلامة ، ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما فى الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم وما فى الفرار والهروب والانهزام من ضعف وذلة ومهانة وفناء ذميم .

٦- ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم :

يقول تعالى : ﴿ .. وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. ﴾ الحجرات / ١٤ . فحقيقة الإيمان لم تستقر فى قلوبهم بعد ، ولم تشربها أرواحهم ، وإن حقيقة الإيمان فى القلوب هى تصديق بالله ورسوله ، التصديق الذى لا يرد عليه شك ولا ارتياب .

التصديق الذى لا اضطراب فيه فهو ثابت مستقر فمتى تذوق القلب حلاوة هذا الإيمان اندفع لتحقيقه فى خارج القلب ، فى واقع الحياة ، فى واقع دنيا الناس ، لقد انتفت هذه الحقيقة تماماً عن قلوبهم ، ولم يكتبها الله سبحانه لهم ، ولذلك فإن الإنفاق صعب على قلوبهم لخلوها من حقيقة الإيمان فأقعدهم الخوف من البذل ، وأصبحوا سجناء لشحهم ، حيث لا أمن ولا قرار ، يقول تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ .. ﴾ التوبة / ٧٧ .

ولذلك اختلفت ألسنتهم عما فى قلوبهم ، فهم الذين يقولون اعتذاراً عن تخلفهم : ﴿ .. شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا .. ﴾ وليس هذا بعذر . ويقولون : ﴿ .. فَاسْتَغْفِرْ لَنَا .. ﴾ وهم ليسوا صادقين ولذلك ينبئ الله تعالى رسوله ﷺ بقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ الفتح / ١١ .

وعند المحن والابتلاءات ، يكشف الله هؤلاء المنافقين ، وفى يوم الأحزاب يصور الله الموقف فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ الأحزاب / ١٠ ، إنها صورة الهول والكرب الذى شمل المدينة فدخل كل القلوب على السواء ، وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب وفق إيمانها

وظنها بربها ، وسلوكها فى الشدة ، ومن ثم كان التمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً لا تردد فيه ، إن التعبير القرآنى ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ هو استعارة من موقف القلوب يوم القيامة فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ... ﴾ غافر / ١٨ .

الآزفة : القريبة .

العاجلة : القيامة .

وكأنما القلوب من كسبها تضغط على الحناجر وهم كاظمون لأنفاسهم ولمخاوفهم ولآلامهم والكظم يثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون معيناً ، أو عطوفاً يعطف عليهم ، ولا شفيعاً يشفع لهم بكلمة مسموعة .. إنه موقف عصيب ، هذه الحال وبنفس الموقف كان يوم الأحزاب فانكشف المنافقون وقلوبهم قد خوت من الإيمان يقولون : ﴿ ... مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ... ﴾ .



فليحذر المنافقون مكر الله

يقول تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ البقرة / ١٠ .

ما زال المنافقون يغمسون أنفسهم فى الشبهات والشهوات حتى اسودت قلوبهم ، وتمكن المرض منها ، فزادهم الله مرضا ، فعجز الأطباء والعارفون عن علاجهم .

وأسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر فهى لا تسمع منادى الإيمان ، يقول تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ البقرة / ١٨ .

وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن فأصبح الإخلاص عليهم ثقيلا ، يقول تعالى : ﴿ ... وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ النساء / ١٤٢ .

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه ويشهد الله على ما فى قلبه من غش وكذب تباً لهم ... ! ركبوا مع ركب الإيمان فلما رأوا طول الطريق وبعد الشقة نكصوا على أعقابهم فما نالوا متعة وما تلذذوا بهجته لعدم فقههم فطبع على قلوبهم ، يقول تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ المنافقون / ٣ .

أسروا سرائر النفاق فأظهرها الله على صفحات وجوههم وفلتات لسانهم ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان ، يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ محمد ٢٩ : ٣٠ .

لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين ، قال عمر لحذيفة رضى الله عنهما :

(يا حذيفة نشدتك بالله هل سمّانى لك رسول الله ﷺ منهم ؟ قال : لا ولا أزكى بعدك أحداً) .

وقال ابن أبى مليكة : (أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف

النفاق على نفسه) ذكره البخارى ، وذكر عن الحسن البصرى : (ما أمنه إلا منافق وما خافه إلا مؤمن) وعن بعض الصحابة كان يقول فى دعائه : (اللهم إنى أعوذ بك من خشوع النفاق) قيل وما خشوع النفاق ؟ قال : أن يرى البدن خاشعا وكان قلبهم ليس بخاشع .

قلوبهم عن الخيرات لاهية ، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية ، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم وكانت آذانهم واعية .

فليحذر المنافقون قوله تعالى : ﴿ ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ الأحزاب / ٥١ ، وليحذر المنافقون أن يزين الله النفاق فى قلوبهم لقوله تعالى : ﴿ ... وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ الفتح/ ١٢ ، فقد ظنوا ظنهم وزين هذا الظن فى قلوبهم حتى لم يروا غيره ولم يفكروا فى سواه ، وكان هذا هو سوء الظن بالله الناشئ من أن قلوبهم بور أى ميتة نهايتها الدمار والبوار .

وليحذر المنافقون من غمرة القلب ، فالغافلون إنما يغفلون لأن قلوبهم فى غمرة من الحق لم يمسسها نوره لإنشغالها عنه واندفاعها فى الإعراض ، فعلة اندفاعها ليست هى تكليفهم بما هو فوق الطاقة إنما العلة أن قلوبهم فى غمرة لا ترى الحق الذى جاء به القرآن وأنهم مندفعون فى طريق آخر عن المنهج الذى جاء به الإسلام ، يقول تعالى : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ .. ﴾ المؤمنون / ٦٣ .

وليحذر المنافقون من يوم القيامة ، يوم يمتلك الفزع القلوب ، يقول تعالى : ﴿ .. حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ سبأ / ٢٣ .

إنه مشهد فى اليوم العصيب ، يوم الناس ، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يأذن ذو الجلال فى عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام فيهم أن يأذن ذو الجلال فى عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام ويطول الانتظار ويطول التوقع وتعنو الوجوه وتسكن الأصوات وتخشع القلوب فى انتظار الإذن من ذى الجلال والإكرام .

ثم تصدر الكلمة الجليلة الرهيبة فتنتاب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم

ويتوقف إدراكهم عن الإدراك ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ وكشف الفزع الذى أصابهم وأقاموا من الروعة التى غمرتهم فأذهلتهم ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ يقول بعضهم لبعض لعل منهم من يكون قد تماسك حتى وعى : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ الظلال / ج ٥ .

❤ ❤ ❤

صفات قلوب المؤمنين
من كتاب الله تعالى

تمهيد :
١ـ قلوب مطمئنة .
٢ـ قلوب وجلة .
٣ـ قلوب مهدية .
٤ـ قلوب تقية .
٥ـ قلوب منيبة .
٦ـ قلوب سليمة .
٧ـ قلوب ساكنة .
٨ـ قلوب مزينة .
٩ـ قلوب مؤلفة .
١٠ـ وربطنا على قلوبهم .
* **فليحذر المؤمنون مكر الله :**
١ـ البداية إلف المعصية .
٢ـ ثم تذهب بصيرة القلب .
٣ـ حجب القلب عن الرب .
٤ـ القلب بين اللذة والألم .



صفات قلوب المؤمنين
من كتاب الله تعالى

تمهيد :

يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ الحج / ٤٦ .
ويقول تعالى : ﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ... ﴾ الأعراف / ١٧٩ ، فالقلب خلق ليعقل ، وخلق ليفقه ، وإذا فقه القلب وأدرك وفهم ، قاد الجوارح كلها ، وكما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح فالفقيه : ينظر فى تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع ونهيه وإذنه وكراهته ومتعلقات ذلك ، وفقه القلب : هو النظر فى تلك الحركات من جهة كونها موصلة له إلى مراده أو قاطعة عنه مفسدة لقلبه أو مصححة له .

ولقد شرف الله القلب بأن جعله موضوع تلقى الوحى من السماء ، لأنه هو الذى يفقه بعد التلقى يقول تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ... ﴾ البقرة / ٩٧ .

فكان القلب موضع استقرار لهذا الكتاب وحفظه وإدراكه ، وليس هو هذه العضلة المعروفة لدى الناس ، يقول تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ الشعراء ١٩٣ : ١٩٤ ، نزل به على قلبه ﷺ فتلقاه مباشرة ، ووعاه وعيا مباشرا ، ليقوم بأعز مهمة فى الوجود ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين .

ثم إنه لقلب واحد ، فلا بد من منهج واحد ، وتصور واحد ، وميزان واحد يزن به القيم ، ويقوّم به الأحداث ، وإلا تفرق وتمزق والتوى ولم يستقم على اتجاه .

(ولا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وسلوكه وأخلاقه من معين ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر ، ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث ، ويستمد تصوراته من معين رابع فهذا الخليط لا يكون إنساناً له قلب ، إنما يكون مزقاً وأشلاء ليس لها قوام ! فالقلب الواحد لا يعبد إلهين ، ولا يخدم سيدين ، ولا ينهج نهجين ولا يتجه اتجاهين) الظلال / ج ٥ .

وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ الأحزاب/ ٤ ، والصورة المخيفة لقدرة الله تعالى أن الله يحول بين المرء وقلبه ، فيستحوذ على هذا القلب ويصرفه كيف يشاء ، ويقلبه كيفما أراد ، وصاحبه لا يملك منه شيئاً وهو قلبه الذى بين جنبيه يقول تعالى : ﴿ ... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال / ٢٤ ، وهذا يستوجب اليقظة الدائمة والحذر المستمر والاحتياط المتواصل ، من كل هاجسة وكل ميل والوقوف على خلجات القلب وخفقاته ، أن تكون كلها لله تعالى ، مخافة أن يقلب الله هذا القلب فى سهوة من سهواته ، أو غفلة من غفلاته ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته فقال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النحل / ٩٧ ، وقد فسرت الحياة الطيبة أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه فإنه لا حياة أطيب من حياة الجنة ، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة كما كان بعض العارفين يقول : إنه لتمر بى أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب وقال غيره : إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الشورى / ٥٢ .

فأخبر أنه ﴿ روح ﴾ تحصل به الحياة ، وأنه ﴿ نور ﴾ تحصل به الإضاءة والإشراق .

وهذه جولة فى صفات قلوب المؤمنين نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهله وخاصته وأن يشملنا بهذه الصفات وأن يجمعنا واياكم عند الحوض . اللهم آمين .

١ـ قلوب مطمئنة

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد / ٢٨ ، الطمأنينة سكون القلب إلى الشئ وعدم اضطرابه وقلقه ﴿ ألا

بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قيل : إما ذكر العبد ربه فإنه يطمئن إليه ويسكن ، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله . والثانى : القرآن ... فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن .

(هذه القلوب تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره والأمن فى جانبه وفى حماه . تطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق بفقهها وإدراكها حكمة الله فى الخلق والمبدأ والمصير ، وتطمئن بالشعور بحماية الله لها من كل اعتداء ومن كل شر ﴿ إنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. إلا بما يشاء الله من الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء وتطمئن برحمته تعالى فى الهداية والرزق والستر فى الدنيا والآخرة) الظلال ج ٤ .

وهذه الحقيقة لا يتذوقها ولا يعرفها ولا يشعر بحلاوتها إلا من خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فتحولت إلى اطمئنان بذكر الله ، إنها معرفة القلب وهو يسير إلى ربه ويتصل بمحبوبه ، لا يستطيعون بحال أن ينقلوها بالكلمات إلى الناس الذين لا يعرفونها ، إنما تسرى فى القلب فيهش لها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة ، فإذا به يأنس مع كل الموجودات فكل ما حوله صديق له ، من صنع الله الذى هو فى حماه .

وكم شقى هؤلاء الذين حرموا الطمأنينة ، حرموا من الأنس بربهم ، حرموا من الاتصال بالكون لأنه قطع صلته بخالق الكون ، ليس أشقى من يسير فى الأرض خائفاً مرعوباً غير مطمئن ، لأنه لا يستشعر صلته مع كل شئ فى هذا الوجود ، وما أشقاه هذا المبتوت الصلة بذكر ربه كيف به يسير فى الدنيا وحيدا بلا ناصر ، شارداً بلا هاد ، مشتتاً بلا معين .

وهذه من اللحظات العاصفة للبشر ، التى لا يصمد لها إلا المطمئنون بالله ، المرتكنون إليه ، المطمئنون إلى حماه .

ويفرق الإمام ابن القيم فى المدارج بين الطمأنينة والسكينة ، وذلك لنضع أفهامنا على شرف الطمأنينة وقوتها وعزتها فيقول : إن الطمأنينة توجب السكينة وأثر من آثارها وكأنها نهاية السكينة وهى سكون القلب مع قوة الأمن ثم يقول : والسكينة تخمد الهيبة الحاصلة فى القلب فى بعض الأحيان فيسكن القلب بعض السكون ، ولكن ذلك ليس حكما مستمراً دائما ، أما الطمأنينة

دائما بل ويصحبه الأمن والراحة والأنس ، ثم يعمد إلى سبب ثالث ، أن الاستراحة فى السكينة ، وقد تكون من خوف وهيبة فقط ، أما الاستراحة فى الطمأنينة تكون مع زيادة أنس .

وبذلك فالطمأنينة أعم ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما تعمق الإيمان به ، وأما السكينة فجملة القول فيها أنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه وسكونه وزوال قلقه واضطرابه .

ومن هنا نفهم وندرك موقف عمار بن ياسر حينما أعطى الكافرين بلسانه ما أرادوه منه مكرها ، فشكا ذلك لرسول الله ﷺ الذى قال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان ، فقال رسول الله ﷺ : فإن عادوا فعد ، وفيه أنزل الله تعالى قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ النحل / ١٠٦ .

وندرك ونفهم كذلك فقه شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ .. ﴾ البقرة / ٢٦٠ .

يقول صاحب الظلال ج١/ : (إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان ، إنما هو أمر آخر له مذاق آخر .

لقد أراد أن يرى يد القدرة وهى تعمل ، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ويعيش معها ، لقد كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله وهى تعمل ، واطمئنان الذوق للسر المحجب وهو يتكشف) .

وندرك ونفهم كذلك سر قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ آل عمران / ١٢٦ .

أى نزول الملائكة ليس إلا بشرى لقلوبهم لتأنس بهذا وتستبشر وتطمئن به وتثبت ، ثم ينعم الله تعالى على الذاكرين بما يثبت الطمأنينة ، الذين يخشون ربهم ويعيشون فى خشية ورجاء يتلقون هذا الذكر فى وجل وارتعاش تقشعر منه الجلود ثم تأنس قلوبهم بهذا الذكر فتلين جلودهم وقلوبهم ويثبت اطمئنانها إلى ذكر الله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الزمر / ٢٣ .

٢ــ قلوب وجلة

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الأنفال / ٢ .

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الحج / ٣٥ .

ويقول تعالى : ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ .. ﴾ المؤمنون / ٦ .

فيما رواه الإمام الثورى عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت : الوجل في القلب كاحتراق السفة أما تجد له قشعريرة ؟! ، قال : بلى ، قالت : إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك فإن الدعاء يذهب ذلك .

وفي الظلال عن حديث الوجل : (إنها الارتعاشة التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر الله في أمر أو نهى فيشاهد جلاله ، وتنتفض فيه مخافته ، ويتمثل عظمة الله ومهابته إلى جانب تقصيره هو وذنبه) فينبعث إلى العمل والطاعة كما قالت أم الدرداء رضي الله عنها .

قال على بن طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ثم وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه .

وفي المسند والترمذى عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : (يا رسول الله ، قول الله ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ المؤمنون / ٦٠ ، أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ، ويسرق ؟ قال : « **لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه** ») قال الحسن : عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم ، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمنا .

وقال أيضاً : يؤتون الإخلاص ويخافون ألا يقبل منهم وفي تفسير القرطبى : وجل العارف من طاعته أكثر وجلا من وجله من مخالفته ، لأن

المخالفة تمحوها التوبة ، والطاعة تطلب بتصحيح الغرض .

وفى المدارج يفسر الإمام ابن القيم الوجل : بأنه رجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته ، أو لرؤيته .

وبهذا التعريف فالقلوب الوجلة هى المهيئة لأن تكون من المحبين أو المقربين ، ومعنى ذلك إذا تحققت هذه القشعريرة أو الارتعاشة أو الرجفان والانصداع ، فقد تحققت فى القلب الخشية التى هى منزلة العارفين ، فإذا اقترن الوجل بالمحبة والمعرفة ، كان هيبة ، وهو منزلة المحبين ولا تتحقق الخشية إلا بخوف القلب ، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل ، فإنك إذا خفته هربت إليه ، فالخائف هارب من ربه إلى ربه ، ولذلك إذا رحل الخوف عن القلب رحل الإيمان ، لقول إبراهيم بن سفيان : إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها ، وطرد الدنيا عنها .

وفى آية سورة الحج قوله تعالى : ﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴾ فكانت أول صفات المخبتين : القلوب الوجلة عند ذكر الله تعالى.

وعن المخبتين : قال الكلبى : هم الرقيقة قلوبهم ، وسر هذه الرقة يكمن أولاً فى الوجل بالمعانى السابقة ، وعند القرطبى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعليّ رضوان الله عليهم ، ثم يقول : هذه حالة العارفين بالله لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة من الزعيق والزئير فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع : إنك لم تبلغ أن تساوى حال رسول الله ﷺ ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله ، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله .

وبذلك تكتمل أروع صورة لصفة وجل القلوب ، (فيستشعر القلب يد الله عليه ، ويحس آلاءه فى كل نفس ، وكل نبضة ، ومن ثم يستصغر كل عباداته ويستقل طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه ، كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه - لال الله وعظمته ، ويرقب بكل مشاعره يد الله فى كل شئ من حوله ... ومن ثم يشعر بالهيبة ، ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر فى حقه) الظلال ج ٤ .

٣ـ قلوب مهدية

يقــول اللــه تعـالــى : ﴿ .. وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن / ١١ .

قال ابن عباس : هو أن يجعل الله فى قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقيل : يثبته على الإيمان ، وقال الكلبى : هو إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر ، وقيل : يهد قلبه إلى نيل الثواب فى الجنة .

ولذلك يقول القاسمى : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ أى إلى العمل بمقتضى إيمانه ، ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير ، ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى يعلم مراتب إيمانكم وسرائر قلوبكم وأحوال أعمالكم وآفاتها وخلوصها من الآفات ولذلك فالهداية تبدأ من اليقين ، فإذا تحقق كان الثبات على الإيمان عند الابتلاء والرخاء ، كان الدافع إلى العمل وفعل الطاعات واجتناب المحظورات ، فاليقين منه من الله ، لأنه روح أعمال القلوب ، ومتى تحقق امتلأ القلب نوراً وإشراقا ، يقول الجنيد : اليقين استقرار العلم الذى لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير فى القلب ويقول أبو بكر الوراق : اليقين ملاك القلب وبه كمال الإيمان .

والقلب المهدى يجد حلاوة للإيمان ، فإذا وجدها خرج من جملة النيام الغافلين ، وحينئذ يحرر القلب من رق الماء والطين إلى رق رب العالمين وكما قيل :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته
فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

أما حظ القلب من الهداية فنلخصه كما بينه علماء القلوب فى خمسة أمور :

١ـ الحديث :

قال النبى ﷺ : « **إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب** » وشيخ الإسلام ابن تيمية يشرح ذلك بأن الأمم قبلنا كانت تحتاج إلى هذا الأمر فأما أمتنا فقد استغنت بكمال نبيها ورسالته ، والمحدث هو

الذى يحدث فى سره وقلبه بالشئ فيكون كما يحدث .

ويعلق ابن القيم محذراً مما يقوله أصحاب الخيالات والجهالات (حدثنى قلبى عن ربى) متسائلاً : فصحيح أن قلبه حدثه : ولكن عمن ؟ عن شيطانه أم عن ربه ؟ ... ومحدث أمتنا لم يكن كذلك بل كتب كاتبه يوماً : هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ! ، فقال : لا أمحه واكتب : (هذا ما رأى عمر بن الخطاب فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمن عمر والله ورسوله منه برئ) .

٢ـ الفهم :

لقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ... ﴾ الأنبياء / ٧٩ ، وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما (والفهم فيما أدلى إليك) . فالفهم منة من إلهه ، ونور يقذفه فى القلب ، يدرك به مالا يدركه غيره ولا يعرفه ، فيفهم مالا يفهمه غيره .. وانظر إلى فهم ابن عباس عن سورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فيقول : (إنها نعى الله سبحانه نبيه إلى نفسه) وإعلانه بحضور أجله ، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سناً .. وهذا فهم خاص أتـاه الله لابن عباس .

٣ـ بيان الحق :

فيشهد بقلبه الحق كشهود العين للمرئيات فيتبين الحق ويميزه من الباطل بأدلته وبراهينه وشواهده ولذلك يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ الصف / ٥ ، بل إن الله عاقبهم على ترك الإيمان بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا إليه لقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الأنعام / ١١٠ .

٤ـ الإسماع :

يقول تعالى : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ الأنفال / ٢٣ ، الإسماع هنا : إسماع الآذان واسماع القلوب معاً ، فإن الكلام له لفظ ومعنى فسماع لفظه حظ الأذن وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب .. ولذلك فإن الله سبحانه تحدث عن الكفار أنهم تحقق لهم سماع الأذن وليس حظ القلب فى قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ... ﴾ الأنبياء/ ٢ : ٣ ، فمقصود

السماع لم يتحقق فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ محمد / ١٦ .

٥ـ الإلهام :

يقول تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾ البقرة / ٢٦٨ .

فالإلهام هو خطاب يلقى فى قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه ، وهو واعظ الله عز وجل فى قلوب عباده المؤمنين كما فى جامع الترمذى ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبى ﷺ قال : « **إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبى الصراط سوران لهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوق الصراط فالصراط المستقيم الإسلام والسوران : حدود الله حتى يكشف الستر والداع على رأس الصراط كتاب الله ، والداع فوق الصراط : واعظ الله فى قلب كل مؤمن** » .

فهذا الواعظ هو الإلهام فى قلوب المؤمنين ومن ثم فالهداية فى قوله تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هى شفاء لمرض الضلال والجهل ، فلما عوفى من أمراضه وتمت عليه النعمة وكان من المنعم عليهم ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق ثم عدلوا عنه ﴿ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ هم فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه .

٤ـ قلوب تقية

يقول تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ الحج / ٣٢ . ويقول تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ الحجرات / ٣ .

ما العلاقة بين القلب والتقوى ؟ لقد أشار النبى ﷺ إلى صدره قائلاً : التقوى ههنا التقوى ههنا ... ربط الله تعالى فى الآية الأولى بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب ، إذ أن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره ، وهذه المناسك والشعائر إن هى إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته ، لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختارون الهدى السمين الغالى الثمن ، يعلنون بذلك عن تعظيمهم لشعائر الله ، وما يدفعهم



إلى ذلك إلا تقوى قلوبهم .

هذه التقوى هي هبة ربانية يختار الله لها القلوب ، بعد امتحان واختبار وبعد تخليص وتمحيص ، يقول تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ آل عمران / ١٥٤ ، فلا يضع الله التقوى فى قلب إلا وقد تهيأ لها ، وقد ثبت أنه يستحقها والموقف فى الآية الثانية : هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ قد اختبر الله قلوبهم ، وهيأها لتلقى تلك الهبة (هبة التقوى) ... روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلين فى مسجد الرسول ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف ، فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .. ! .

٥ـ قلوب منيبة

قال تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ ق/ ٣٣ .

يقول القرطبى : يحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم ، والمنيب أى المقبل على الطاعة وقيل : المخلص ، وقال أبو بكر الوراق : علامة المنيب أن يكون عارفاً لحرمته ومواليا له ، متواضعاً لجلاله تاركاً لهوى نفسه .

يقول القاسمى : أى جاء ربه بقلب تائب من ذنوبه راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه .

٦ـ قلوب سليمة

يقول تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء / ٨٩ .

ويقول : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الصافات / ٨٣ ـ ٨٤ .

قال عوف الأعرابى : سألت محمد بن سيرين ما القلب السليم ؟ فقال : الناصح لله عز وجل فى خلقه ، وقيل أى مخلص من الشرك .

يقول القرطبى مجيئه إلى ربه وجهين :

أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته .

والثانى عند إلقائه فى النار .

٧ـ قلوب ساكنة

(أنزل الله فيها السكينة)

يقول تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ الفتح/ ١٨ .

ويقـول تعـالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾ الفتح/ ٤ .

إنهـا الحقيقة الرائعة التى أودعها اللـه تعالى، وجعلها بفضله قابلة لنزول السكينـة، فـفى الوقت الذى تجيش فيـه النفس بالانفعـالات ويضطرب الوجدان وتهتز النفس، تأتى السكينة فى لحظة يتحول فيها القلب من الانتظار إلى الاستقرار، ومن الاضطراب إلى الوقار، ومن القلق إلى الراحة واليقين.

فما أعظمها من بسمة الرضا على الوجه، وإنشراحة الثقة فى الصدر، لثبـات القلب بسكينة الرحمن الرحيم.

حينما نسترجع أحـداث الفتح ندرك معنى هذه الحقيقـة: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ..

لقد كانت قلوبهم تفور بانفعالات متنوعـة كـان فيها التطلع لتصديق رؤيا رسول الله ﷺ وموقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وحمية المسلمين فى رد اسم الرحمن الرحيم.. وبينما يرفض علىٌ كرم الله وجهه أن يمحو.. محاها رسول الله ﷺ بنفسه وهو يردد:

« **اللهم إنك تعلم أنى رسولك** »...

ثم تفضل الله عليهم بهذه السكينـة:

﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾

فـانقلبوا إلى جو الطمأنينة والراحة واليقين والثقة والوقار والثبات والاستسلام والرضا.

فما الذى علمه الله من قلوبهم؟! لقد كانت حميتهم لدينهم وليس لأنفسـهم، لقد كان فيهـا الصدق فى بيعتهـم، لقد ملكوا قلوبهم فى كظم انفعالاتهم تجاه الاستفزاز الجاهلى، لقد ضبطوا مشاعرهم ليقفوا صفاً واحداً خلف كلمة رسول الله ﷺ طائعين مسلمين صابرين.. هذا ما علمه الله فى قلوبهم... ﴿ فَأَنزَلَ... ﴾ بهذا الهدوء الآمن نزلت السكينة فى وقار تضفى على

تلك القلوب المتحمسة المنفعلة الحارة برداً وسلاماً وطمأنينة وأماناً وارتياحاً.

﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾.

فالسكينة حال القلب عند الاضطراب، تنزل فى القلوب بفضل من الله ورحمة...

٨ـ قلوب مزينة
زينها الله بالإيمان

يقول تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات/ ٧ .

لقد ذكر الله تعالى فى كتابه الكريم القلب (١٣٦) مرة ولكن الذى يسترعى الانتباه أن الحديث بكلمة ﴿ **قلوبهم** ﴾ و﴿ **قلوب** ﴾ و﴿ **قلوبكم** ﴾ كان أكثر بكثير من الخطاب بكلمة ﴿**قلب** ﴾ و﴿ **قلبك** ﴾ و﴿ **قلبه**﴾ أو ﴿**قلبها** ﴾ أو﴿ **قلبى** ﴾ أو ﴿ **قلبين** ﴾... وفق هذه الإحصائية:

قلب = ٦ مرات	قلوب =٢١ مرة
قلبك = ٣ مرات	قلوبهم = ٧٢ مرة
قلبه = ٨ مرات	قلوبكم = ١٥ مرة
قلبها = مرة	قلوبنا = ٦ مرات
قلبى = مرة	
قلبين = مرة	
قلوبهن = مرة	
قلوبكما = مرة	

وفى هذا دليل واضح على أن الله يخاطب الجماعة المؤمنة، لأنه إذا استقامت القلوب، استقامت الجماعة، وإذا استقامت الجماعة المؤمنة استقامت الأمة المسلمة، وإنما الصلاح الحقيقى للقلب أن يعمل فى إطارقلوب تجتمع على محبة الله و وتلتقى على طاعته، وتتوحد على دعوته، وتتعاهد على نصرة شريعته.

وبهذا الخطاب للجماعة يقول الله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾



الحجرات / ٧ ، وجعله مزيناً فى القلوب ، فهى قلوب وضاءة تتلألأ فى جنباتها الزينة، ويُسَرُّ الصدر بالأنوار والإشراق، وهذه الزينة نعمة من الله ومنّة، فهو سبحانه الذى حرك القلوب لحبه، وكشف لهم عن جماله ووجه قصدهم إليه، وعلق أرواحهم به.. إن اختيار الله لفريق من المؤمنين بعينهم بأن يحرك قلوبهم إليه ويزينها بالإيمان، فتهفو أرواحهم إليه، هذا الاختيار فضل من الله ونعمة. وهذا يستوجب على القلب التسليم لتدبير الله والاطمئنان إلى حكمة تدبيره من خير وفضل وبركة .

٩ـ قلوب مؤلفة

يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ آل عمران / ١٠٣ .

ويقول تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الانفال/ ٦٣ .

ويقول تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الانفال/ ٦٣ .

وهذه صفة تنفرد بها القلوب المؤمنة ، أطلق عليها الشهيد سيد قطب: (المعجزة التى لا يقدر عليها إلا الله، والتى لا تصنعها إلا هذه العقيدة) .

وهذه يد الله تعالى هى التى تؤلف وتجمع، عندما تخالط القلوب هذه العقيدة، فإذا بمزيج من الألفة والحب ومودات القلوب والسحر الجميل الرائع الذى وصفه صاحب الظلال : (التى تلين جاسيها، وترقق حواشيها، وتندى جفافها وتربط بينها برباط وثيق عميق رقيق فإذا نظرة العين ولمسة اليد ونطق الجارحة وخفقة القلب، ترانيم من التعارف والتعاطف والولاء والتناصر والسماحة والهوادة التى لا يعرف سرها إلا من ألّف بين هذه القلوب، ولا تعرف مذاقها إلا هذه القلوب.. !) جـ ٣ .

فالذى ألف هو الله، والذى جمع قلوب الأصحاب بعد التنافر هو الله، حين اعتصموا بحبله فأصبحوا بهذه النعمة إخواناً.

وإنه لسر عظيم أودعه الله فى هذه القلوب، فما كان أن تجتمع هذه القلوب إلا بالأخوة فى الله، والحب فيه تعالى، حيث تصغر كل الأحقاد والأطماع الشخصية والرايات المختلفة، ليجتمع صفاً تحت لواء الله الكبير المتعال:﴿ يَدُ



اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ الفتح / ١٠ .

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ، وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره لضعفهم البشرى، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الدنيا ، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه فى سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران / ١٥٩ .

١٠ ــ وربطنا على قلوبهم

يقول تعالى : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا .. ﴾ الكهف/ ١٤

ويقول تعالى: ﴿ .. وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ الأنفال / ١١

ويقول تعالى: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ القصص/ ١٠ .

الذى يربط على القلب هو الله عز وجل، ولا يمـلك ذلك إلا الله تعالى، فهو الذى يشد عليه ويثبته ويمسك به من الهيام والشرود، وبهذا الربط تصبح القلوب راسخة مطمئنة إلى ما عرفت من الحق، معتزة بالإيمان الذى اختارت.

وهذا موقف فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى، من الذى ثبت قلوبهم فجعلها كالجبال الرواسى؟، ومن الذى ملأ قلوبهم اطمئناناً قوة وأماناً أليس الله تعالى؟ !! حينما رأى إيماناً فى القلب راسخاً، وثباتاً على الحق لا يعرف الاضطراب أو الذبذبة.

ومن موقف الشباب إلى موقف الجيش المجاهد، القليل العدد، الواهن العدة، ولكنه يمتلك قلوباً عامرة بالله تعالى، فهل يتخلى الله عن أهله وأحبائه؟ لقد كانت المؤيدات الإلهية درساً لكل الأجيال، ﴿ .. وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾.

وهذا قلب عامر بالطاعة والإيمان، قلب أم موسى عليه السلام، لقد سمعت الإيحاء، وألقت بطفلها إلى الماء، ولعلها سألت نفسها كيف؟ كيف أمنت على فلذة كبدها أن تلقى به فى اليم؟ كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أُم؟ والتعبير القرآنى يصور لنا فؤاد الام المسكينة فى صورة حية موحية ﴿ فَارِغًا ﴾ لا عقل فيه ولا قدرة ولا وعى على نظر أو تصريف! ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ وتذيع أمرها

فى الناس وتهتف كالمجنونة: أنا أضعت طفلى! أنا ألقيته فى اليم؟ وهنا تتحرك يد القدرة بصفة القلوب العامرة بالإيمان ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ شددنا عليه وثبتناه وأمسكنا به من الهيام والشرود.

قلوب هذه صفتها لا تعرف اضطراباً أو قلقاً فى أحلك لحظاتها، لاطمئنانها أن الله يربط عليها فتستقر وتهدأ، وتثبت فتهنأ، وما ذلك إلا رسوخ إيمانها، وعزتها به ، وثباتها عليه.

فليحذر المؤمنون مكر الله

١- البداية إلف المعصية :

وهو أن ينسلخ من القلب كره الذنب، فتصير له الذنوب عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه ، وهو الجهر بالمعصية كما قال النبى ﷺ : «**كل أمتى معافى إلا المجاهرون، وإن من الإجهار: أن يستر الله العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يا فلان عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فهتك نفسه، وقد بات يستره ربه**» البخارى .

والمخرج من ذلك الطاعة يقول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ... ﴾ فاطر / ١٠ ، أى فليطلبها بطاعة الله، فقد كان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلنى بمعصيتك يقول الحسن البصرى: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه، وقال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب
وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب
وخير لنفسك عصيانها

٢- ثم تذهب بصيرة القلب :

وهو طمس نور القلوب وحجب هداية الله تعالى، فمن وصية الإمام مالك للشافعى: إنى أرى الله قد ألقى عليك نوراً فلا تطفئه بظلم المعصية.

وإن ضعفت بصيرة القلب أصيب بالعمى: ﴿ ... فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الحج/ ٤٦ .



وهنالك يخسف بالقلب وعلامة ذلك أنه لا يزال جوالاً حول الرذائل والقاذورات، وهو الذى قربه الله تعالى ورفعه إليه، يقول بعض السلف: (إن هذه القلوب جوالة فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُش).

* ثم يمسخ بالقلب، فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على الحيوان الذى شابهه فى أخلاقه وأعماله وطبيعته فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير أو كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك ، وهذا تأويل سفيان بن عُيينة فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ...﴾ الأنعام / ٣٨ .

* ثم ينكس القلب حتى يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، ويفسد ويرى أنه يصلح، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليه، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه !! .

فليحذر المؤمنون ذلك.. فكم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر؟ وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه؟ ومغرور بستر الله عليه؟ يظنها الجاهل كرامة.. وهى عقوبة وإهانة .

٣ـ حجب القلب عن الرب :

وليحذر المؤمنون مكر الله تعالى، من حجاب القلب عن الرب فى الدنيا والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ المطففين / ١٤ـ ١٥ .

فكما قيل: أن هناك مسافة بين العبد وبين قلبه، يقطعها العبد بذنبه، فلا يصل إلى ما يصلح قلبه أو يزكيه، ثم يقطع الذنب المسافة الثانية بين القلب وبين الرب، فلا تفوز القلوب بقرب الله وكرامته، وهكذا يحول العبد بإصراره على الذنب على حجاب بينه وبين قلبه ثم بين قلبه وبين ربه وخالقه عز وجل.

وبهذا الحجاب يحرم العبد نفسه من نعمتين عظيمتين: الحياة الطيبة فى الدنيا، لأن القلب لا يهدأ ولا يطمئن إلا بمعبوده الذى هو حق، ثم يحرم نفسه من الحسنى فى الآخرة ولذة النظر إلى وجه الله الكريم يقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النحل / ٩٧.

ويقول تعالى: ﴿ ... لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ النحل / ٣٠ .

فالدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها، وأن منازل السائرين فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم فى هذه الدار فى الإيمان والعمل الصالح أو ضدهما.

٤ـ القلب بين اللذة والألم:

* وليحذر المؤمنون مكر الله تعالى حينما ينأون بالقلب عن صفاته، وتحقيقها، وهنالك يحرمون أنفسهم من أكمل لذة فى الدنيا والآخرة، (فإنه ليس للقلب، لذة ولا نعيم، ولا فلاح ولا حياة إلا بمحبة الله تعالى، وإذا فقدها كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه ، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق، أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح ، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام) ابن القيم الجواب الكافى.

ومن هنا يحدد المؤمن لذته التى يحصل بها على لذة الآخرة، أما لذة أصحاب الفواحش والظلم والبغى فى الأرض والعلو بغير الحق ، هذه اللذات فى حقيقتها هى استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات، قال تعالى: ﴿ ... سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ الأعراف/ ١٨٢ : ١٨٣ ، قال بعض السلف في تفسيرها : كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة: ﴿ ... إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام/ ٤٤ـ ٤٥ .

يحسبونها لذة وهى فى الحقيقة تنقلب آلاماً من أعظم الآلام
يارب كانت فى الحياة لأهلها عذاباً، فصارت فى المعاد عذاباً

* وليحذر المؤمنون غل القلوب: يقول تعالى: ﴿ ... وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾ الحشر/ ١٠ ... فما أروعها من صورة واعية رصينة ترسم ملامح التابعين، ثم ملامح الأمة المسلمة على مر الأزمان.. إنها صورة المؤمنين الذين يستمرون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم الدين، وهم يطلبون براءة القلب من الغل للذين آمنوا، إنهم بذلك يحذرون الفرقة المشتتة ، والتنازع

المشين، الذى يهدم أعز رابطة بين المؤمنين ، رابطة الإيمان: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾ الحجرات / ١٠ ، . هذه هى الحقيقة الباقية: براءة الصدر من الغل وطهارة القلب من الحقد.

* وليحذر المؤمنون زيغ القلب فيدعون مع الداعين بقول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ...﴾ آل عمران / ٨، وهذا حال الراسخين فى العلم مع ربهم، حينما اكتمل الإيمان فى قلوبهم، فلا تغفل ولا تفتر ولا تنسى فى ليل أو نهار.

فأدركوا قيمة الاهتداء بعد شقوة الشرود والضلال !!.

ومن ثم لم يكن هذا الدعاء الخاشع إلا توجهاً صادقاً لرب العزة، طلباً لديمومة الهداية، وثبات القلب فى التوجه إلى خالقه ومحبوبه.

* وليحذر المؤمنون يوم ترجف الراجفة، حيث القلوب تضطرب، ويجتمع عليها الخوف والانكسار والرجفة والانهيار، وهذا هو الذى يقع يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة.. يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ النازعات / ٦:٨ ، إنها لحقيقة كبرى يحس فيها القلب بالزلزلة والهول والاضطراب والرجفة ويهتز هزة الخوف والارتعاش، ويدرك يومئذ من الفزع الذى لا ثبات معه ولا قرار.

ولذلك كان عمل المؤمنين مع قلوبهم قوله تعالى: ﴿ ... يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ النور / ٣٧ .

فيأمنون بالخوف حيث يدفعهم إلى العمل، نجاة من يوم تتقلب فيه القلوب فلا تثبت على شئ من الهول والكرب.

وهكذا تحذر القلوب المؤمنة فتسير على هدى إلى ربها وقد صدق الرافعى وهو يقول فى وحى القلم جـ٣ ص ٣٠ : (وكأن القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه) (وعمل القلب كعصير الشجرة لا يُرى عمله والشجرة كلها هى عمله) ص ٣٢ .

وبهذا يحيا الوجود كله يقول الرافعى جـ ٢ ص ٣٧: (ومتى استنار القلب كان حياً فى صاحبه وكان حياً فى الوجود كله، ومتى سلمت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الإنسان وبين الله إلا حياة هى الحق والخير، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياة هى الرحمة والحب).

فقه القلوب

(٢)

أحوال القلوب

كيف يكون قلبك دائماً مع الله ؟

أحوال القلوب

تمهيد : قل لنا ما فى قلبك ؟ !

١ ـ كيف تجد قلبك دوماً مع الله ؟ .

٢ ـ روح الصلاة فى حضور القلب .

٣ ـ القلب وعاء القرآن .

٤ ـ قلوب أرضية وقلوب سماوية .

٥ ـ الليل والقلوب المتيقظة .

٦ ـ قلوب المحبين أرق أوانى الله فى أرضه .

٧ ـ مالا يعلمه القلب ولا يخطر عليه .

٨ ـ عقود القلب بها أنت خير من عمر !! .

٩ ـ أكل الحلال نور القلوب وحكمته .

١٠ ـ بالجوع تخرج حلاوة الدنيا من القلوب .

❤ ❤ ❤

أحوال القلوب

تمهيد : قل لنا : ما في قلبك ؟!

أين أنت من قلبك ؟

❤ هل القلب يُعاقب من الله .... نعم إن ترادف الذنب بعضه فوق بعض .. هو الران .. الذى يتعقب الكسب وهو عقوبة للقلب . يقول تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين : ١٤ قيل المكاسب الحقيقية وأكل الحرام ، وفى التفسير هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب ، وأصل ذلك كله هو حب الدنيا وإيثارها على الآخرة ، وغلبة الهوى على القلب ، يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ النحل : ١٠٧ إلى قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... ﴾ النحل / ١٠٨ ، فهم لا يسمعون ويتبعون الهوى ، وميراث ذلك الصمم عن الفهم يقول تعالى: ﴿... لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ الأعراف : ١٠٠ ، فإذا كثرت غفلة القلب قل الهام الملك للعبد وهو سمع القلب ، لأن طول الغفلة يصمه عن السمع وعدم سمع الكلام من الملك عقوبة الخطايا ، وقال الحسن: (إن بين العبد وبين الله عز وجل حداً محدوداً من الذنوب فإذا بلغه العبد طبع على قلبه فلم يوفقه للخير أبداً) وفى حديث ابن عمر : الطابع معلق بقائم عرش الرحمن فإذا انتهكت المحارم بعث الله عز وجل بالطابع على القلوب فأعماها وهذا هو القفل الذى قال الله عز وجل : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد: ٢٤ .

❤ ومن طول الغفلة تصاب القلوب بالقسوة ﴿... فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ... ﴾ الزمر : ٢٢ ، وشدد الله الأمر حينما قرن القاسية قلوبهم أيضاً والقسوة فى حقيقتها ثمرة البعد عن الله ، والابتعاد عن الرب خيانة والله لا يحب الخائنين وتأمل قول الله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ... ﴾ المائدة : ١٣ ، فبنقضهم الميثاق وهو الخيانة لعناهم : أى أبعدناهم وجعلنا قلوبهم قاسية : أى ترادفت عليها الذنوب بعد القسوة فوقع الطابع على القلوب فصمت عن سمع كلام المحبوب ، وجلاء هذا الطابع لا يكون إلا

بالتقوى لأنه مفتاح السمع كما قال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ﴾ المائدة / ١٠٨ .

❤ **كان الحسن يقول :**

والله ما لعمل المؤمن من انتهاء دون الموت ، وكان أبو محمد يقول : لا يبلغ العبد منازل الصديقين (حقيقة هذا الأمر) حتى يكون فيه هذه الأربع :

* *أداء الفرائض بالسنة .*
* *وأكل الحلال بالورع .*
* *واجتناب النهى فى الظاهر والباطن .*
* *والصبر على ذلك إلى الممات .*

وإن الذى يحول بين العبد وتحقيق هذه المعانى « الغفلة » ولذلك نهى الله تعالى عن اتباع أهل الغفلة وطاعتهم فقال تعالى : ﴿ ... ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ الكهف : ٢٨ ويـاله من منظر بشع لحال الغافلين فى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ق : ٢٢ كشف الغطاء أى جار بصره وبهت واحتد ، وبرق لمعانيه ما كان عنه غفل ، وحسرة على ما فيه فرط ، ومعنى حديد : محدد إلى أعمالك السيئة التى أوثقتك .

ويقول تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ... ﴾ مريم : ٣٩ ، قيل جاءهم الموت وهم مشغولون بأمور الدنيا .

روى أبو نصر التمار أن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث وقال لقد عزمت على الحج افتأمرنى بشئ ؟ قال له بشر : تبتغى بحجتك نزهة أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله عز وجل قال: ابتغاء مرضاة الله عز وجل قال : فإن أصبت رضا الله وأنت فى منزلك وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضات الله عز وجل أتفعل ذلك ؟ قال : نعم قال : اذهب فاعطها عشرة أنفس مدين يقضى بها دينه وفقير يرم شعثه ومعيل يحيى عياله ومربى يتيم يفرحه وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل فإن ادخالك السرور على قلب امرئ مسلم وتغيث لهفان وتكشف نصر محتاج وتعين رجلا ضعيف اليقين أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فاخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما فى قلبك ؟! فقال يا أبا النصر سفرى أقوى فى قلبى فتبسم بشر وأقبل عليه .

❤ ❤ ❤

١ - كيف تجد قلبك مع الله دوماً ؟

قال أحدهم للإمام الثورى : دلنى على عمل أعمله أجد فيه قلبى مع الله تعالى فى كل وقت على الدوام فقال : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لابد لى من ذلك قال : فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت: لابد من ذلك ، قال : فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة، قلت : أنا بين أظهرهم لابد من معاملتهم ، قال : فلا تسكن اليهم فإن السكون اليهم هلكة قلت : هذه العلة ، فقال يا هذا :

* *أتنظر إلى الغافلين*
* *وتسمع كلام الجاهلين*
* *وتعامل الباطلين*
* *وتريد أن تجد قلبك مع الله عز وجل على الدوام هذا ما لا يمكن !!*
* *فكيف تجد قلبك أنت مع الله على الدوام ؟!*

قيل أربعة هى : سجن النفس وتقيدها بهن يضعف صفاتها ، وعليهن تحسين معاملاتها ولكل واحد من الأربع صفة حسنة فى القلب ، هذه الأربع هى : الجوع ثم السهر ثم الصمت ثم الخلوة .

وتفصيل ذلك :

١ ، ٢ - الجوع والسهر : أو قل (**التطوع بالصوم وقيام الليل**) :

وصدق رسول الله ﷺ روى عنه قوله : « **إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش** » ، وفى خبر عن عيسى عليه السلام : (يا معشر الحواريين جوعوا بطونكم وعطشوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل ...) .

يعنى حقيقة الزهد وصفاء القلب ، فالجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة وفيه ذل النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها وفى ذلك حياة القلب وصلاحه ، قال بعض الصحابة : أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع إذ القوم لما شبعت بطونهم جمعت بهم شهواتهم وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يجوعون من غير أعواز (أى مختارين ذلك)

وقال ابن عمر : ما شبعت منذ قتل عثمان رضي الله عنه (قال هذا فى زمن الحجاج) .

وقد وصف رسول الله ﷺ قلب المؤمن فى قوله : « **القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن** » ، وانجراد القلب بالزهد فى الدنيا وتجرده من الهوى وسراجه الذى يزهر منه هو نور اليقين ، به يبصر الغيب . وفى وصف العلماء لأصحاب هذه القلوب قالوا : أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة . ومن أقوال السلف : من سهر بالليل لأجل الحبيب لم يخالفه بالنهار فإنه أسهره بالليل فى خدمته ، ومن تربية أم سليمان بن داود لابنها: يا بنى لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم تترك العبد فقيراً يوم القيامة .

٣ ـ الصمت : (أو الإعراض عن اللغو) :

قيل : إن الصمت يلقح العقل ويعلم الورع ويجلب التقوى ويجعل الله عز وجل به للعبد بالتأويل الصحيح والعلم الرجيح مخرجاً ، يوفقه بإيثار الصمت للقول السديد والعمل الرشيد ، وفى قول عقبه بن عامر : يا رسول الله ـ فيم النجاة ؟ قال : « **أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وأبك على خطيئتك** »، وفى وصية النبى ﷺ لمعاذ بن جبل « **أو أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله بعد ذكر الصلاة والصيام وغير ذلك هذا . . وأومأ بيده إلى لسانه ، فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على مناخيرهم فى جهنم إلا حصاد ألسنتهم ، إنك ما سكت فإنك سالم فإذا تكلمت فما هو لك أو عليك** » .

وللصمت علاقة وثيقة بالقلب ، بل من فقه القلب استعمال فن الصمت ففى الحديث : « **لا يصلح العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه** ».. ولذلك يقول ابن مسعود فى مواعظه : ليس شئ أحق بطول سجن من لسان ، وقال بعض الحكماء : إذا كثر العقل قل الكلام وإذا قل العقل كثر الكلام ، مما دفع البعض إلى قولهم : من تكلم فأحسن كثير ، ولكن الشأن فيمن يحسن أن يسكت ، فكما أن هناك حسن الكلام فهناك حسن الصمت .. وقد فرق أطباء القلوب بين مفهوم العلم والكلام ، فليس كل من تكلم عالماً ، فقد قال حماد بن زيد: قلت لأيوب : العلم اليوم والعلم فيما مضى كان أكثر، ولذلك كانوا ينتفعون بصمت العالم مثل ما ينتفعون بكلامه فمن لم ينتفع بصمت المتكلم لم ينتفع بكلامه.



وقد سمى علماء السلف هذا الفقه بعلم الصمت فيقول بعضهم : تعلم الصمت كما تتعلم الكلام فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك ، ولك فى الصمت خصلتان تدفع به جهل من هو أجهل منك وتعلم به علم من هو اعلم منك .

وحياة القلب باستعمال فن علم الصمت ، ففى الخبر : من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه مات قلبه ، وقال الحسن : لسان المؤمن وراء قلبه إذا أراد أن يتكلم تفكر فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك ، وقلب المنافق على طرف لسانه أى شئ خطر بقلبه تكلم به ولا يتوقف ولا ينثنى .

ويطول الشرح فى الأخبار الواردة ولكن ليس سبيلنا ذكر فضائل الأعمال إنما طريقنا تهذيب قلوب العاملين ، حيث بطهارة القلوب تزكو الأعمال ويتقرب العاملون من الله تعالى .

٤ ـ الخلوة : (أو كف الأذى عن النفس والعناية بها) :

ليس المعنى فى الخلوة كما يتبادر إلى الكثير من الناس اعتزال الخلق وعدم التحدث إليهم أو مخالطتهم ، فهؤلاء يتخذون الشكل دون المضمون ، ويلزمون أنفسهم بمظاهر دون معانى ، ويبعدون عن حقيقة الخلوة .

وحقيقة الخلوة هى تفريغ القلب من الخلق وتجمع الهم بأمر الخالق ، وهى الإبصار بعين القلب مما يحرك حظوظ النفس ويقوى شهواتها ولذاتها ، والمقصود بعين القلب أن يتحرك القلب بالمشاهدة والمخالطة لما لدى الناس ، فمن كثرت لحظاته دامت حسراته ، وفائدة ذلك أن تقل الأفكار وتتجه بكليتها نحو الآخرة ودوام ذكر الله تعالى لا المعبود .

وليست الخلوة فى الوحدة والعزلة رسماً فقط بل عدها العلماء بما يجده القلب من الأنس بربه واللذة والحلاوة والمزيد ، فيجد فى السر من النشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية ، فيجد فيها روحه وأحسن أعماله ، أما هؤلاء الذين فصلوا حركة القلب وعدّوا الخلوة الانقطاع عن الناس فهم ابتعدوا عن حقيقتها ، ونأوا عن معناها ، وتخبطوا فى جهل ، لأنهم تمسكوا برسم فارغ لا جوهر متين .

ولذلك فوجود القلب عند الخلوة وانشراح الصدور بها وحسن الخلق معها ، هومقصود الخلوة وفقه العمل بها ، ومن لم يجد ذلك فهو باب من أبواب الدنيا

ومفتاح من مفاتيح الغفلة فليحذر منها لأنها تقوى حظوظ النفس وتنشط اللذات وتضعف الإيمان ، وتبعد صاحبها عن مجالسة الحبيب فقد روى عن عيسى عليه السلام : (لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم ، قيل ومن الموتى ؟ قال : المحبون للدنيا الراغبون فيها) ... فيعد صاحب الخلوة من الموتى لأنه لم يحقق معناها وإن حقق رسمها وشكلها .

وإن تحقق هذا المعنى ابتعد القلب بطبعه عن مخالطة أهل الهوى لأنسه بربه أو الجلوس مع أهله وخاصته ، فتراه بقلبه يعتزل أهل الغفلة وذوى البطالة ، فأعظم ما فى مخالطتهم ضعف اليقين برؤيتهم ، وأضر ما ابتلى به العبد وأعمله فى هلاكه وأشده لحجبه ضعف يقينه بما وعده الله بالغيب وتوعد عليه فى الشهادة ، والمقصود بضعف اليقين، الرغبة فى الدنيا والحرص على التكاثر منها والتضرع إلى أبنائها والطمع فيهم ، ونسأل الله السلامة ، ففى موعظة ابن مسعود رضي الله عنه : إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع إلى بيتــه وما معه من دينه شئ .

وكذلك نفهم قول الثــورى لسائله :

* ***أتنظر إلى الغافلين .***
* ***وتسمع كلام الجاهلين .***
* ***وتعامل البطالين .***

وتريد أن تجد قلبك مع الله عز وجل على الدوام هذا ما لا يكون !!

فكيف تجد قلبك على الدوام مع الله تعالى ؟!

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم : « **من أراد أن يعلم كيف منزلتـه من الله فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه ، فإن الله ينزل العبد منه بحسب ما أنزله من نفسه** » .





٢ - روح الصلاة
فى حضور القلب

يقول الإمام الغزالى رحمه الله (الإحياء جـ ١ ص ١٦١٠) :

(حضور القلب هو روح الصلاة ، وإن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير ، وكم من حس لا حراك به قريب من ميت فصلاة الغافل فى جميعها إلا عند التكبير كمثل حى لا حراك به) .

وحضور القلب يعنى به : أن يفرغ القلب عن كل شئ غير ما هو ملابس له ومتكلم به فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بها ، ولا يكون الفكر حائلاً فى غيرها .

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ ، ويقال إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضى الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة وقالوا : نبادر بها وسوسة الشيطان ، وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضه فى الإسلام ما أكمل لله تعالى صلاة قيل وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها .

فالأصل فى الصلاة الخشوع وحضور القلب وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى فى المعاد .

❤ **حضور القلب :**

وحضور القلب يعنى التفهم للكلام ألفاظاً ومعنى ، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع المعنى.

والتفهم هو إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة فلذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر .

وحضور القلب يعنى التعظيم الذى يتولد من أمرين أحدهما معرفة جلال الله تعالى وعظمته ، والثانى معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخضوع والخشوع لله

سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم .

وحضور القلب يعنى الهيبة والخوف ، والهيبة خوف مصدرها الاجلال ، ثم يعنى برجاء العبد أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل ، ثم يعنى الحياء وهو استشعار التقصير فى العبادة وارتكاب الذنب وذلك بمعرفته بعيوب نفسه وعلمه بعظيم جلال الله تعالى وأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت .

وحضور القلب سببه (الهمة) فإن القلب تابع للهمة فلا يحضر إلا فيما يهم ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه رضى أم أبى ، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه والقلب إذا لم يحضر فى الصلاة لم يكن متعطلاً بل جائلاً فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا ، فلا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة ، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا وصل من مجموعها حضور القلب فى الصلاة .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه) .

وقد أوصى الله موسى عليه السلام : (يا موسى إذا ذكرتنى فاذكرنى وأنت تنتفض أعضاؤك وكن عند ذكرى خاشعاً مطمئناً وإذا ذكرتنى فاجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قمت بين يدى فقم قيام العبد الذليل وناجى بقلب وجل ولسان صادق) وعلى ذلك فبقدر اليقين يكون خشوع القلب ، فلا يغيب قلبه ولو لحظة واحدة ، بحيث لا يشعر بما يجرى بين يديه ، وقد حدث ذلك لما هو مشهور لمسلم بن يسار حينما سقطت اسطوانة المسجد ولم يشعر بها ، وكان بعضهم إذا حضر الصلاة لم يعرف قط من على يمينه ويساره وآخرون كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم ، وحظ كل واحد منا من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه ، فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون الحركات الظاهرة . ولذلك كان الصحابة يقولون :

يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئاتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة ، فمن صفات القلوب تصاغ الصور فى

الدار الآخرة ، فعلى كل مصلى أن يراعى حال قلبه لا حال شخصه ، فإنه لا ينجو فى الآخرة إلا من أتى الله بقلب سليم .

كيف تعمل على إحضار قلبك :

وإذا هجمت الخواطر التى تقطع حال القلب مع ربه فالدواء فى إحضار القلب ، يدفع تلك الخواطر بمعرفة سببها وسبب ورودها ، وإحضار القلب بتحقيق معانيه السابقة ، فمن الخاشعين من كانوا يحضرون المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به مواضع السجود ويرون كمال الصلاة فى أن لا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم ، وكان ابن عمر رضي الله عنه لا يدع فى موضع الصلاة مصحفاً ولا سيفاً إلا نزعه ولا كتاباً إلا محاه ، أما قلوبهم فهى أشد فإن من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا ، لا يستطيع حصر فكره فى فن واحد وإنما يظل يجول من جانب لآخر ولا يعينه غض البصر .

فإذا وقع خاطر فليقهر نفسه على تفهم ما يقرؤه فى صلاته وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدى ربه ، ولا يدخل فى صلاته بعدها إلا بعد تفرغ القلب تماماً عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره . روى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ لما لبس الخميصة التى أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد الصلاة وقال ﷺ : « **اذهبوا بها إلى أبى جهم فإنها ألهتنى آنفا عن صلاتى وائتونى بأنبجانية أبى جهم** » متفق عليه .

وذكر ابن المبارك فى الزهد من حديث أبى النضر بإسناد صحيح أن (رسول الله ﷺ أمر بتجديد شراك نعله ثم نظر إليه فى صلاته إذ كان جديداً فأمر أن ينزع منها ويرد الشراك الخلق) .

وذكر الإمام مالك عن عبد الله بن أبى بكر فقد روى : (أن أبا طلحة صلى فى حائط وفيه شجر فأعجبه دبسى طار فى الشجر يلتمس مخرجا فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدر كم صلى فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة ثم قال يا رسول الله هو صدقة حيث شئت) .

وهذا هو الدواء الناجح فالشهوة الخفية الضعيفة ينفع معها التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر ، أما الشهوة القوية فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال تجاذبها وتجذبك ثم تغلبك وتنقضى جميع صلاتك فى شغل المجاذبة ... ومصدر المجاذبة والشهوات كلها (حب الدنيا) فإن من فرح بالدنيا لا يفرح



بالله سبحانه وبمناجاته ، وهمة الرجل مع قرة عينه ، ومصيبته حينما تكون قرة عينه الدنيا فينصرف إليها همه ، ولكن مع هذا فلا ينبغى أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وأن يتجرع الدواء وإن كان مراً ففيه راحته .

الصلاة مفتاح القلوب :

« **أرحنا بها يا بلال** » أى أرحنا بالصلاة والنداء إليها إذ كان قرة عينه ﷺ فبالنداء يأتيك الفوز يوم القضاء ويحمل البشرى ، ولما كان القلب موضوع نظر معبودك عز وجل فكان عليك الاجتهاد بتطهير القلب بالتوبة والندم وتصميم العزم على ترك المعصية . فإنه لا ينصرف القلب إلى الله تعالى إلا بالتفرغ عما سواه ، فإذا نطق اللسان بالتكبير فلا يكذبه القلب ، فإن كان فى القلب شئ هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد لصاحبه بالكذب ، ومن ثم يتوجه القلب إلى ربه ، إلى فاطر السموات والأرض ، تاركاً أمانيه ، وهمه فى الدنيا أو العمل ، أو شهواته وشواغله ، ومن هنا يبدأ القلب فى حركته فيتفهم الآيات ، فالناس فيها ثلاثة :

* رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل .
* ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره .
* ورجل يسبق قلبه إلى المعانى أولاً ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه .

ففرق أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب .

وهكذا تتوارد المعانى على قلوب المقربين الذين لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب ، فمنهم ما رواه عبد الله بن واقد قال : رأيت ابن عمر يصلى مغلوباً عليه وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده فإنه عبد ذليل بين يدى جبار قاهر ، وتتفاوت هذه المعانى بحسب درجات الفهم والعلم وصفاء القلب . وعن أبى ذر بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله عز وجل مقبل على المصلى ما لم يلتفت** » تدل على أن دوام القيام يعنى إقامة القلب مع الله عز وجل على صفة واحدة من الحضور ، وعندما يتذكر قيامه بين يدى ربه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يشهد وقوف قلبه بين يدى الملك الجبار إذ ليس من الغافلين فيزداد حضوراً ، فإذا تلا وقف همه مع المتكلم واشتغل قلبه بالفهم عنه والانبساط منه ، فإن ركع وقف قلبه مع التعظيم

للعظيم فلا يكون فى قلبه أعظم من الله تعالى وحده ، فإن رفع شهد الحمد للمحمود فوقف مع الشكر للودود فاستوجب منه المزيد وسكن قلبه بالرضا ، وإن سجد سما قلبه فى العلو فقرب من الأعلى بقوله : واسجد اقترب ، وفى قول النبى ﷺ للرجل الذى سأله الدعاء قائلا : ادع الله أن يرزقنى مرافقتك فى الجنة فقال ﷺ : « **أعنى بكثرة السجود** » .

وبهذا المفهوم تتحول الصلاة إلى معناها الحقيقى من أنها صلة بين العبد وربه ومواصلة من الله لعبده ولا تكون المواصلة إلا لتقى ، يقول تعالى : ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾ الحج / ٣٧ . وكان من وصية النبى ﷺ لأصحابه « **صل صلاة مودع** » ... فبعد الصلاة يستشعر القلب الوجل والرجاء من التقصير فى الصلاة ويخاف أن لا تقبل صلاته فترد فى وجهه ، ويرجو مع ذلك أن يقبلها الله بكرمه وفضله ، رحم الله يحيى بن وثاب قيل أنه إذا صلى مكث ما شاء الله تعرف عليه « كآبة الصلاة » ، وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض ، وصدق الله تعالى بعد أن بين أول صفات المؤمنين : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)** ﴾ المؤمنون / ١ : ٢ . ختمها بقوله تعالى : ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)** ﴾ المؤمنون / ١٠ : ١١ . فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم .

❤ ❤ ❤

٣ ـ القلب وعاء القرآن

يقول النبي ﷺ فيما رواه ابن عمر (البيهقي في الشعب) « **إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل يا رسول الله وما جلاؤها فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت** » ويقول أبو أمامة الباهلي : (اقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء القرآن).

* ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ... ﴾ مريم / ١٢ ، قيل في تفسيرها أي بجد واجتهاد ، وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته فتصرف الهمة إليه عن غيره ، وهذا هو حضور القلب وترك حديث النفس ، وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد من التعظيم .. فينبغي أن يحضر التالى فى قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن في تلاوته كلام الله عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى يقول : ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ الواقعة / ٧٩ ، وكان من تعظيم عكرمة بن أبى جهل . إذا نشر المصحف غشى عليه ، ويقول : (هو كلام ربى هو كلام ربى) ، فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم .. وهكذا يستغرقه القرآن فيشغله عمن سواه ، فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره .

ثم يأتى التدبر ، عن أبي ذر بإسناد صحيح قال : قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية يرددها وهى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ...﴾ المائدة / ١١٨ وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعدلها ثوابا.

ثم يأتى التفهم الذي أشار إليه علي بن أبي طالب بقوله: ما أسر إلي رسول الله ﷺ شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهما فى كتابه فليكن حريصاً علي طلب ذلك الفهم « فى البخارى بلفظ آخر » .

وعلى العاقل أن يتخلى عن موانع الفهم ، فإن أكثر الناس منعوا من فهم معانى القرآن لأسباب وحُجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن ، وقد تقدم قول النبى ﷺ : « **لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت** » ، وألا يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر ، أو مبتلى بهوى الدنيا ، فإن ذلك سبب ظلمة

القلب وصداه وهو أعظم حجاب للقلب ، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلى المعنى فيه ، كان مالك بن دينار يقول : ما زرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن ؟ إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض .

نعم تكتمل الصورة بالقرآن المؤثر فى القلب فيتصف القلب بالحزن والخوف والرجاء والخشية فيكون بحسب كل فهم حال . ومن ذلك قلب النبى ﷺ وهو يقول لابن مسعود اقرأ على قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ النساء / ٤١ ، رأيت عينه تذرفان بالدمع فقال : حسبك الآن وهكذا مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية .

ولذلك قال رسول الله ﷺ عن جندب بن عبد الله البجلى فيما رواه البخارى ومسلم : « **اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرءوه** » وفى بعضها « **فإذا اختلفتم فقوموا عنه** » يقول تعالى : ﴿ ... **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ الأنفال / ٢ .

قال بعض القراء : قرأت القرآن على شيخ لى ثم رجعت لأقرأ ثانيا فانتهرنى وقال : جعلت القرآن علىّ عملا ، اذهب فاقرأ على الله عز وجل فانظر بماذا أمرك وبماذا ينهاك، وبهذا كان شغل الصحابة رضى الله عنهم فى جميع أحوالهم وأعمالهم فمات رسول الله ﷺ عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف فى اثنين منهم .

فحفظ القلب من القرآن الاتعاظ والتأثر ، فاللسان يرتل والقلب يتعظ ، حتى يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل ، وصدق جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه وهو يقول : والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكنهم لا يبصرون ، ويقول عثمان رضي الله عنه : (لو طهرت القلوب لا تشبع من القرآن) وإنما قيل ذلك لأنه بالطهارة تترقى القلوب إلى مشاهدة المتكلم سبحانه .

* إنما القرآن الفهم .. وطوبى لعبد ملقيا السمع بين يدى ربه مصغياً إلى سر كلامه ، شهيد القلب لمعانى صفات الرب ، معظماً للمتكلم يفتقر إلى الفهم بحال مستقيم وقلب سليم وصفاء يقين وقوة علم . ومن قواطع الفهم الاص[illegible]

على الذنب أو فعل البدعة أو قلب فيه كبر أو هوى أو حب للدنيا أو ضعف اليقين أو واهن الإيمان .

❤ وما أوجز ما قاله على بن أبى طالب رضي الله عنه : لا خير فى عبادة لا فقه فيها ولا فى قراءة لا تدبر فيها .. ومن التلاوة يبدأ الفهم فالتلاوة التدبر ، عن ابن عباس قوله : لأن اقرأ إذا زلزلت والقارعة اتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ آل عمران تهذراً .

❤ قال الله عز وجل : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ المجادلة / ٢٢ ، قيل : القرآن أى قوى إيمانهم بعلم القرآن ، فالفرقان روح الإيمان وتقويتهم استعمالهم به ، وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ البقرة / ٦٣ ، قيل بعمل به ، ومن العمل به كذلك تفتح أبواب الفهم أمام ...ين لكتاب الله .

❤ كان بعضهم يقول : كل آية لا أتفهمها ولا يكون قلبى فيها لم أعد لها ثوابا ، وكان بعض السلف إذا مر بتسبيح وتكبير سبح وكبر وإن مر بدعاء واستغفار دعا واستغفر وإن مر بمخوف ومرجو استعاذ وسأل فذلك معنى قوله عز وجل : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ البقرة : ١٢١ ، ومثل هذا القلب صاحبه أحسن الناس صوتاً بالقرآن كما جاء فى الخبر : أحسن الناس صوتاً بالقرآن من إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله.. فينبغى أن يكون قلب التالى بوصف كل كلمة يتلوها مشاهداً لمعناها ، إلى ما يفتح الله عز وجل له من المزيد من الفهم .

❤ **ومراتب الفهم ثلاثة** : أعلاها شهود أوصاف المتكلم فى كلامه ، ثم شهود الرب يناجيه بألطافه ويخاطبه بنعمه وإحسانه ، ثم هو يناجى ربه عز وجل من السؤال والتملق والتعلق بالله تعالى ، سبق قول جعفر بن محمد الصادق: والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه ولكن لا يبصرون ، وحيثما يتقلب العبد بين المراتب الثلاثة يتحقق فيه قول القائل : يرددون الآية لقلوبهم على قلوبهم .

❤ ولما كانت الإنابة حق التوبة والتائب الصادق هو المتيقظ المقبل على ربه ، فهو الذى يسمع فصل الخطاب وينظر إلى الداعى وله يستجيب ، ولما كان من شروط الإنابة التبصرة وحضور القلب للتذكرة لقوله تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ق / ٨ ، فدل ذلك كله أن قسوة القلب تعنى صرف العبد عن

الفهم ، فمن أراد الفهم فلينظر إلى قلبه كيف يجده ؟ وخلاصة ذلك أن يعلم أنه هو المخاطب المقصود بالآيات وأن يقرأ القرآن وكأنه عليه يتنزل !! ولتوضيح هذا المعنى قال بعض العلماء : كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه ثم رفعت إلى مقام فوقه فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم عز من قائل فعندها وجدت له نعيماً ولذة لا أصبر عنها .. وصدق عثمان بن عفان رضي الله عنه فى قوله : لو طهرت القلوب لم تشبع من تلاوة القرآن ـ بل شهد صاحبها ما غاب عن غيره ، وأبصر ما عمى عن سواه، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ فلا أُقسمُ بما تُبصرُون (٣٨) ومَا لا تُبصرُون ﴾ الحاقة / ٣٨ : ٣٩ ، وقال عز وجل : ﴿ ... فاعتبرُوا يا أُولي الأبصار ﴾ الحشر / ٢ .

* « **يا فلان أسمع الله ولا تسمعنى** » قالها النبى ﷺ لرجل سمعه يجهر بقراءته فناداه بهذا القول البليغ ، لأن ذلك من دقيق شأن الشهوة الخفية التى يلتبس على كثير من العباد ، فيعدون ذلك من الإخلاص وحلاوته وإنما هو حلاوة الهوى ، ومناط ذلك كله القلب ... فقد مر رسول الله ﷺ على رجل يظهر التأوه والوجل فقيل يا رسول الله أتراه مرائياً فقال : «**لا بل أراه** منيبا .. » والسر فى الروايتين كما قال العلماء أن الأول أنكر عليه الرسول ﷺ ذلك لما شهد السمعة منه ، أما الثانى فذو نية حسنة وصحة قصد ، ومرة أخرى فمناط ذلك القلب فكيف تجده مع القرآن وهو وعاؤه؟!!





٤ ـ قلوب أرضية وقلوب سماوية

قال عطاء السلمى منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فإذا نحن بسعدون فى المقابر فنظر إلى فقال : يا عطاء أهذا يوم النشور أو بعثر ما فى القبور ، فقلت : لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فقال : يا عطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ، فقلت : بقلوب سماوية فقال : هيهات يا عطاء قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا ، فإن الناقد بصير ، ثم رمق السماء بطرفه وقال : إلهى وسيدى ومولاى لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكنون من سمائك ، وما وارت الحجب من آلائك ، إلا ما سقيتنا ماء غدقاً فراتاً تحيى به العباد وتروى به البلاد ، يا من هو على كل شئ قدير ، قال عطاء : فما استتم الكلام حتى ارعدت السماء وأبرقت وجاءت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدون
إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حباً
فانقضى ليلهم وهم ساهرون

❤ كيف تمتلك قلباً سماوياً ؟

ومن أجل تحقيق هذه القلوب عد العلماء لحركتها لتكون سماوية آداباً وسلوكاً معينا ، فى أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة من السنة فمن الأيام يوم عرفة ، ومن الأشهر شهر رمضان ، ومن الأيام يوم الجمعة ، ومن الساعات وقت السحر ، وأن يغتنم الأحوال الشريفة كزحف الصفوف ونزول الغيث وإقامة الصلوات المكتوبة والسجود وعند الفطر وكل ذلك لأنها وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات ، وأن يتمثل فى دعائه حال رسول الله ﷺ فيستقبل القبلة بحيث يرى بياض إبطيه ففى الحديث المتفق عليه عن أنس قال : أنه ﷺ « **كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه فى الدعاء ولا يشير بإصبعه ويخفض الصوت بين المخافة والجهر** » ، تقول عائشة رضى الله عنها فى قوله تعالى: ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ الإسراء/ ١١٠ ، أى بدعائك (متفق عليه) ، وأن يكون حاله حال تضرع

فلا يتكلف فى الدعاء بالسجع أو التنميق أو التكلف ، وإنما حاله الخشوع والرهبة لقوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ الأعراف / ٥٥ ، .. وأن يوقن بالإجابة ويلح فى الدعاء ويكرره ثلاثاً فعن ابن مسعود : (كان ﷺ إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً) (متفق عليه) .

والأصل فى إجابة الدعاء ، وأن يكون القلب سماوياً ، التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل وملئ البطن من الحلال ، فقد ركب موسى عليه السلام البحر فهاج وتقدم أحدهم يدعو ويبكى ، ولكن البحر يزداد هياجاً وسأل موسى ربه : يا رب إن فلانا يدعوك ويبكى فلم لا تستجيب له ؟ ، فقال له ربه : كيف استجيب له وفى بطنه الحرام .

ولذلك يقول مالك بن دينار : أصاب الناس فى بنى إسرائيل قحط فخرجوا مراراً فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم، أن أخبرهم أنكم تخرجون إلىّ بأبدان نجسة ، الآن قد اشتد غضبى عليكم ولن تزدادوا منى إلا بعداً .

* وأكل الشبهة تتنافى مع القلب السماوى فصاحبه يستفتيه فإذا وجد فى الأمر حزازة اجتنبه ، لأنه لا يجتنب الحرام بل يتقى مواضع الشبهات ومظان الريب ، يقول ابن عباس رضى الله عنهما : لا يقبل الله صلاة امرئ فى جوفه حرام ، ويقال : من أكل الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه وهو تأويل قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين / ١٤ . وفى التفسير : هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب ، وأصل ذلك حب الدنيا وغلبة الهوى على القلب ألم تسمع لقوله تعالى : ﴿ ... طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ محمد / ١٦ ، فاتباع الهوى عن طبائع القلب وطبائع القلب عن عقوبة الذنب ، ويقول الحسن رضي الله عنه : بين العبد وبين الله عز وجل حداً محدوداً من الذنب فإذا بلغه العبد طبع على قلبه فلم يوفقه للخير أبداً ... وفى حديث ابن عمر : الطابع معلق بقائم عرش الرحمن فإذا انتهكت المحارم بعث الله عز وجل بالطابع على القلوب فأعماها وهذا هو القفل الذى قال الله عز وجل : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد / ٢٤ ، هنالك تكون القسوة فى القلب : ﴿ ... فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ... ﴾ الزمر / ٢٢ ، وهى ثمرة البعد والبعد عقوبة الخيانة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ الأنفال/ ٥٨ .

وتدّبر قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ (الخيانة) لَعَنَّاهُمْ (أى

أبعدناهم) وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً (بترادف الذنوب) ﴾ المائدة / ١٣ ، أى أصيبوا بالذنوب فوقع الطابع على القلوب، فصُمّت عن سمع كلام المحبوب ... وجلاء ذلك التقوى فهو انفتاح السمع ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ﴾ المائدة / ١٠٨ .

وقال بعض السلف : إن العبد يأكل فيتقلب قلبه فينغل كما ينغل الأديم ولا يعود إلى حاله أبداً .

وقال سهل رضي الله عنه : من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أم لم يعلم ، ومن كانت طعمته حلالا طابت جوارحه ووفقت للخيرات .

وقال بعض السلف : إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه ومن أقام نفسه مقام ذل فى طلب الحلال ، تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر .

وقيل أن نصف الورع قوله ﷺ : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » فإن الإثم حواز للقلوب أى دع ما تشكن فيه من قول أو عمل ، فإنه فيه غنيمة أو سلامة ، وما حز فى قلبك ولم ينشرح له ، فدعه فإن ذلك إثم وإن قل ودق .

وروى بعض الصالحين عن بعضهم قوله : نحن لا نأكل إلا حلالاً فلذلك تستقيم قلوبنا ويدوم حالنا ونشاهد الآخرة .

وكان بشر الحافى رحمه الله من الورعين فقيل له : من أين تأكل ؟ فقال من حيث تأكلون ولكن ليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك وقال : يد أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة ... وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات وصلى عليك الله يا رسول الله وأنت تدلنا على السر : « **أطب مطعمك يا سعد تكن مستجاب الدعوة** » .

* ولكن كيف تكون قلوبنا سماوية ؟ لا أرضية ؟ ، فبقدر صفائها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها فى جميع الأحوال تكون سماوية ، فالنكاح يسبب دفع غائلة الشهوة ، فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقابلها قوة التقوى جرت إلى أقتحام الفواحش وإليه أشار ﷺ بقوله : « **إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** » وإن كان تقياً فغايته أن يكف الجوارح عن اجابة الشهوة فيغض البصر ويحفظ الفرج ، فأما حفظ القلب عن الوساوس والفكر فلا يدخل تحت اختباره بل لا تزال النفس تحدثه بأمور الوقاع ولا يفتر عنه الشيطان فى أكثر الأوقات وقد يعرض له ذلك فى الصلاة حتى يجرى على

خاطره من أمور الواقع والله مطلع على قلبه ، والقلب فى حق الله كاللسان فى حق الخلق ، ورأس الأمور فى سلوك طريق الآخرة القلب ، وكان من دعاء النبى ﷺ فى ذلك : « **أسألك أن تطهر قلبى وتحفظ فرجى** » .

وكان الجنيد يقول احتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت ، فالزوجة على التحقيق قوت ، وسبب لطهارة القلب ، ولذلك أمر رسول الله ﷺ : كل من وقع نظره على امرأة فتاقت إليها نفسه أن يجامع أهله ، لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس ، وروى جابر رضي الله عنه أن النبى ﷺ رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج وقال ﷺ : « **إن المرأة إذا أقبلت بصورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذى معها** » رواه مسلم .

* والقلوب السماوية لا يكون الأهل والولد شاغلاً لها عن الله تعالى ، وجاذبا لها إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم ، وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشئوم على صاحبه لأنه استغرق ذلك القلب فينقضى عليه الليل والنهار ولا يتفرغ المرء للتفكير فى الآخرة والاستعداد لها . وقيل : أن المرء قد يقوى على غض البصر ولكن لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب.. وإنما المراد فراغ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع كسب حرام أو أكله أو إطعامه.

ولذا لا ينبغى للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده فيكون عمره ضائعاً وصفقته خاسرة وما يفوته من الربح فى الآخرة لا يفى به ما ينال فى الدنيا ، بل العاقل ينبغى أن يشفق على نفسه ، وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله دينه وتجارته ، يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه فى وصيته : إنه لابد لك من نصيبك فى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فابدأ بنصيبك من الآخرة . فخذه .. يقول تعالى : ﴿ ... وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ... ﴾ القصص / ٧٧ ، لا تنس فى الدنيا نصيبك منها للآخرة فإنها مزرعة الآخرة .

يقول على كرم الله وجهه : العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل : وما هى : قال الاستغفار ، فالقلوب السماوية دائمة الاستغفار ، يقول قتادة : رحمه الله القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم أما دائكم فالذنوب وأما دواؤكم

فالاستغفار ... وسمع اعرابى وهو متعلق بأستار الكعبة يقول :

اللهم إن استغفارى مع علمى مع اصرارى للؤم .

وإن تركى استغفارك مع علمى بسعة عفوك لعجز .

فكم تتحبب إلىّ بالنعم مع غناك عنى .

وكم اتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك .

يا من إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا .

أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك يا أرحم الراحمين .

وفى رواية الطبرانى عن ابن أبى أوفى قال ﷺ : « **أحب عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى** » رواه الحاكم وقال صحيح بلفظ خيار عباد الله ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾الفرقان / ٦٢ ، أى يخلف إحداهما للآخر ليتدارك فى أحداهما ما فات فى الآخر ، وبين أن ذلك للذكر والشكر لا غير .

فالقلوب السماوية وقتها كله مع ربها ، تنتقل من فن إلى فن ، فى أحوال جميعها بين ذكر أو فكر ، فكيف بالله يرد الله دعاءها ولا يستجيب لتضرعها ، وهى تنظر إلى عرش الرحمن ، معلقة بالسماء ، نأت عن الأرض ، ونأت الأرض عنها ، بل تأخذ من الدنيا كذلك ما يجعلها سماوية فهل ندعو الله بعد هذا التفصيل بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟!! .

❤ ❤ ❤

٥ ـ الليل والقلوب المتيقظة

شكى تلميذ إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه :

يا بنى إن لله نفحات فى الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطئ القلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات ، فقال يا سيدى : تركتنى لا أنام بالليل ولا بالنهار ، ويقول ﷺ عن جابر فيما رواه مسلم : « **إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه الله إياه** ». فنفحات الليل أرجى لما فى قيام الليل صفاء القلب واندفاع الشواغل يقول ابن المنكدر : ما بقى من لذات الدنيا ثلاث :

* *قيام الليل .*
* *ولقاء الإخوان.*
* *والصلاة فى جماعة .*

ويقول بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين ، فيملؤها أنواراً فترد الفوائد على قلوبهم ، فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافى إلى قلوب الغافلين. وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا ، إنما هى من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه ، لا يجدها سواهم .

وقال مالك بن دينار رحمه الله : « **إذا قام العبد يتهجد من الليل قرب منه الجبار عز وجل** » وكانوا يرون : لا يجدون من الرقة والحلاوة فى قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب .

ومن أجل ذلك أخبر الرسول ﷺ ابن عمر رضى الله عنهما على هذا السر لحبه إياه فقال فيما رواه البخارى ومسلم : « **نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلى بالليل** ».

وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح ، وقال الحسن رحمه الله : ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ، فقيل له: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً ، قال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره ، وكان الحسن يحذر من الذنب فيقول : إن الرجل

ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلى الليل كله فإذا كان فى السحر قال : إلهى ليس مثلى يطلب الجنة ولكن أجرنى برحمتك من النار .

● **فكيف إذا جن الليل تلذذت به أصحاب القلوب المتيقظة ؟**

■ **أولاً : يأخذ من نهاره لليله :**

فلا يكثر من الأكل والشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام ، وألا يعرض نفسه للتعب الشديد فى الأعمال فتضعف الجوارح والأعصاب وتعرضه للنوم وأن لا يترك نوم القيلولة فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل ، وألا يجعل نهاره موطنا للأوزار والذنوب فكما تقدم بالذنب يحرم الليل ، قال رجل للحسن : يا أبا سعيد إنى أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهورى فما بالى لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك . وقال الثورى : حرمت قيام الليل خمسة أشهر لذنب أذنبته قيل وما ذاك الذنب ، قال : رأيت رجلا يبكى ، فقلت فى نفسى هذا مراء . فالذنوب تورث كلها قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها تأثيراً تناول الحرام ، فإن اللقمة الحلال تؤثر فى تصفية القلب وتحركه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها .

■ **ثانياً : أن يأخذ من قلبه لقلبه .**

* **أن يكون سليماً** : وذلك بسلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا ، فالغارق فى همومها لا يتيسر له قيام الليل ، وإن قام لا يفكر فى صلاته إلا فى شواغله ، ولا يجول إلا فى وساوسه وقد قيل فى مثل ذلك :

يخبرنى البواب إنك نائم
وأنت إذا استيقظت أيضاً نائم

* **أن يكون خائفاً** : وذلك لأنه إذا تفكر فى أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره كما قال طاووس : إن ذكر جهنم طير نوم العابدين ، قيل لغلام آخر يقوم كل الليل فقال : إذا ذكرت النار اشتد خوفى وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقى فلا أقدر أن أنام . يقول ابن المبارك:

إذا الليل أظلم كابدوه
فيسفر عنهم وهم ركوع

أطار الخوف نومهم فقاموا
وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

■ **ثالثاً : أن يأخذ من علمه لقلبه :**

فيعرف فضل قيام الليل من آيات وأحكام ، حتى يقوى رجاءوه ويشتد شوقه إلى الثواب ، ويطلب الرغبة فى درجات الجنان ، ويرغب فى المزيد ، بمعرفته بما أعد الله لأوليائه من فسيح الدرجات ، وما جعله لأهل الليل من حور عين يشتاق إليهن .

■ **رابعاً : أن يأخذ من إيمانه لقلبه :**

وإنما ذلك هو أشرف البواعث وأقوى الأسباب فقوة الإيمان تدفعه إلى حب الله تعالى ، ويستشعر فى قيامه بأنه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع مع مشاهدة ما يخطر بقلبه ، فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة فتحمله هذه المناجاة بالحبيب على طول القيام .

قيل لبعضهم كيف أنت والليل ؟ قال : ما راعيته قط يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته بعد ، وقيل لبعضهم : كيف الليل عليك ؟ فقال : ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء واغتم بفجره إذا طلع ما تم فرحى به قط ، وقال أبو سليمان : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا .

فيا أرباب القلوب المتيقظة إلى نفحات الليل ...



٦ ـ قلوب المحبين
أرق أوانى الله فى أرضه

نعمة الأخوة ... منة من الله تعالى على القلوب .. عطية عظيمة خص الله تعالى بها القلوب بالألفة فقال تعالى : ﴿ ... **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** ... ﴾ الانفال / ٦٣ يقول ابن مسعود رضي الله عنه نزلت هذه الآية فى المتحابين فى الله عز وجل ، وقال تعالى : ﴿ **فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ آل عمران / ١٠٣ أى بالألفة وعن سهل بن سعد أن النبى ﷺ قال : « المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » وعن أبى هريرة رضي الله عنه فيما رواه النسائى قال النبى ﷺ : « **إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء فقالوا يا رسول الله صفهم لنا : فقال : هم المتحابون فى الله والمتجالسون فى الله والمتزاورون فى الله** » وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « **ما تحاب اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه** » رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد وفيما رواه مسلم فى صحيحه قول النبى ﷺ : « **إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى** » .

وعن أبى هريرة قول النبى ﷺ : « **إن رجلا زار أخاً له فى الله فأرصد الله له ملكاً فقال أين تريد قال : أريد أن أزور أخى فلانا فقال لحاجة لك عنده قال : لا قال : لقربة بينك وبينه قال : لا قال : فبنعمة له عندك قال : لا قال : فبم ؟ قال : أحبه فى الله قال : فإن الله أرسلنى إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة** » رواه مسلم .

ورضى الله عن عبد الله بن عمر وهو يقول : والله لو صمت النهار لا أفطره وقمت الليل لا أنامه وأنفقت مالى غلقاً غلقاً فى سبيل الله ، أموت يوم أموت ، وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله ، وبغض لأهل معصية الله ما نفعنى ذلك شيئاً .

وكان الفضيل يقول : تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن فى داره مع



المتقين والصديقين والشهداء والصالحين ، بأى عمل عملته ؟ بأى شهوة تركتها ؟ بأى غيظ كظمته ؟ بأى رحم قاطع وصلتها ؟ بأى زلة لأخيك غفرتها ؟ بأى قريب باعدته فى الله ؟ بأى بعيد قاربته فى الله ؟!!! .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب ..؟!

ورضى الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو ينصح المحبين قائلاً : إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك .

وعد الفضيل النظرة عبادة فقال : نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

فالمودة تستحكم بين القلوب ولا علاقة لها بخلق أو خلق أو صورة أو شكل .. إنما جوهرها ألفة فى القلب ومودة فى سويدائه يقول النبى ﷺ فيما رواه مسلم عن أبى هريرة : « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** ».

وتكتمل قلوب المحبين بحب الله إذا قوى وغلب على القلب واستولى عليه فيتعدى إلى كل موجود سواه فإن كل موجود سواه أثر من آثاره قدرته ، ومن أحب إنسانا أحب صنعته وجميع أفعاله ومن أجل ذلك كان النبى ﷺ إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال: « **إنه قريب العهد بربنا** » قال الترمذى حسن صحيح . ولذلك أوصى أكثر التابعين باستحباب كثرة الإخوان فى الله عز وجل ، بالتأليف والتحبب إلى المؤمنين لأن ذلك زين فى الرخاء ، وعون فى الشدائد ، وتعاون على البر والتقوى ، وألفة فى الدين .

قيل : من أراد الله به خيراً رزقه الله خليلا صالحاً ، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه ، يقول النبى ﷺ : « **ومن آخى أخاً فى الله عز وجل رفعه الله عز وجل درجة فى الجنة لا ينالها بشئ من عمله** » .

ويقال : إن الأخوين فى الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رفعه معه إلى مقامه .

من تختار لصحبتك ؟

يقول ﷺ فيما رواه الحاكم عن أبى هريرة : « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** » قال الحاكم صحيح.



ولذلك أوجب الإسلام اختيار الصديق والصاحب وقال السلف : استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك . ولكى يتحقق هذا الجزاء الجميل فعلى العقلاء اختيار إخوانهم كما قيل : الذين يتصفون بخمس خصال : أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا .

النـاس شـتى إذا مـا أنت ذقـتـهم
لايستوون كما لايستوى الشجر
هـذا له ثـمـر حـلو مـذاقـتـه
وذاك ليس لـه طعـم ولا ثـمـر

من وصايا على كرم الله وجه : أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه ، وفى وصية لقمان لابنه : يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر ، لذلك قيل : تكره صحبة طلاب الدنيا وتستحب صحبة الراغبين فى الآخرة، وذلك لأن مجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد تزهد فى الدنيا .

وعلامة الصديق ، المهتم بك ، وإن الأهتمام حقيقة الصداقة فالمؤمن كثير بإخوانه ، وعن عمر قوله : ما أعطى بعد اليوم خيراً من أخ صالح ويقول شاعر حكيم :

مـا نالت النفس على بغـيـة
ألذمن ود الصـديق الأمـين
من فـاتـه ود أخ صـالـح
فـذلك المقطوع منه الوتين

ولقد بين النبى ﷺ صفات هذا الأخ الصالح فقال : « **إن أحبكم إلى الله عز وجل الذين يألفون ويألفون وإن أبغضهم إلى الله عز وجل المشاءون بالنميمة المفرقون بين الإخوان** » .

وأفضل الأخوة كما قال العلماء المحبة الدائمة والألفة اللازمة فقد قيل : الإخوان والمحبة عمل . وكل عمل يحتاج إلى حسن خاتمة به ليتم العمل فيكمل أجره فإن لم يختم له بالآخرة ولم يحسن عاقبة الصحبة والمحبة فقد أدركه سوء الخاتمة .

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : (معاتبة الصديق خير من فقده ومن لك بأخيك كله ، هن لأخيك ولن له ولا تطع الشيطان فى أمره ، غداً يوافيه الموت فيكفيك فقده ، كيف تبكيه بعد الموت وفى الحياة تركت وصله) ، ومن أجل أن تتحقق أفضل الأخوة كمحبة دائمة متواصلة كانت وصية علقمة العطاردى عند وفاته لابنه فقال :

يا بنى إن عرضت لك إلى صحبة الرجال فاصحب :

■ من إذا خدمته صانك .

■ وإن قعدت بك مؤونة عانك .

■ أصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها . وإن رأى منك سيئة سدها .

■ اصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك .

■ اصحب من إذا قلت صدق قولك ، وإذا حاولت أمراً أمّرك وإن تنازعتما آثرك .

وقيل للأحنف بن قيس : أى إخوانك أحب إليك ؟ فقال : من يسد خللى ويستر زللى ويقبل عللى . ثم قال: الإخاء جوهرة رقيقة فهى مالم تحرسها كانت معرضة للآفات، فأرض الإخاء : بالذلة حتى تصل إلى فوقه ، وبالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك ، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير .

حياة المتحابين روح فى القلوب

* روى الطبرانى بإسناد جيد عن أبى عتبة الخولانى قال رسول الله ﷺ :

« ألا وإن لله أوانى فى أرضه وهى القلوب فأحب الأوانى إلى الله تعالى أصفاها وأصلبها وأرقها ، أصفاها من الذنوب وأصلبها فى الدين وأرقها على الأخوان » .

من هذه الرقة كانت حياة المتحابين يقول النبى ﷺ :

« مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى » وذلك لأنهما يتعاونان على غرض واحد فهما من وجه كالشخص الواحد .

حياته مع المال على ثلاث مراتب :

الأولى : تواسيه دون أن يسأل وإلا كان تقصيراً منك .

الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك فى مالك قال الحسن : كان أحدهم يشق ازاره بينه وبين أخيه .

الثالثة : وهى العليا أن تؤثره على نفسك فتقدم حاجته على حاجتك .

وهذا أبو الحسن الثورى لما أشرف على السياف هو وصحبه بادر هو أولاً فقيل له : لم ذلك فقال : أحببت أن أوثر إخوانى بالحياة فى هذه اللحظة .. فكان ذلك سبباً للعفو عنهم جميعاً . وقد جاء رجل إلى أبى هريرة رضي الله عنه وقال : إنى أريد أن أؤاخيك فى الله فقال أتدرى ما حق الإخاء قال : عرفنى قال : أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك منى ، قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد قال : فاذهب عنى .

ويقول أبو سفيان الدارانى : لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخ من إخوانى لاستقللتها له وقال أيضاً: إنى لألقم اللقمة أخا من إخوانى فأجد طعمها فى حلقى .

■■ **حياة المتحابين** :

* قضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية فقال : ما هذا قال : لما أسديته إليّ فقال : خذ مالك عافاك الله إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه فى قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده فى الموتى .

فالسهر على حاجة أخيك له درجات أدناها القيام بحاجته عند السؤال ، مع البشاشة والاستبشار والفرح وقبول المنة . مما دفع الحسن إلى قوله : إخواننا أحب إلينا من أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

* يقول أنس : « كان النبى ﷺ لا يواجه أحداً بشئ يكرهه » رواه الترمذى فى الشمائل ... هكذا يكون الأخ مع أخيه فيسكت عن ذكر عيوب أخيه فى غيبته وحضوره ولا يماريه ولا يناقشه ، وهنالك ينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، يقول ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات ، ويقول الفضيل : الفتوة العفو عن زلات الإخوان .

وليس السكوت سكوت اللسان فحسب بل الأخطر هو سكوت القلب

وذلك بترك إساءة الظن فسوء الظن غيبة القلب وهو منهى عنه أيضاً ، وحده أن تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن ، وحيث أنه لا يتم ايمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه فأقل ذلك أن يعامله بما يحب أن يعامله به أخوه فلا ينتظر منه إلاستر العورة والسكوت عن المساوئ والعيوب فكما قيل: من فى قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف وأمره فى خطر ، وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله .

ومن فقه القلب ألا تفشى سر أخيك ، فقد أفشى بعضهم سراً إلى أخيه ثم قال له : حفظت قال بل نسيت، وقيل لأبى يزيد من تصحب من الناس ؟ قال : من يعلم منك ما يعلم الله ثم يستر عليك كما يستره الله . وقال ذو النون : لا خير فى صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصوماً.

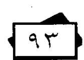
وقال العباس لابنه عبد الله : إنى أرى هذا الرجل يعنى عمر رضي الله عنه يقدمك على الأشياخ فاحفظ عنى خمساً : لا تفشين له سراً ولا تغتابن عنده أحداً ولا تجربن عليه كذباً ولا تعصين له أمراً ولا يطلعن منك على خيانة، فقال الشعبى : كل كلمة من هذه الخمس خيراً من ألف.

بهذا الصفاء وبهذه الرقة يتعامل الإخوان ، حتى أن بعض السلف كان يقول : (أعجز الناس من قصر فى طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم) وظل هذا الصفاء حلاوة فى القلوب حتى أن أبا سليمان الدارانى يقول : كان لى أخ بالعراق فكنت أجيئه فى النوائب فأقول أعطنى من مالك شيئاً فكان يلقى إلى كيسه فآخذ منه ما أريد ، فجئته ذات يوم فقلت أحتاج إلى شئ فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبى .

* أما فى نصحه فالمؤمن مرآة أخيه ، ينصحه بفقه الشافعى رضي الله عنه وهو يقول : من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه ، وفى وصية ذى النون :

* *لا تصحب مع الله إلا بالموافقة .*
* *ولا مع الخلق إلا بالمناصحة .*
* *ولا مع النفس إلا بالمخالفة .*
* *ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .*

ولذلك كان عمر رضي الله عنه يستهدى من إخوانه ويقول : رحم الله امرءاً أهدى



إلى أخيه عيوبه . ومع النصح تأتى هفوة الصديق ، فإن كانت فى دين بارتكاب معصية فعليك التلطف فى نصحه ، وكان من فقه أبى الدرداء أن لا يتركه إذا تغير يقول : إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم مرة أخرى ، وقال إبراهيم النخعى : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً .

قال جعفر بن سليمان مهما فترت فى العمل ، نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إلىّ نشاطى فى العبادة وفارقنى الكسل وعملت عليه أسبوعاً ... ولذلك قال الله تعالى لنبيه : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ الشعراء / ٢١٦ ، ومن هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا .. فقال : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى . وإلى هذا أشار ﷺ فيما رواه البخارى عن أبى هريرة فى الذى شتم الرجل الذى أتى فاحشة إذ قال مه، زجره وقال :

« **لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم** » .

وإن كانت فى حق الأخوة فقد قيل : ينبغى أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك فتقول لقلبك ما أقساك ..

يعتذر إليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله فأنت المعيب لا أخوك ، فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغى أن لا تغضب إن قدرت ولكن ذلك لا يمكن .

ومهما أعتذر إليك أخوك كاذباً أو صادقاً فاقبل عذره، فقد قال تعالى : ﴿ .. وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. ﴾ آل عمران / ١٣٤ ، ولم يقل والفاقدين الغيظ وهذا لأن العادة لا تنتهى إلى أن يخرج الإنسان فلا يتألم بل تنتهى إلى أن يصبر عليه ويحتمل ، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب ولا يمكن قلعه ولكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه .

■■ **استدامة المحبة :**

* ومن أجل أن تدوم المحبة والأخوة وضع العلماء شرطاً فى قولهم : ما تآخى اثنان فى الله فتفرق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما ، وكان بشر يقول : إذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه الله من يؤنسه ، وذلك لأن الإخوان مسلاة الهموم وعون على الدين . وكذلك قال ابن المبارك : ألذ الأشياء

مجالسة الإخوان .

والمودة الدائمة هى التى تكون فى الله وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض ، ومن ثمرات المودة فى الله أن لا تكون مع الحسد فى دين ودنيا ، وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته ، وبه وصف الله تعالى المحبين فى الله فقال عز وجل : ﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الحشر / ٩ ، ووجود الحاجة هو الحسد ومن الوفاء أن لا يتغير حاله ، وأوصى بعض السلف ابنه فقال :

(يا بنى لا تصحب من الناس إلا إذا افتقرت إليه قرب منك ، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك ، وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك) .

ومن عرف فضل الأخوة فى الله عز وجل ، وعلم درجة المحبة لله تعالى ، صبر لأخيه وشكر له وحلم عنه واحتمل له، لينال ما أمله من مؤمله فيه ويبلغ ما طلبه من طالبه به ، وكان الفضيل بن عياض يقول : نظر الأخ إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة ، فلا تضع المحبة فى الله عز وجل إلا بما شرط فيها من :

الرحمة فى الاجتماع والخلطة عند الافتراق .

بظهور النصيحة واجتناب الغيبة .

وتمام الوفاء ووجود الأنس وفقد الجفاء .

وارتفاع الوحشة ووجود الانبساط وزوال الاحتشام .

وكان الفضيل يقول أيضاً : إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة .

وكان الجنيد يقول : ما تواخى اثنان فى الله عز وجل فاستوحش أحدهما من صاحبه إلا لعلة فى أحدهما .

ومن ثم إذا وقع الأخ فى معصية فهل يتركه ويبغضه أم يواصل حبه معه ؟ لقد جاءوا يوما إلى أبى الدرداء يقولون له أن أخا له أحبه فى الله وقع فى كبيرة فحدثوه وقالوا له : لو أبعدته ، فقال سبحان الله لا نترك صاحبنا لشئ من الأشياء . ثم قال : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى وكذلك قال الله تعالى لنبيه :

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ الشعراء / ٢١٦، ولم يقل: قل إنى برئ منكم . وكان إبراهيم النخعى يقول : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً.

والقلب يتذوق حلاوة الإيمان بهذه الأخوة فى قول النبى ﷺ : « **وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله** » . فى قوله : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، ولذلك لما قيل لسفيان بن عيينة أى الأشياء ألذ ؟ .

فقال : مجالسة الإخوان .

ومن أجل استدامة هذه المحبة فى الله تعالى فلابد للقلب أن يفرق بين كل من :

- النصيحة والفضيحة .
- العتاب والتوبيخ .
- المداراة والمداهنة .
- الغبطة والحسد .
- الفراسة وسوء الظن .

١ - النصيحة والفضيحة :

يقول جعفر بن يرقان قال لى ميمون بن مهران : قل لى فى وجهى ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره ، فإن كان أخوه الذى نصح له صادقاً فى حاله أحبه على نصحه ، فإن لم يحبه وكره ذلك منه دل على كذب الحال ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ويأمر الإخوان بذلك :

« **رحم الله امرءاً أهدى إلى أخيه عيوب نفسى** » .

ولكن أين القلب وعمله من النصح ؟.. قيل فما كان فى السر فهو نصيحة وما كان فى العلن فهو فضيحة وقلما تصح فيه النية لوجه الله تعالى لأن فيه شناعة .

٢ - العتاب والتوبيخ :

قال الأحنف : الإنصاف يثبت المودة ومع كرم العشرة تطول المحبة ، وكان يقول ثلاث تجلب بهن المحبة : الإنصاف فى المعاشرة ، والمواساة فى الشدة ، والانطواء على المودة ... ولكن لا يخلو جو الأخوة من العتاب والمعاتبة .. ولكن المحبين فى الله تعالى ما كانوا يتركون اللوم والعتاب حتى يتحول إلى ما يعكر صفو معاشرتهم ، حينما بلغ أحدهم أن أخاه يقول فيه قولاً سيئاً ، ذهب إليه وقال : بلغنى أنك قلت فىّ قولاً سيئاً ؟! فرد أخوه : إن كان حقاً قبلته وإن

كان باطلا رددته !! فقاما وتعانقا وانتهى ما لم يبدأ من تعكير صفو أخوتهم ، وهكذا يكون العتاب الصادق من قلب ممتلئ بالحب والصدق ، فالعتاب ما كان فى خلوة ، وإلا تحول إلى توبيخ إن كان فى جماعة ، لأن الكلمة تعظم بعارفيها ، وتضخم بعدد الملأ الذى يسمعها .

فالعتاب مطلوب فى وقته وعلى حاله ليعود الجو الرقيق والصفو الجميل بين المتحابين ، وإلا كان الاضطراب والموج العاتى والانفعالات المقلقة وانشقاق الصفاء وفتح الثغرات لعمل الشيطان .. ويسمى حينئذ توبيخ .. لا عتاب .

٣ ـ المداراة والمداهنة :

المداراة ما أراد به القلب وجه الله تعالى وطريق الآخرة، ويكون القصد فى العمل به سلامة أخيك من الإثم وصلاح قلبه لله تبارك وتعالى .

وبهذا التعريف فالمداراة تستعمل فى وقتها بحكمة بما يحقق غرضين : الأول : أخروى بالنسبة إلى قلبك ، والثانى: دنيوى يعود بالنفع على أخيك خاصة على قلبه ، فالمداراة رسالة من قلبك إلى قلب أخيك تنجو بها أنت ويظفر بها أخوك .

أما المداهنة فعكسها تماماً حيث يريد بها المداهن الدنيا وتحقيق حظ النفس ، **فالأولى** : غرض دنيوى لا يريد به وجه الله ولا الآخرة ، وفيها قلبه بعيد عن ربه واقع فى الغفلة ، **والثانية** : لا يريد النفع لأخيه وسلامة قلبه وإنما يريد تحقيق حظ نفسه من نفع أو كسب أو غنيمة أو تقدم أو تأخر ، ودونما نظر إلى مصلحة أخيه.

٤ ـ الغبطة والحسد :

الغبطة أن تحب لنفسك ما رأيته من أخيك ولا تحب زواله عنه بل تحب أن يبقى له وتحب إتمامه عليه من صفاء قلب ، وهو يفرح لنعمة نزلت بأخيه ، فيحبها لنفسه ، إن كانت صلاحاً فى دين ، أو استقامة فى دعوة ، أو ثباتاً على عقيدة ، أو إنفاقاً لمال فى سبيل الله ، أو جهاداً متواصلاً فى سبيل الله ، أو علماً وفكراً وثقافة ينشر بها الخير ، أو سعياً أو تقدماً على طريق الله ، أو فتحاً فى رزقه وعمله وتدوم وتستمر وتنمى ، وبذلك المفهوم فالغبطة حركة قلبية إيجابية تربى الإنسان على الخير والسعى فيه .

أما الحسد فما أردت أن يكون لك وأحببت زواله عنه ، وكرهت أن يبقى

معـه ، ولا يجـتـمع ايمـان وحسـد فى قلب مـؤمن ، وذلك لأن الحسـد يأكل الإيمـان وإذا رفع الإيمـان ، رفعت الأخـوة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجـرات/ ١٠ .

٥ـ الفراسة وسوء الظن :

الفـراسـة مـا توسـمتـه من أخيك بدليل يظهـر أو شـاهـد يبـدو منه أو عـلامـة تشهدها فيه ، فتتفرس ذلك منه ولا تنطق به إن كان سوءا ، ولا تظهره ولا تحكم عليه ولا تقطع به فتأثم.

فهما أمران :

الأول : توسمك على دليل أو شاهد أو علامة .

الثانى : يظل ذلك حبيس النفس إن كان سوءاً فلا تظهره ولا تحكم عليه ولا تقطع به .

أما سـوء الظن : ما ظننته من سوء رأيك فيه أو لأجل حقد فى نفسك عليـه أو لسـوء نيـة تكون أو خبث حـال فيـك تعرفهـا من نفسـك ، فتحمل حـال أخيك عليها وتقيسه بك ، فـهذا هو سوء الظن والإثم ، وهو غيـبة القلب وذلك محرم لقول النبى ﷺ :

« **إن اللـه حـرم من المؤمـن دمـه ومـالـه وعـرضـه وأن تـظـن بـه ظـن السـوء** » وقوله ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث** » .

❤ حلاوة الأخوة . . كيف تدوم ؟

يقول النبى ﷺ : « **لا تبـاغضـوا ولا تدابروا ولا تحاسـدوا ولا تقاطعوا وكـونوا عبـاد الله إخـواناً** » يقـال : مـا مـن النـاس أحـد إلا له محـاسـن ومسـاوئ ، فـمن ظهـرت محـاسنه فـغلبت مسـاوئه فـهـو المؤمن المقتصـد ، فالأخ الشـفـيق الكريم يذكر أحسن ما يعلم فى أخيه ، والمنافق اللـئيم أعاذنا الله منه يذكر أسوأ ما يعلم فيه .

وكان المأمون يقول : الإخوان ثلاثة أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه فى وقت والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه ، فللأخوة فى القلب حلاوة تزداد وتدوم بالحب والود يقول ابن سعد : لا تسأل امرءاً عن وده ولكن انظر ما فى قلبك فإن فى قلبه لك مثل ذلك .

ولذلـك كـان حكـم السـلف قـولـهم : أعـجـز النـاس من قـصـر فى طـلب



الإخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم ، حتى وصل الأمر بأحدهم إلى قوله : إذا مات أخ لى فقد فقدت عضواً من أعضائى ، وقد ابتلى أحد أخوين بهوى فجاء إلى أخيه يقول : قد اعتللت بالهوى فإن شئت أن لا تعتمد على محبتى لله تعالى فافعل ، فقال : ما كنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبداً .

وكان أبو عمر بن العلاء يقول : (يستحب للمتوآخين فى الله عز وجل أن يلتقيا فى كل يوم مرتين) ولتدوم حلاوة أخوتهما فى قلبيهما يكون اللقاء الدائم .

فإذا وجد زلات فليطلب لأخيه المعاذير فإن أغناه ذلك وإلا قال : لعل لأخى عذراً غاب عنى .

ولذلك كان ذو النون يقول : لا خير لك فى صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصوماً .

وأنفع وأدوم الحب ما كان بعيداً عن التصنع والتكلف فقد كان جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما يقول : (وأثقل أخوتى على من يتكلف لى ، وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبى من أكون منه كما أكون وحدى) .

وقد يضعف من حلاوة الأخوة الرئاسة والولاية مما دفع السلف إلى قولهم : إذا ولى أخوك ولاية فثبت على نصف مودتك فكثير .... إلا الشافعى مع حبه الشديد لمحمد بن الحكم المصرى ، فقد كان يقول : ما يقيمنى بمصر غيره، ولما اعتل محمد فعاده الشافعى وأنشد فيه :

مرض الحبيب فعدته
فمرضت من حذرى عليه
وأتى الحبيب يعودنى
فبرأت من نظرى إليه

وما شك أهل مصر أن الشافعى يفوض أمر حلقته إليه وأنه يستخلفه بعد موته ، وعندما سئل عن ذلك فى علته فقيل له : يا أبا عبد الله إلى من نجلس بعدك ومن يكون صاحب الحلقة وهم يظنون أنه يشير إلى محمد ، فاستشرف لذلك محمد وتطاول لها وكان جالساً عند رأسه... فقال الشافعى رضي الله عنه : سبحان الله أيشك فى هذا .. أبو يعقوب البوطى .. فانكسر لها محمد ووجد

فى نفسه .... وكان يعقوب أزهد وأورع وهكذا حلاوة الأخوة لشىء فى القلوب ، أما إقرار العدل وإحقاق الحق فله مجال آخر .

بركة الأخوة

فى دعوة قلبية

قيل : لو لم يكن من بركة الأخوة إلا إفراد الأخ بالدعاء والاستغفار له فى الغيب .. كان هذا كثير .. وكان محمد بن يوسف الأصبهانى يقول : وأين مثل الأخ الصالح ، أهلك يقتسمون ميراثك وهو متفرد بحسرتك فمهتم بما قدمت يدعو لك فى ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى ، وقال بعض العلماء : لو لم يكن فى اتخاذ الإخوان إلا أن أحدهم يبلغه موت أخيه فيترحم عليه ويدعو له ، فلعله يغفر له بحسن نيته له . أما دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب فهى دعوة قلبية ، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: إنى لأدعو لأربعين من إخوانى فى سجودى أسميهم بأسمائهم وقد جاء فى الحديث : « **دعاء الأخ لأخيه بالغيب لا يرد** ، **ويقول الملك** : **ولك مثل ذلك** » ، وفى لفظ آخر يقول الله تبارك وتعالى : ولك مثل هذا ، وفى لفظ آخر يقول الله تبارك وتعالى بك أبدأ ... وفى الحديث المشهور يستجاب للمرء فى أخيه مالا يستجاب له فى نفسه ، فمن واجب الأخوة تخصيصه وإفراده بالدعاء والاستغفار له فى الغيب وهذه هى بركة الأخوة .. وصدق على بن أبى طالب كرم الله وجهه : من أشد الناس وحشة فى الدنيا من لم يكن له خليل يأنس به وصديق صدوق يسكن إليه. قيل وعلامة هذه البركة فى انشراح القلب بذلك وخفته على القلب فذلك دليل السرور بالأخ والدعاء له ، وهنا يحقق الله فى القلب خاصيته من الألفة ويوجد من الأنس فى القلوب حيث يتولى الله القلبين بصنعه ، وهذا ارتياح القلوب وانشراح الصدور ووجود السرور . وهكذا تتحرك على الأرض قلوب المحبين التى هى أرق أوعية الله فى أرضه صفاءً ونقاءً وحباً وصدقاً ، وهذه حركة القلب المحب الذى يسبح فى بحر الأخوة .

وبهذه المعانى وبهذه القلوب تحيا الأخوة من جديد ، وتتحول إلى نعمة من الله عز وجل مضافة إلى محاسن نعمه. ﴿ .. وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. ﴾ آل عمران / ١٠٣ .





٧ - ما لا يعلمه القلب ولا يخطر عليه

❤ الله تعالى أمرنا بإخراجه ، وأمرنا بما لا يخطر على القلب ، ولا نحدث به النفس وجعل المكافأة لذلك التظليل فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ... من السبعة .. « **رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله ما أعطت يمينه** » وهذا من المبالغة فى الوصف ، وفيه مجاوزة الحد فى الإخفاء أى يخفى من نفسه فكيف غيره ؟! .

فيخرجها طيبة بها نفسه مسروراً بها فى قلبه مخلصاً لربه ، مبتغياً بها وجهه لغير رياء ولا سمعة ولا تزين ولا تصنع ، لا يحب أن يطلع عليها غير الله عز وجل ، ولا يرجو فى إعطائها ولا يخاف فى منعها سواه ، وليكن ناظراً بقلبه إلى الله تعالى عارفاً بحسن توفيقه وأن يعتقد فضل من يعطيه من الفقراء عليه ولا ينتقصه بقلبه ولا يزدريه . يقول تعالى : ﴿ ..**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ** .. ﴾ البقرة / ٢٦٤ ، قيل فى تفسيرها : المن أن تذكرها ، والأذى أن تظهرها .

❤ **وحقيقة الخفاء** : لا يحدث ولا يخطر على قلبه ، وليس يكون هذا إلا أن لا يرى نفسه فى العطاء أصلاً ، ولا يجرى وهم ذلك على قلبه فقد قيل : إن لم يمكنك على الحقيقة أن تخفى صدقتك عن نفسك فاخف نفسك فيها حتى لا يعلم المعطى أنك أنت المعطى وهذا هو الإخلاص .

❤ **ثم تأتى المرتبة الثانية** :

وهى إخفاء الصادقين وقيل فيها : فإن أظهرت يدك فى الإعطاء فاخفها سراً إلى المعطى فهذا حال الصادق ، يقول تعالى : ﴿ ... **وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ** ... ﴾ البقرة / ٢٧١ .

❤ **ثم المرتبة الثالثة** :

وهو حال المتصدقين قيل : فإن أظهرت زكاتك إرادة السنة والاقتداء بك والتحريض على ذلك من غيرك لينافسك فيه أخوك متسرع إلى مثله فحسن ، وذلك من التحاض على إطعام المسكين وقد ندب الله تعالى إليه وقد قيده فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً ﴾ الرعد / ٢٢ ، قيل سراً : التطوع ، وعلانية : الصدقة المفروضة .

وما لا يعلمه القلب ولا يخطر عليه انتظار الثناء والحمد ممن تعطيه من رزق الله إياه الذى أجراه على يديك ، كانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفاً إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعو به ثم يردان عليه مثل قوله ، ويقولان : حتى تخلص صدقتنا . وفعل ذلك عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما ، وعليه لا ينبغى أن تطالب الفقير الدعاء لك أو تحب منه الثناء والمدح فإن ذلك ينقص من الصدقة وإذا كثر منك وقوى أحبطها . فمن أحب الثناء والذكر على معروفه كان حظه منه وبطل أجره وربما كان عليه فضل الوزر لمحبته الذكر والثناء فيما لله تعالى أن يفعله من رزق الله لعبده الذى أجراه على يديه. وقيل : يستحسن أن يكون دعاء الفقير : طهر الله قلبك فى قلوب الأبرار ، وهذا شكر الناس والدعاء لهم وحسن الثناء عليهم .

أما ما يحب أن يعرفه القلب أن الصدقة تقع بيد الله تعالى قبل أن تقع فى يد السائل وهو يضعها فى يد السائل، فالموقن يأخذ رزقه من يد الله تعالى فهو لا يعبد إلا كما أمر فى قوله تعالى : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ العنكبوت / ١٧ .

وينبغى أن يجعل صدقته من أجل ما يقدر عليه وأطيبه فى نفسه وجهده ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وزكاة الصدقة ونماؤها عند الله على حسب حلها ووضعها فى الأفضل من أهلها .

وينبغى أن يستصغر القلب ما يعطى فإن الاستكثار من العجب ، والعجب يحبط الأعمال ، يقال : إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله تعالى ، وإن المعصية : كلما استعظمت صغرت عند الله تعالى وعن بعض العلماء قولهم : لا يتم المعروف إلا ثلاث تصغيره وتعجيله وستره .

وينبغى للقلب أن يفرح ويسر بقبول المعروف من الأتقياء لأن ذلك عمله وينبغى أن يحزن بردها عليه إذا كان ذلك رداً من الله تعالى له ، ثم يدفع بها لغيره لأنه قد أخرج المعروف لله تعالى فلا يرجع فيه .

ولذا فعلى صاحب المعروف أن يجتهد فى طلب الأتقياء وذوى الخاصة من الفقراء ويبلغ غاية علمه بذلك وينفذ نظره بالصالحين من علماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا والورعين عن التكاثر فيها لأن هؤلاء همهم الله سبحانه وتعالى ، ففى إعانتهم وكفايتهم تفريغ لقلوبهم للعلم وينشطون لتعليم الناس ،





بل يرجو له ويخاف عليه ، وإن مات مصراً على الكبائر عن غير توبة .

٧ ـ لا يحكم القلب ولا يقطع على الله تعالى بشئ ولا يوجب له عليه شيئاً ، إنما نحن بين عدله وفضله وبمشيئته واختياره ، إن حقق علينا وعيده فنحن أهل ذلك وإن غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة .

٨ ـ أن يصدق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها ، أنها من الله تعالى سابقة فى علمه جارية فى خلقه بحكمه، وأنهم لا حول لهم عن معصية إلا بعصمته ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته .

وأما خصال الآخرى نجملها فى :

١ ـ يعتقد بسؤال منكر ونكير وعذاب القبر أنه حق.

٢ ـ يعتقد بالميزان ذى الكفين واللسان أنه حق وعدل وحكمة .

٣ ـ يعتقد أن الصراط حق وفق ما جاء على وصفه فى الآثار .

٤ ـ يعتقد بوقوع الحساب وتفاوت الخلق منه .

٥ ـ يعتقد بالنظر إلى الله جل جلاله عياناً بالأبصار مواجهة .

٦ ـ يعتقد إخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى فى جهنم موحد بفضل الله .

٧ ـ يعتقد فى شفاعة الشافعين من الأنبياء والصديقين .

٨ ـ يعتقد بأن لكل مؤمن شفاعة بإذن الله فيشفع النبيون والصديقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين كل أحد وسع وقدر منزلته . وهكذا وردت أدلة الاثبات . فمن أظهر هذه الخصال سواء كانت فى الدنيا أو فى الآخرة نجا من النفاق ، لقد سئل حذيفة عن النفاق فقال : اليوم المنافقون أكثرهم منهم ، على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه ، وقيل للحسن إن قوماً ما يقولون : لا نفاق اليوم فقال : يا ابن أخى لوهلك المنافقون لاستوحشتهم فى الطرقات ، فمن عقود القلب الحذر من النفاق ، مما دفع الحسن إلى قوله : والله لأن أكون أعلم أنى برئ من النفاق أحب إلى من قلاع الأرض ذهباً. وكانوا يخشون أن يقولوا « إنا مؤمنون » حتى ما تكون دعوة دون دليل فقد سئل علقمة : أمؤمن أنت فقال : أرجو ذلك إن شاء الله وكان الثورى يقول نحن مؤمنون بالله وملائكته ورسله وما ندرى ما نحن عند الله .

وكان من دعاء النبى ﷺ « **إنى استغفرك لما علمت وما لم أعلم** » فقيل له :

أتخاف يا رسول الله ؟ قال : « وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء » ، ويقول تعالى : ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ الزمر / ٤٧ ، قيل عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فلما كان عند الحساب والميزان وجدوها سيئات وقيل كانت هذه الآية « مكابدة العابدين » .

وإن كان عقود القلب هى السنة المجمع عليها ، فتفصيل ذلك كله أعمال قلوب ونجمعها فى خمسة أمور :

١ ـ التقليل من الدنيا فى كل شئ .

٢ ـ القناعة من الله تعالى بأدنى شئ .

٣ ـ التواضع لله بكل شئ قيل : (فى القول والفعل والزى والأثاث والمنزل) .

٤ ـ الورع عن الشبهات فى العلم والعمل .

٥ ـ ترك مالا يعنى من قول وفعل فهو تكلف منهى عنه.

فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فقد ملك عقود القلب ، لقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله : اكتب إلى بسيرة عمر رضي الله عنه فى الناس فإنى أحب أن أسير بها ، فكتب إليه : أما بعد فإنك لست فى زمن عمر ولا لك رجال كرجال عمر ، فإن عملت فى زمانك هذا ورجالك هؤلاء بسيرة عمر فأنت خير من عمر رضي الله عنه .

❤ ❤ ❤

٩ـ أكل الحلال
نور القلوب وحكمتها

يقـول تعـالـى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة/ ٢٧٨ ، ثم اشترط للإيمان ترك الربا بقوله ﴿ إن ﴾ وهى للشرط والجزاء ثم قال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴾ البقرة/ ٢٧٩ ، ثم أوجب التوبة منه اعلامه الظلم منه فقال : ﴿ ... وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾البقرة/ ٢٧٩ ، ثم نص على تحريمه قوله: ﴿ ... وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ... ﴾ البقرة/ ٢٧٥ ، ثم تواعد بالخلود بعد ذلك كله فقال : ﴿ ... وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة/ ٢٧٥ ، وهذا من شديد الخطاب وعظيم العذاب روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ : « **يأتى على الناس زمان لا يبقى فيه أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره** » يعنى أنه يدخل عليه وإن لم يعمل به من غير قصد له ولا اكتساب كما يدخل الغبار فى المشام للمجتاز لفشو الربا وانتشار مداخله مما لا يمكن التحرز منه. وقد عدُّوا الذى يسعى على عياله من حلال كالمجاهد فى سبيل الله تعالى ، ففى الخبر : « **من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل ومن طلب الدنيا حلالاً فى عفاف كان فى درجة الشهداء** » ويقال : إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه ومن أقام نفسه فى مقام ذل فى طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كما يتساقط ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس ، وكان بعض العلماء يقول لبعض المجاهدين : أين أنت من عمل الأبطال كسب الحلال والنفقة على العيال .

والعلاقة بين أكل الحلال وحركة القلب تتضح بمحو الذنوب عنه ، فيحل محل الظلام نور من الله تعالى ، ففى الخبر : « **من أكل الحلال أربعين يوماً نوّر الله قلبه ، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه** » ورحم الله سهلاً كان يقول : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يأكل الحلال بالورع . وكان عند السلف من أفضل الأشياء ففى قول بعضهم : أفضل الأشياء ثلاث : يعمل سنة ودرهم حلال وصلاة فى جماعة .

وقد يجتهد القلب ويلح وينكسر ويتذلل من أجل أن يستجيب الله تعالى

الدعـــاء وعندمـــا ذهب سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه يسأل رسول الله ﷺ أن يجعله مستجاب الدعـــوة دلّه النبى ﷺ على سر عظيم فقال : « **يا سعد أطب مطعمك تستجب دعوتك** » ومن ثم قال العلماء : الدعاء محجوب عن السماء بفساد الأطعمة ، وقال جماعة من السلف والجهاد عشرة أجزاء تسعة فى طلب الحلال ويقال : إن من صلى وفى جوفه طعام حرام أو على ظهره سلك من حرام لم تقبل صلاته .

وقد قدّم الله تعالى أكـل الحـــلال على عمل الصالحات فى قـــوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ... ﴾ المؤمنون / ٥١ ، أى من الحلال ، وقيل فى معنى قوله تعالى : ﴿ ... لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ النساء / ٢٩ ، قيل من أكل حراماً فقد قتل نفسه لأنه كان سبب هلاكها وتعذيبها ، وذلك على عكس ما يكافئ به الله تعالى عبادة الأطهار الذين يأكلون الحلال ، فقد قيل فى معنى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ النحل / ٩٧ ، قال : نرزقـــه حلالاً واللـــه تعالـــى ينظر فى قلوب عباده فإن رأى فيها صدقاً فى طلب الحلال وإقبالاً وإصراراً سهل لها الطريق إليه ، والحصول عليه ، فقد وردت أقوال لكثير من الورعين يقول: منذ أربعين عاماً ما دخل جوفى إلا ما أعلم حيث يعلم أو يشهد عنده شاهدان بصمته . وليس الأمر بالغ الصعوبة بالدرجة التى تعجز الناس عن التحرى وطلب الحلال لتطهير قلوبهم ، ففى حديث النعمان بن بشير المشهور : « **الحلال بين والحرام بين والشبهات بين ذلك لا يعلمها كثير من الناس ، من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه ، وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله فى أرضه محارمه** » . يقال إن هذا الحديث ثلث العلم فما اطمأن إليه القلب فهو حلال ، وما نفر منه قلب المؤمن واشمأز منه فهو حرام ، وقد تطمئن بعض القلوب إلى شئ لقلة ورعها وقد تنفر بعض القلوب من شئ لقصور علمها وليس بمثل هذين القلبين اعتبار ، إنما الاعتبار بقلب المؤمن، وهذا القلب فى القلوب أعز من الذهب .. والشبهة ما أباحها العلم وكرهها القلب وذلك لعدم الطمأنينة إليها فى القلب .

وفصل الخطاب فى ذلك إنه ليس على العبد أكثر من جهده وطاقته وأن يعمل فى دينه بمبلغ علمه ، وما يؤدى إليه اجتهاده ووسعه ولا يرخص لنفسه



بهواه رخصة . قال بعض العلماء : لا يكون حلالاً حتى لا يتخالج فى القلب منه شئ وحتى يسكن القلب إليه ويطمئن إليه .

وهذه قصة امرأة من أهل القلوب جاءت إلى إبراهيم الخواص تسأله عن تغيير وجدته فى قلبها فقال : عليك بالتفقد ، فلما تفقدت قلبها فذكرت ليلة المشعل فقالت: هذا التغير من ذلك فذكرت أنها كانت تغزل فوق سطح لها فانقطع خيطها فمر مشعل السلطان فغزلت فى ضوئه خيطاً وأدخلت فى غزلها ونسجت منه قميصاً لبسته .. قال: فنزعت قميصها وباعته وتصدقت بثمنه فرجع قلبها إلى صفائه .

وهذا ذو النون المصرى رحمه الله يضيف فوق ذلك أنه لما سجن لم يأكل طعاما ولم يشرب أياماً فوجهت إليه امرأة يعرفها من العابدات بطعام إلى السجن وقالت : هذا من حلال فلم يأكله فقالت له : بعد ذلك ، فقال : ذلك الطعام من حلال إلا إنه جاءنى فى طريق حرام فلم آكله فقالت : وكيف ذلك ؟ قال : جاءنى فى يد السجان وهو ظالم فلذلك لم آكله .. هذه خصال أهل الورع فلم لا نجتهد بقلوبنا عسى أن نكون من المقربين السابقين لنحظى بنور فى قلوبنا وينابيع الحكمة تتفجر من قلوبنا ، فإن كسبنا من ديننا ، وطعمنا من إيماننا ، فإن كان تهاون أظلم القلب فما أقساه وما أضعفه وما أبعده عن النور والحكمة.



١٠ ـ بالجوع
تخرج حلاوة الدنيا من القلب

* قيل إن حال الصديقين فى طلبهم للجوع ، القوام من العيش والضرورة من القوت وهو ما سد الجوع وأعان على أداء الفرائض ، ولقد عد العلماء الأكل على الشبع والامتلاء حتى يتخم بقولهم : فهذا فسق .

وذلك لأنه بالتقلل وترك الشهوات واجتناب الشبهات تنكسر النفس وتذل ويخمد الطبع وتضعف الصفة عن العادة وتقوى إرادة الآخرة ، وتخرج حلاوة الدنيا من القلب ، وهنالك يتحقق فى العبد الزهد .

وكان ذلك طريق الصحابة فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوى ستاً ، وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام ، وكذلك كان التابعون فقد روى أن الثورى وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا ، وقد استخرج أهل القلوب من ذلك طريقاً وسطا أطلقوا عليه « طريق السائرين » يحصل لصاحبه خمسة أشياء :

١ ـ جوع النهار للصائم .

٢ ـ جوع الليل للقائم .

٣ ـ خلو القلب لفراغ المعدة .

٤ ـ رقة الفكر واجتماع الهم لخلو القلب .

٥ ـ سكون النفس للمعلوم فلا ينازعه قبل وقته .

* فى الحديث المشهور قول النبى ﷺ :

« **المؤمن يأكل فى معى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء** » .

فكان المؤمن يأكل سبع أكل المنافق ، وقد فسر ذلك أبو أحمد محمد سهل فقال : معنى يأكل فى سبعة أمعاء أحدها شره وطمع وحرص ورغبة وغفلة وعادة أى فالمنافق يأكل بهذه المعانى، والمؤمن يأكل بمعنى الفاقة والزهد .

وقد سئل سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله عن قوت المؤمن فقال : قوته الله تعالى ، قال : سألت عن قوامه فقال : الذكر فقال : إنما سألت عن غذائه فقال : غذاؤه العلم قال : سألت عن طعمة الجسم فقال : مالك والجسم



دع الجسم على من تولاه قديماً يتولاه الآن ، وقد سئل عن الحلال فقال : (مالم يعص الله فى أوله ، ولم ينس فى آخره وذكر عند تناوله وشكر بعد فراغه) .

ولذلك أوصى النبى بقلة الطعام حينما نظر إلى سمين فأومأ إلى بطنه بأصبعه فقال :

« **لو كان هذه فى غير هذا لكان خيراً لك** »

(يعنى لو قدمته لآخرتك وآثرت به إخوانك فكان فى غير جوفك لكان هذا خيراً لك) .

وهذا أبو جحيفة يتجشأ عند رسول الله ﷺ من ثريد ولحم فقال له النبى ﷺ : « **اكفف عنا جشاءك فإن أكثركم شبعا فى الدنيا أطولكم جوعا يوم القيامة** » . قال : فو الله ما ملأت بطنى من طعام بعدها إلى يومى هذا وأرجو أن يعصمنى الله فيما بقى .

وكان من أخلاق السلف ترك الشبع اختيار لأنفسهم لخفة الجسم ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها : أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع ، إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا ، وقال بعض العلماء : أبغض الأشياء إلى الله عز وجل بطن ملئ ولو من حلال .

والحديث المشهور عن رسول الله ﷺ : « **ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يشددن صلبه ، فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس** » .

فدل على أن ما نقص من ملء البطن فذلك خير ، **وفى قوله لقيمات معنيان** :

● **الأول** : التقلل لأن التاء تدخل للجمع القليل وهو ما دون العشرة من العدد . و **المعنى الثانى** : التصغير لأن اللقيمة تصغير لقمة ، ومعنى قوله ﷺ : « **ثلث طعام** » أن يأكل شبعه المعتاد فيصير ثلث الشبع قوام الجسد .

وعندما سئل طبيب عن الدواء الذى لا داء فيه قال : أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه فقال الحاضرون : صدق . ولكن ذلك لا يرقى إلى حديث النبى ﷺ الذى قال فيه أحد أطباء أهل الكتاب : ما سمعت كلاماً فى قلة الطعام أحكم من هذا وإنى جهدت الأطباء من الفلاسفة أن يقولوا مثل هذا فى التقليل من

الأكل فلم يهتدوا إليه ، وقد أجمع السلف ذلك كله فى قولهم : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة ، ذلك كما قيل : إن الجوع عز كله وإن الشبع ذل كله وتفصيل ذلك فى قول وهيب بن منبه : (إن لكل شئ وسط وطرفان فإذا أمسكت أحد الطرفين مال الآخر ، وإن أمسكت الوسط اعتدل الطرفان فكذلك البطن وسطا بين الجوارح إن أمسكتها اعتدلت الأطراف (السمع والبصر واللسان والفرج والرجلان)) .

وفى قول ابن سالم : (إذا أعطيت البطن حظه من الشبع طلبت كل جارحة حظها من اللهو فجمحت بك النفس إلى الهلكة وإذا منعت البطن حظه قصرت عنك كل حاجة عن حظها فاستقام القلب لذلك) .

واستقامة القلب دليل رقته ، والهلكة المقصود بها قسوة القلب لما تشتهيه وتتعذر الاستقامة فى القلوب إن كان الترك لما تشتهيه لغير الله فيحرص عليه ويدخل مداخل السوء من أجله وقد يبيع دينه فيه ، بل عليه إن ترك فيكون ذلك لأجل الله تعالى ، فإن تحققت هذه النية كانت أقرب لصلاح قلبه وتستكين نفسه ليملك بذلك نفسه قبل أن تملكه ويغلب بالترك طبعه وهواه قبل أن يغلبانه بالشهوة يقول بعض الحكماء : إنى لأقضى عامة حوائجى بالترك فيكون أروح لنفسى ، ففى هذا عون لصلاح القلب ودوام الحال .

وإذا غلا شئ علىّ تركته
فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وكان أبو سليمان الدرانى يقول : (ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها) ، وقيل: (إذا خلا الجوف من الامتلاء كان أرق للقلب وأعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام) .

* وقد وصف الله فى كتابه أولى الهدى والرشد بحسن التفقد فى طعامهم فقال :

﴿ .. إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا .. ﴾ الكهف / ١٣ : ١٤

فكان من قيامهم حسن تفقدهم فى المأكول فى قولهم :

﴿ ... فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ

﴿مِّنْهُ...﴾ الكهف / ١٩

يعنى أيها أحل وأفضل فأمروا رسولهم بتحرى الحلال .

ولم يكن لهم من التفقد تقسيم محفوظ إنما إذا أطعموا تقللوا وشكروا وإن جوعوا عملوا وصبروا .

عن عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ يدخل على أهله فيقول: هل عندكم من شئ ، فإن قالوا : نعم ، أكل وإن قالوا : لا، قال : إنى صائم ، وكان فى يوم صائماً ، فدخل على عائشة رضى الله عنها فقالت : قد أهدى لنا حيس فقال : « **قد كنت أردت الصوم ولكن قربيه** »...

وعلى هذا المعنى تكون قلوب العارفين ، واقتدى بذلك الصادقون ممن تركوا أكل الشهوات فى الانفراد ، فإذا قدمت إليهم نالوا منها شيئا يسيراً يستر عن نفسه أبصار الناظرين ويصرف عنه قلوب المادحين فإن قوى يقينه وغاب الناس عن عينه تركها وقلبه مطمئن بالإيمان .

وآخرون رأوا أن ترك الشهوة لمعنى دخل عليه منها يخرجه من الورع، أو عزم على المجاهدة ثم أتى بها فهذا اختبار من الله سبحانه وتعالى لينظر كيف يعمل فى الوفاء بالعقد ، فعليه ألا ينال شيئاً واشترطوا أن يتعلل ويدافع عن نفسه بالمعارض حتى لا يفطن به أنه قد تركها للمجاهدة ، فيكون قد فعل الوصفين معاً وهذا طريق المتقين .

وما كان يضرهم أكل الطيبات ما دامت لا تؤثر على القلوب فقد عوتب معروف الكرخى شيخ الزاهدين وهو يأكل طيبات أهديت إليه فقال : إنما أنا ضيف فى دار مولاى إذا أطعمنى أكلت وإذا جوعنى صبرت مالى والاعتراض والتخير ، وهذا إبراهيم بن أدهم يدفع بأموال كثيرة لشراء طيبات من رزق الله فيرد عليه صاحبه: يا أبا إسحاق بهذا كله فقال : ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال .

فمن فقه القلوب مع تفقد الطعام أن يكون دائم النظر إلى قلبه ، هل تأثر القلب بالشهوة أم هى عارضة هل هو حريص عليها أم لا ؟ إن العلاقة بين القلب والجوع علاقة متبادلة فبصفاء القلوب تجوع والجوع يثقل صفاءها ، وبهذا الفقه انطلق الزاهدون الحقيقيون من أمتنا فهذا أبو سليمان الدارانى يقول : لا تضر الشهوات من لم يتكلفها ، إنما تضر من حرص عليها ، وكان

يدعو أصحابه فتقدم لهم الطيبات فيقولون : أتنهانا عنها وتقدمها إلينا فكان يقول: أكل الطيبات يورث الرضا عن الله تعالى . وقال بعض الخلفاء : شرب الماء بثلج يخلص الشكر لله تعالى .

فكما قيل لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظمة مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها . ووفق هذا الفقه يتحرك القلب فى وسطية واعتدال وتوازن لا يعرف الشطط أو المغالاة أوتفريط وتقصير ، فبالجوع تخرج حلاوة الدنيا من القلوب .







أمراض القلوب وعلاجها

دواء القلوب

دواء القلوب

أولا : القلوب و الأمراض

١ـ تطهير الجنان

لسد مداخل الشيطان

القلب الخالى عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . .﴾ الحجر / ٤٢ ، فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله. يقول مجاهد فى معنى قول الله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ الناس / ٤ .

قال: هو منبسط على القلب فإذا ذكر الله تعالى خنس و انقبض وإذا غفل انبسط على قلبه، فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين الليل والنهار لتضادهم ، قال تعالى: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ . . .﴾ المجادلة / ١٩ .

و معركة المؤمن مع الشيطان لا تنتهى فالعدو غير غافل ولا يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة قال رجل للحسن يا أبا سعيد أينام الشيطان ؟ فتبسم وقال: (لو نام لاسترحنا) فلا خلاص للمؤمن منه ... ولكن الله تعالى دلنا على سبيل لدفعه و تضعيفه و هى حماية القلب من وسواس الشيطان، ومعرفة مداخله وعلاجها،وعدّ العلماء ذلك فرض عين على كل مكلف وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة لتطهير الجنان.



مداخل الشيطان :

أولا : الغضب والشهوة : قيل لإبليس : أرنى كيف تغلب ابن آدم؟ فقال: آخذه عند الغضب و عند الهوى.

ثانيا : الحسد والحرص : فمهما كان العبد حريصاً على كل شئ أعماه حرصه و أصمه، ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان و يقال فى كثرة الأكل ست خصال مذمومة:

١ـ أولها: أن يذهب خوف الله من قلبه.

٢ـ الثانى: أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شباع.
٣ـ الثالث: أنه يثقل عن الطاعة.
٤ـ الرابع: إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة.
٥ـ الخامس: إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع فى قلوب الناس.
٦ـ السادس: يهيج فيه الأمراض.

رابعا : حب التزين والثياب والسكن : لأن الشيطان إذا رأى ذلك غالبا على قلب الإنسان لا يزال يدعوه إلى عمارة الدنيا و بريقها.

خامسا : الطمع فى الناس : لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين عن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده.

سادسا : العجلة و ترك التثبت فى الأمور : ففيما رواه الترمذى عن سهل بن سعد قول النبى ﷺ :

« **العجلة من الشيطان والتأنى من الله تعالى** » وقال الله عز وجل: ﴿ **خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ** ... ﴾ الأنبياء / ٣٧ ، وقال تعالى: ﴿ ... **وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ** ... ﴾ طه / ١١٤ .

سابعا : المال سواء كان عرضا أو دوابا أو عقارا : فكل ما يزيد عن حد القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان فإن من معه قوته فهو فارغ القلب.

ثامنا : البخل والخوف من الفقر : وهذا سر عدم الإنفاق أو التصدق ومدعاة الإدخار والكنز والعذاب الأليم.

تاسعا : التعصب : للمذاهب و الأهواء و الحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء و الاستحقار وذلك مما يهلك العابد والفاسق جميعا فى آن واحد.

قال الحسن: بلغنا أن إبليس قال: سولت لأمة محمد ﷺ المعاصى فقصموا ظهرى بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها و هى الأهواء، وقد صدق إبليس الملعون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التى تجر إلى المعاصى فكيف يستغفرون منها.

عاشرا : تفكر من لم يمارس العلم : على التفكر فى ذات الله تعالى وصفاته وفى أمور لا يبلغها حد عقولهم ليشككهم.

قالت عائشة رضى الله عنها: قال رسول الله ﷺ: « **إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقك؟ فيقول: الله تبارك وتعالى. فيقول: فمن خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه** » أحمد ومتفق عليه من حديث أبى هريرة.

إحدى عشر: سوء الظن بالمسلمين: يقول تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ...﴾ الحجرات / ١٢، روى ابن حسين أن صفية أم المؤمنين رضى الله عنها أخبرته: أن النبى ﷺ كان معتكفا فى المسجد قالت: فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معى فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال: إنها صفية بنت حيى فقالا: يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرا، فقال: « **إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من الجسد، وإنى خشيت أن يدخل عليكما** » متفق عليه.

٢- تطهير القلوب من الذنوب

١ـ يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ الأعراف/ ٢٠١، ... وما ذلك إلا حينما عمرت القلوب بالتقوى، فسد هذه المداخل لا يتم إلا بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة فلا يكون للشيطان فى القلوب استقرار، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى، وحقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارته بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان.

٢ـ يقول تعالى: ﴿.. **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ النحل / ٩٨، والنداء هنا لقلوب المتقين الخالية من الهوى و الصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن ذكر الله، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان.

٣ـ يقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ ق / ٣٧، ويقول النبى ﷺ: « **ما سلك عمر فجا إلا وسلك الشيطان فجا غير الذى سلكه عمر** »، ذلك لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهى الشهوات، فإذا أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى



ثم أردفه بدوام الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضي الله عنه.

٤ـ وقد يسأل سائل: ما بالنا نذكر الله ولا يهرب الشيطان؟! هذا كما فى قوله تعالى: ﴿ ... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... ﴾ غافر / ٦٠ ، .. وأنت تدعوه ولا يستجيب لك.. فكذلك نذكر الله ولا يهرب الشيطان منا لفقد شروط الذكر والدعاء، قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ .

وقد قال الله تعالى: ﴿ ... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... ﴾.

قال: لأن قلوبكم ميتة، قيل وما الذى أماتها؟ قال: ثمان خصال:

١ـ عرفتم الله ولم تقوموا بحقه.

٢ـ وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده.

٣ـ وقلتم بحب رسول الله ﷺ ولم تعملوا بسنته.

٤ـ وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له.

٥ـ وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... ﴾ فاطر / ٦ ، فواطأتموه على المعاصى.

٦ـ وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها.

٧ـ وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها.

٨ـ وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم. فكيف يستجيب لكم؟!!

وعن أبى ثعلبة الخشنى وقال صحيح الإسناد قول النبى ﷺ: « **خلق الله الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم كما قال تعالى: ﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ... ﴾ الأعراف / ١٧٩ ، وصنف: أجسامهم أجسام بنى آدم وأرواحهم الشياطين، وصنف: فى ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله** ».

٣ـ وساوس القلوب
ما تؤاخذ به وما لا تؤاخذ به

أولاً: العفو عن عمل القلب:

فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: « **عفى عن أمتى ما حدثت به نفوسها مالم تتكلم به أو تعمل به** » متفق عليه من حديث أبى هريرة: « **إن الله تجاوز لأمتى**

عما حدثت به أنفسها». وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: « **إن الله تعالى يقول للحفظة إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً** » رواه مسلم.
فدل ذلك عن العفو عن عمل القلب أو بمعنى آخر لا يؤاخذ القلب إلابالعمل.

ثانياً : ما يؤاخذ به القلب :

وهو ما يدل على أن عمل القلب كعمل اللسان والبصر فلا يعفى عنه والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ ... وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ... ﴾ البقرة / ٢٨٤ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ الإسراء / ٣٦ ، قوله تعالى: ﴿ ... وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ... ﴾ البقرة / ٢٨٣ ، وقوله تعالى: ﴿ **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾ البقرة / ٢٢٥ .

ثالثاً : الحق فى هذه المسألة :

وهو ما فصّله الإمام الغزالى فى الإحياء من أن الأمر لا ينظر إليه بالعفو أو المؤاخذة وإنما عمل القلب مراحل ولكل مرحلة طبيعتها وعملها وبالتالى يكون الحكم عليها بالعفو أو المؤاخذة فقال: (أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الميل و هيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضاً تحت الاختيار وهما المرادان بقوله : « **عفى عن أمتى ما حدثت به نفوسها** » فحديث النفس عبارة عن الخواطر التى تهجس فى النفس ولا يتبعها عزم على الفعل، أما الثالث وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغى أن يفعل ذلك فهو قسمان: اختيارى و مؤاخذ به واضطرارى ولا يؤاخذ به، والرابع: وهو الهم بالفعل فإنه مؤاخذ به، فإن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى و ندماً كتبت له حسنة وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفاً من الله كتبت عليه سيئة لأن همه فعل من القلب اختيارى) ثم يقول الإمام الغزالى: (فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس وكل من يظن أن كل ما يجرى على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام فلابد وأن يغلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب).

٤- فقه القلب فى قطع الوسوسة

يقول تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ الإسراء / ٣٦ ، قد اتفق فقهاء القلوب أن المسؤلية هنا أى ما يدخل تحت الإختيار، فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذى محرم لم يؤاخذ به، فإن أتبعها نظرة ثانية، كان مؤاخذاً به لأنه مختار.

كذلك خواطر القلب، بل القلب أولى بمؤاخذته، لأنه الأصل فقد أشار النبى ﷺ إلى القلب، وقال : « **التقوى ههنا وأشار الى القلب** » رواه مسلم، وقال الله تعالى: ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ...﴾ الحج / ٣٧ ، وعن أبى ثعلبة فيما رواه الطبرانى وأحمد قول النبى ﷺ: « **البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك** ».

وإذا اتفقنا على ذلك فهيا معى أخى القارئ نبحث عن إجابة لهذا التساؤل : **ما فقه القلب فى قطع الوسوسة**؟.

❤ هل تنقطع الوسوسة بذكر الله، لحديث أنس المروى عن ابن أبى الدنيا : « **فإذا ذكر الله خنس** »، و المعنى كأنه يسكت فالخنس هو السكوت؟!.

❤ هل تنقطع الوسوسة فى حال الذكر فقط ثم تعود إذا انعدم الذكر؟

❤ هل الوسوسة لا تنقطع أبداً حتى مع الذكر، فالقلب مجرى للأمرين معاً، كما قال المحاسبى؟ .

❤ هل أصل الوسوسة موجود ولكن أثره هو الذى يقوى أو يضعف كما قال بعض المراقبين للقلوب و أحوالها؟.

وربما يكون هذا الدليل مرشداً فى الإجابة عن تساؤلنا:
ما فقه القلب فى قطع الوسوسة؟ .

وسوسة التلبيس	وسوسة الشهوة	وسوسة الخاطر
١- تلبيس المعصية : يقول للإنسان تترك التنعم باللذات وإلى متى تصبر عن الشهوات	**١- العلم اليقين بأنها معصية** : إذا قام الشيطان بتحريك الشهوة	وتلك بتذكر الأحوال الغالية والتفكر فى غير العبادة فإذا أقبل على العبادة تصور أنه يندفع

وسوسة التلبيس	وسوسة الشهوة	وسوسة الخاطر
فألم ذلك عظيم مع العمر الطويل ، فإذا قال الإنسان لنفسه هذه الأقوال انقطع عنه وسواسه : ● الصبر عن الشهوات شديد ولكن عذاب النار أشد ولكن عذاب النار أشد ولابد من أحدهما . ● فكيف يقول له الشيطان إن النار أيسر من الصبر عن الشهوات ؟! **٢ـ وسوسة العجب :** العجب بالعمل تلبيس عليه بقوله : أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده . ● فيقول له : إنما ذلك كله من الله وخلقه فمن أين يعجب ؟ . فيخنس الشيطان ولا يستطيع أن يقول له بحال : إنما ذلك ليس من الله ! فالمعرفة والإيمان يدفعان الوسوسة فتنقطع بالكلية .	وعلم القلب يقيناً بأنها معصية خنس الشيطان عن تهيج يحرك الشهوة وليس عن التهيج نفسه . **٢ـ العلم الظني بأنها معصية :** هنا يبقى الأثر بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فالوسوسة موجودة ولكنها ضعيفة مدفوعة واهنة غير غالبة .	ساعة ويعود ويندفع ويعود ويندفع ويعود فيتعاقب الذكر والوسوسة ، فلا يدفع الوسوسة بالكلية وليس ذلك بالمحال . ● فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمراً طويلا بعيداً جداً ومحال في الوجود ، ولو تخلص أحد من الوسوسة لتخلص رسول الله ﷺ وكما أنه ﷺ رمى بالثوب الذي به علم لما شغله عن الصلاة ، وخلع الخاتم الذي شغله بالنظر إليه وهو على المنبر ، كذلك عرض الدنيا بالمفارقة والرمي ، فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان .

وجملة ذلك ما قاله حكيم من الحكماء: (الشيطان يأتى ابن آدم من قبل المعاصى، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه فى بدعة فإن أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام فإن أبى شككه فى وضوئه وصلاته حتى يخرجه من العلم فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً عفيفا فتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه ، به يهلكه وعند ذلك تشتد الحاجة فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة).

❤ ❤ ❤



ثانيا - إنما الطب طب القلوب

١- من أين المرض؟

لقد خلق الله تعالى القلوب من أجل غاية محددة، خلقت لأجلها، وهى العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثار ذلك كله على كل شهوة سوى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات / ٥٦ . ولو عرف الإنسان كل شئ ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً، وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه، وعلامة المحبة ألا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة / ٢٤ .

فمنشأ المرض فى القلب، حينما يكون شئ عنده أحب من الله، وبهذا فالقلوب كلها مريضة إلا ما شاء، وخطورة الأمر تكمن فى أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء الماهرون الفقهاء بالقلوب، وأسفنا أن هذا العلم قد اندرس وأنكر الكثيرون (طب القلوب) بل وأنكر آخرون (أمراض القلوب).

٢- كيف العلاج؟

ومما يسهل علاج مرض القلب أن يعرف العبد عيوب نفسه، فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، ومن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، ولكن أكثر الناس لا يفقهون ذلك فيرى أحدهم القذف فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه.

لقد رسم أطباء القلوب أربعة طرق بها يعرف العبدعيوب نفسه:



الأول : شيخ بصير :

بصيرته فى معرفة عيوب النفس، يجلس العبد بين يديه (جلسة التلميذ بين يدى أستاذه) ويتبع إشارته فى مجاهدته، فيطلعه على خفايا الآفات ويعرفه عيوبه وطريق علاجها، وقد عز فى هذا الزمان وجوده.

الثانى : صديق صدوق :

فيجعله رقيباً على نفسه، ليلاحظ أحواله وأفعاله، كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدى إلى عيوبى، وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له: ما الذى بلغك عنى مما تكرهه فأستعفى.. فألح عليه، فقال: بلغنى أنك جمعت بين إدامين على مائدة وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل، قال: وهل بلغك غير هذا؟ قال: لا، فقال: أما هذان فقد كفيتهما. وكان يسأل حذيفة ويقول له: أنت صاحب سر رسول الله ﷺ فى المنافقين فهل ترى على شيئاً من آثار النفاق. وقد اعتزل داود الناس فقيل له: لم لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى.

الثالث : عدو لدود :

فيستفيد من لسانه، لأن عين السخط تبدى المساويا، ولعل انتفاع الإنسان بعدو شاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويخفى عنه عيوبه.

الرابع : مخالطة الناس :

ومن خلال هذه المخالطة كل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، قيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ قال: ما أدبنى أحد، رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته. ولقد أفصح أحد العارفين بسر نجاحه فى مخالطة الناس لأعوام كثيرة بقوله: كنت مع الناس على نفسى.

٣- وسائل العلاجات فى ترك الشهوات :

بعد أن تأملنا بعين الاعتبار أن علل القلوب وأمراضها داء قد يخفى عن الكثير، وأن دواءها العلم واليقين والإيمان والتصديق بالتنفيذ، فكان لزاماً علينا أن نعرف الوسيلة التى بها يتم العلاج، وقد أجمع أطباء القلوب أنها فى ترك الشهوات، يقول تعالى: ﴿... أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ...﴾



الحجرات / ٣ ، قيل: نزع منها محبة الشهوات.

وقال جعفر بن حميد: أجمعت العلماء و الحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم، قال أبو يحيى الوراق: من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجر الندامات، ولا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت فى المحظورات فإن الذى يشتهى به الحلال هو بعينه الذى يشتهى الحرام فالشهوة واحدة، وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعودها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته وربما جرت وراءها آفات عظيمة أعظم من هذه، وهو أن النفس تفرح بالتنعم فى الدنيا وتركن إليهاوتطمئن إليها، وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل، يسرى فى العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة وهذا هو موت القلب يقول تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ..﴾ الحديد / ٢٠ .

فأولوا الحزم من أرباب القلوب علموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب وهو نوع عذاب، فمن نوقش الحساب عذب، فخلصوا أنفسهم من عذابها، وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم فى الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها، والأنس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته.

❤ ❤ ❤

ثالثا: أمراض القلب وعلاجها

١ـ غيبة القلب

١ـ معنى غيبة القلب :

* يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ..﴾ الحجرات / ١٢ ، والظن هنا عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، وهو حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأحد والمحرم هنا حكم القلب وظنه، ولكن الخواطر وحديث النفس والشك كل ذلك معفو عنه.

وسبب تحريم غيبة القلب أن أسرار القلب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته ، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع فى قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك فينبغى أن تكذبه فإنه أفسق الفساق لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ... ﴾ الحجرات / ٦ ، فلا يجوز تصديق إبليس بحال من الأحوال .

٢ـ علامات مرض غيبة القلب :

من العلامات الواضحة لوجود مرض الغيبة فى قلبك ، أن يتغير القلب مع أخيك عما كان فينفر عنه نفورا ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه ، وجملة ذلك أن يتغير القلب إلى الكراهة والنفرة ،ومن أخطر ما فى هذه العلامات أن لا يشعر بها صاحبها بتلبيس من إبليس ، حيث يقرر على القلب أن مساءة الناس من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته.

٣ـ علاج (غيبة القلب) .

لم يكترث كثير من الناس لهذا المرض ، ونتيجة لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ، وتناولو أعراض الناس ، ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم

فعلى الوجه العام ينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك عنه بالمراعاة والدعاء.

أما على وجه الخصوص فعليك بالتالى :

❤ إذا عرفت هفوة مسلم بحجة ودليل وعن برهان فانصحه فى السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه .

❤ إذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستحقار وتترفع عليه بإبداء الوعظ .

❤ وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان فى دينك ، وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر المشاركة فى مصيبته وأجر الإعانة له على دينه.

❤ وإياك أن تتأخر عن العلاج فمن المراحل المتأخرة لغيبة القلب أن لا يقنع القلب بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وقد نهى الله فى كتابه عن التجسس ، ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه .

٢-غضب القلب

١ـ معنى غضب القلب :

* الغضب فى العموم هو شعلة نار مستكنة فى طى القلب ،استكنان الجمر تحت الرماد ،ومن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال : ﴿ ... خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ الأعراف / ١٢ ، فإن شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظى والاستعار ، والحركة والاضطراب .. ولذلك وجب على كل مؤمن أن يحذر ذلك ويتقيه ويميطه عن قلبه وينفيه ، ويعالجه إن رسخ ويداويه ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه.

وقوة الغضب محلها القلب ومعناها :غليان دم القلب بطلب الانتقام ، وتتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفى



والانتقام بعد وقوعها، والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن إلا به.

٢ـ درجات غضب القلب :

❤ **الحمية** : وذلك بفقد قوة الغضب أو ضعفها وهذا مذموم،فإن الله عز وجل وصف أصحابه ﷺ بالشدة والحمية فقال : ﴿ ... **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ...﴾ الفتح / ٢٩ ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿ ... **جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ...﴾ التحريم ٩/ ، والغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب.

❤ **التهور** : وهو الإفراط فى قوة الغضب حتى تخرج صاحبها عن سياسة العقل والدين والطاعة ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير فى صورة المضطر وهنالك تشتد قوة الغضب وتتأجج نيرانها فإذا وصلت إلى هذا الحد أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضباً على غضب .

❤ **الاعتدال** : هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده،وهو الوسط الذى وصفه رسول الله ﷺ حيث قال : « **خير الأمور أوساطها** » رواه البيهقى فى شعب الإيمان، وهذا هو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة، وأحدمن السيف، فإن عجز أحد عنه فليطلب القرب منه.

ومن أحسن ما قيل فى ذلك موعظة الملك لذى القرنين حينما سـألـه : علمنى علما أزداد به إيماناً ويقينا، قال: لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم مسكنته بالتؤدة ، وإياك والعجلة فإنك إذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلا لينا للقريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً .

٣ـ علاج غضب القلب

أولاً : أن يكون الغضب لله :

وهذا ما كان عليه حال المصطفى ﷺ فإنه كان « **يغضب حتى تحمر وجنتاه** » فيما أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه «**كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه**» وكان خلقه ﷺ كما روى الحاكم : «كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه » حتى قال ﷺ : « **اللهم أنا بشر يغضب كما يغضب البشر فأيما مسلم سببته أو لعنته أو ضربته فاجعلها منى صلاة وزكاة وقربة**

تقربه بها إليك يوم القيامة » متفق غليه ، وحينما سأله عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : يا رسول الله اكتب عنك كل ما قلت فى الغضب والرضى فقال:

« **اكتب فوالذى بعثنى بالحق نبياً ما يخرج منه إلا حق وأشار إلى لسانه**» أبو داود فلم يقل ﷺ (إنى أغضب) ولكن قال:

« **إن الغضب لا يخرجنى عن الحق** » أى لا أعمل بموجب الغضب، وغضبت عائشة رضى الله عنها مرة فقال لها رسول الله ﷺ : « **مالك جاءك شيطانك** » ، فقالت ومالك شيطان، قال: « **بلى ولكنى دعوت الله فأعاننى عليه فأسلم فلم يأمرنى إلا بالخير**» رواه مسلم.

وجملة الأمر كما ورد فى الشمائل حديث على كرم الله وجهه:كان رسول الله ﷺ لا يغضب للدنيا فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شئ حتى ينصر له.

فإن كان الغضب لله محدوداً بالحق ليس لدنيا،فهذا حد الاعتدال ودرجة الصراط المستقيم،لا تعمل به إلا قلوب نقية.

ثانياً : استغراق القلب بمهمات عظام :

قيل: إن كان القلب مشغولاً بضرورى أهم منه فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإن استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه.

وهذا ما يفسر سر قول سلمان لما شتم: (إن خفت موازينى فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازينى لم يضرنى ما تقول) فقد كان همه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم وكذلك شتم الربيع بن حيثم فقال: يا هذا قد سمع اللّه كلامك وإن دون الجنة عقبة ، وإن قطعتها لم يضرنى ما تقول وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول ، وسب رجل أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: (ما ستر اللّه عنك أكثر) فكأنه كان مشغولاً بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى اللّه حق تقاته ويعرفه حق معرفته فلم يغضًبه أن ينسبه غيره إلى تقصير إذا كان هو ينظر بعين النقصان إلى نفسه وقالت امرأة لمالك بن دينار : يا مرائى.. فقال : (ما عرفنى غيرك)، فكأنه كان مشغولاً بأن ينفى عن نفسه آفة الرياء ومنكراً على نفسه ما يلقيه الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه.



وسب رجل الشعبى فقال : (إن كنت صادقاً يغفر الله لى وإن كنت كاذباً غفر الله لك).. فكل ذلك يدل أنهم لم يغضبوا لانشغال قلوبهم بمهمات عظام .. وليس معنى ذلك أنهم لم يتأثرو بغضب قط ، وإنما قد يكون له أثر فى قلوبهم ولكن لانشغالهم بما هو أغلب فى قلوبهم جعلهم لا ينشغلون به ، فإن اشتغال القلب بمهمات ليس معناه أن يبعد هيجان الغضب ، ولكن يجعل أثره هينا ضعيفاً هشا ، وتخمد نيرانه ولا يتقد بركانه .

ثالثاً : أدوية عملية :

❤ يقتدى بدواء النبى ﷺ الذى أمر بقوله عند الغيظ ، فيقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فعن سليمان كنت جالساً مع النبى ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه..وفيه ، لو قال:

« **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد** » متفق عليه .

وكان ﷺ إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال : يا عويش قولى :

« **اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى . وأجرنى من مضلات الفتن** » ابن السنى فى اليوم والليلة.

❤ إن لم يزل الغضب عن القلب فاجلس إن كنت قائماً ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقرب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك ، وكل ذلك طالباً السكون فإن سبب الغضب الحرارة وسببها الحركة فقد قال ﷺ :

« **الغضب جمرة توقد فى القلب** » البيهقى فى الشعب .

❤ فإن لم يزل فأسرع إلى الوضوء لقول النبى ﷺ عن عطية السعدى :

«**إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار**» أبو داود .

وروى أن عمر غضب يوماً فدعا بماء فاستنشق وقال إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب .

❤ فإن لم يزل فعليك بقلبك ، تفتش فيه من جديد، فهو ما زال بالدنيا مشغولاً ، وعن المهام العظام لا يهتم وعن ربه شارداً ، وعن الحق نائياً ، فأوقظه حتى يصحو من غفوته ، وينطلق من غفلته ، فتخمد فيه جمرة الغضب ، ولا يرى لها ناراً ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال النبى ﷺ :

«**ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم** ».



٣ـ حسد القلب

١ـ معنى حسد القلب :

قال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقي ، حتى قال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً ، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً ، ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا ، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا.

وحقيقة الحسد فى النعمة ، فإذا أنعم الله على أحد بنعمة فللإنسان فيها حالتان :

إحداهما : أن يكره تلك النعمة ويحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسداً ، فالحسد حدة كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه.

الحالة الثانية : أن لا يحب زوالها ولا يكره وجودها ودوامها ولكن يشتهي لنفسه مثلها وهذه تسمى غبطة وقد تسمى منافسة والأولى حرام والثانية ليست بحرام .

والحسد صفة القلب لا صفة الفعل يقول تعالى :﴿ ... **وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا...** ﴾ الحشر / ٩ ، ويقول تعالى : ﴿ ... **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً...** ﴾ النساء / ٨٩ ، ويقول تعالى:﴿ **إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ...** ﴾ التوبة / ٥٠ ، أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد بل محل الحسد القلب دون الجوارح وهو معصية بين الحاسد وبين الله تعالى ، وقد ذهب ذاهبون إلي أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على الجوارح ، لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال: غمه فإنه لا يضرك ما لم تبده. وقد اتفق فقهاء القلوب على أن كل حاسد آثم ، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال ، فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد.

أما كونه حسد القلب فهو آثم ، فهذا محل الاجتهاد والاختلاف وإن كان لا يخلو من إثم بقدر قوته وضعفه.

٢ـ علاج حسد القلب :

الحسد كمرض من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تداوى الأمراض العضال



إلا بالعلم والعمل معاً ، وأدوية الحسد وهى نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً ، ولكن النفع فى الدواء المر ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء ، وهذا تفصيل لأدوية الحسد.

أولاً : أدوية العلم النافع :

الحاسد :

١ـ أن يعرف أنه بالحسد يسخط من قضاء الله ويستنكر ويستبشع ما قسمه الله من نعم وعدل أقامه بخفى حكمته ، وهذا ينافى عقيدة التوحيد .

٢ـ أن يعرف أنه بالحسد يغش رجلاً مؤمناً ويترك نصيحته ويشارك إبليس والكفار فى حبهم أن تنزل البلايا على المؤمنين.

٣ـ أن يعرف أن كل ذلك خبائث فى القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب وتمحها كما يمحو الليل النهار .

٤ـ أن يعرف أنه بالحسد يعيش فى غم وألم لنعم الله على المحسود أو انصراف البلايا عنه وهذا عيش فى الدنيا كله عذاب وضرر ، ناهيك عن عذاب الآخرة.

٥ـ أن يعلم أنه لا ضرر على المحسود ، لأن النعمة لا تزول عنه بحسده ، ولكل أجل كتاب.

٦ـ أن يعلم أنه يهدى إلى المحسود حسنات يوم القيامة ، إذ أخرجه الحسد إلى الغيبة والكذب والقدح فيه.

ثانياً : أدوية العمل النافع :

أن يكلف نفسه نقيض ما يأمره به سبب الحسد فى القلب وفق الجدول التالى :

السبب	الدواء
١ـ القدح فى المحسود .	يكلف لسانه المدح له والثناء عليه .
٢ـ التكبر على المحسود .	يكلف نفسه التواضع له والاعتذار إليه .
٣ـ كف الإنعام عليه .	يكلف نفسه الزيادة فى الإنعام .
٤ـ معاداة المحسود .	يكلف نفسه بمصادقته وإظهار الحب .
٥ـ مزاحمة المحسود .	يكلف نفسه ترك الساحة له تماماً .

ومهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً طبعاً آخراً ولا يصدنه عن ذلك خدع الشيطان ، فتعود القلوب إلى التآلف والتحاب وتستريح من ألم الحسد وغمه.

٤- دنيا القلب

١- حقيقة الدنيا :

❤ روى الحاكم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ مر على شاة ميتة فقال : « **أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟** » قالوا من هوانها ألقوها قال : « **والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء** ». وعن أبى هريرة قول النبى ﷺ : « **الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر** » رواه مسلم ، وعن أبى هريرة أيضاً قول النبى ﷺ : « **الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها** » رواه ابن ماجه.

❤ ولم يكن هذا التحذير إلا لينتبه المسلمون إلى العمل لقول النبى ﷺ : « **إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون** » متفق عليه.

وفيما رواه مسلم عن عبد الله بن الشخير دعوة النبى ﷺ إلى هذه الحقيقة فى قوله تعالى : ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ﴾ التكاثر / ١ ، « **يقول ابن آدم مالى .. مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت** ».

❤ ويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله. كيف يفتضح غداً بذنبه؟! عن عمرو بن عوف البدرى قال : أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ

حين رآهم ثم قال : « **أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشئ** » قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : « **فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم** » متفق عليه.

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض** » ، فقيل : ما بركات الأرض ؟ قال : « **زهرة الدنيا** » متفق عليه .

❤ وما كانت الدنيا التى يحزن من أجلها رسول الله ﷺ ؟: يقول أنس:كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق فجاء أعرابى بناقة له فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال النبى ﷺ : « **إنه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه** » البخارى ، وكان كثيراً ما يخرج على أصحابه كما روى أبو الدرداء رضي الله عنه بهذا القول للرسول ﷺ :« **لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة** » الطبرانى .

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا
وما أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما
استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وما أبلغ قول الحسن رحمه الله : من نافسك فى دينك فنافسه ، ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره ، وقيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت؟ فقال:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه
وجاد بدنياه لما يتوقع

يقول ابن عباس : إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر ، فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع.

٢ـ معنى دنيا القلب

فى الأصل محل الدنيا القلب حباً وإيثاراً ، ولذلك عندما حذر عليه السلام حذر من أصلها فقال : (لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن كما لا



يستقيم الماء والنار فى إناء واحد) .

يقول أبو سليمان الدارانى : إذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها ، فإذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة.

ولعل فى قول أبى سليمان الدارانى نوع من التشديد والتقريع لهؤلاء الذين ولغت قلوبهم بحب الدنيا وإيثارها ، ولكن سيار بن الحكم كان له تصور ربما يكون أصح معنى إذ قال : الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له.، ويفسر ذلك مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك، ولذلك كان من منهج سفيان قوله : خذ من الدنيا لبدنك ، وخذ من الآخرة لقلبك.

فالأصل أن ينشغل القلب بالآخرة كما كان يوصى بذلك أبو سليمان قائلاً: لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة.

وعن شغل القلب قال أبو حازم : يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة ، ويحذر وهب بن منبه بقوله: من فرح قلبه بشئ من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ، ولذلك عندما سئل حكيم : لمن الدنيا ؟ قال : لمن تركها ، ولمن الآخرة؟ قال : لمن طلبها .

نعم هؤلاء الذين نظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم ، ولما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم تعبوا قليلاً وتنعموا طويلاً.

٣ـ العلاج .

إذا عرفت أين الدنيا فى منظومة كون الله تعالى ، وموقعها من الذم أو المدح ، وكيف تتحول إلى مزرعة للآخرة ، ولماذا جعلك الله فيها ؟، عرفت حينئذ فن التعامل معها فالناس جميعاً يخرجون منها ، أما المؤمن الذى صنع موتته بالشهادة فى سبيل الله يتمنى أن يعود إليها المرة تلو المرة ، وهذا ماتمناه أبو جابر فيما رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال : لما قتل أبى يوم أحد ، قال لى رسول الله : « **يا جابر ، ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك** » ؟ .

قلت : بلى! .

قال: « **ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب ، وكلم أباك كفاحاً ، فقال** : يا



عبدى تمن على أعطك » . قال : يا رب تحيينى فأقتل فيك ثانية قال : « **إنه سبق منى أنهم إليها لا يرجعون** » . قال : يا رب أبلغ من ورائى .

فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ آل عمران / ١٦٩ » .

ووفق هذا فالقلب حياته قبل الموت هى الدنيا أما بعد الموت فهى الآخرة ، والدنيا فى عالم القلوب ثلاثة :

الأول : دنيا صالحة :

ملخصها ما كان معك فى الآخرة وله ثمرة بعد الموت كالعلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وشريعته والعمل بمعنى العبادة الخالصة لوجه الله تعالى ، ففيما رواه النسائى عن أنس قول النبى ﷺ : « **حببت إلىّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة** » . حتى بلغ القول بأحدهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل ، وكان آخر يقول : اللهم ارزقنى قوة الصلاة والركوع والسجود فى القبر . فهذا كله ليس من الدنيا المذمومة (إنما هو الدنيا الصالحة) .

ثانياً : الدنيا المذمومة :

ملخصها ما كان فيه حظ فى الدنيا ولا ثمرة له فى الآخرة ، كالتلذذ بالمعاصى ، والتنعم بالمباحات الزائدة التى تدعو صاحبها إلى الرعونات والرفاهية .

ثالثاً : الدنيا مزرعة الآخرة :

هذه التى يكون فيها العبد إما من أبناء الدنيا حينما يعمل فى الدنيا للدنيا بحرام يبعده عن الآخرة أو حلال يبعده عن الدرجات العلا ويعرضه للحساب « **ومن نوقش الحساب عذب** » وإما من أبناء الآخرة حينما يعمل فى الدنيا للآخرة فيحذر من نعيمها ، ويصبر على محنها كالأنبياء والأمثل فالأمثل ، ويبعد عن مجامع الهوى منها قال تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ** ... ﴾ آل عمران / ١٤ ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، لا يحققها القلب إلا حينما يأخذ القليل من حظ عاجل فى الدنيا ليعينه على الآخرة .

ووفق هذا فالدنيا لها علاقة بالقلب وأخرى بالبدن فإن انشغل القلب بها

أصبح عبداً لها ومحباً مستهتراً ، فيكون باطنه معلقاً بها فى صفات الكبر والعجب والغرور والغل والحسد والتفاخر ، فى الوقت الذى يتعلق ظاهر القلب بها بمتاعها ومجامع الهوى .

أما البدن فهو ينفذ ذلك فإما أن يتمتع بزينتها ومتاعها فينسى الآخرة ، وإما أن يتقوى بحظ قليل على الطاعة فيتذكر الآخرة ، ويتحقق المعنى فى أن الدنيا مزرعة الآخرة .

٥-جاه القلب

❤ معنى جاه القلب

يالـه من مغبون يظن أن حياته بالله وفى حقيقتها هى بشهوة خفية لا يدركها ، ويظن أنه مخلص فى طاعة ربه والنفس قد أبطنت هذه الشهوة يتحرك بها قلبه تصنعاً للناس وزينة ، وفرحاً بمدحهم ، ولو بحث هذا المسكين لرأى اسمه فى صحيفة المرضى ، واقع فى مكيدة لئيمة ، ومهواة عظيمة ، صنعها قلبه ، ولا يسلم من ذلك إلا المقربون .

كان إبراهيم ابن أدهم يرسلها رسالة من بعيد فيقول رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة ، فالحركة فى حقيقتها : قلب مع قلوب ، كما بين الحسن فى قوله : إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى ، وقد خرج ذات يوم فاتبعه قوم فقال هل لكم من حاجة وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن ، وخرج أيوب فى سفر فشيعه ناس كثيرون ، فقال : لولا أنى أعلم أن الله يعلم من قلبى أنى لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل .

فما علاقة هذه الوجاهات بالقلب ؟!! .

قيل : معنى الجاه ، قيام المنزلة فى قلوب الناس أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه ، فبقدر ما يعتقدون من كمال تذعن لـه قلوبهم ، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب ، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه ، وهذا معنى جاه القلب ومن ثمراته المدح والإطراء .

وقيل : إن إذعان القلوب بحسب اعتقادها ، وعليه فانقياد القلب حال ، وأحوال القلوب تابعة لاعتقاداتها ، ولا تتحقق آثار الجاه فى الواقع ، إلا إذا اشتمل القلب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص ، إما بعلم أو حسن

خلق ، أو نسب ، أو سلطة ، أو جمال ، أو قوة ، أو شئ مما يعتقده الناس كمالاً ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله فى القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه . وحب الجاه أيسر من حب المال ، لأنه سبب للمال ، والمال معرض للتلف أما الجاه فخزانته القلب يدوم ، بل يتنامى بدون تعب ، فطبيعة القلب إذا أذعن واعتقد أفصح لسانه عما فيه .

أما منشأ الجاه ، فإنه يبدأ بتسخير القلوب له ، مما يدل على قدرته واستيلائه عليها ، الذى هو الكمال الذى تنشده القلوب المريضة بالجاه.

❤ علاج جاه القلب

١ـ أعراض هذا المرض تظهر للعيان ، فمن غلب على قلبه حب الجاه ، صار همه منصرفاً إلى الناس ،مشغوفاً بالتودد إليهم ، ومراءاتهم فى القول والفعل ، مهتماً بكل ما يعلى من شأنه عند الناس ، وهذا يجر لا محاله إلى التساهل فى العبادات وإلى اقتحام المحظورات ، من أجل أن يحقق غرضه من اقتناص القلوب وملكها ، مما يضطره إلى النفاق والتظاهر بالأخلاق الحميدة .

٢ـ إذن فمن يفكر فى علاجه ، يوجه الدواء أولاً إلى القلب ، فمادة الجاه فيه ، فيعمل على إزالتها عن القلب المطبوع بحب الجاه ، وذلك عن طريق وسيلتين :

الأولى :علمه بأن آخر كل شئ الموت : فسبب الجاه هو الهيمنة على قلوب الناس ، وهو ليس من الباقيات الصالحات .

وهذا من علاجات الحسن البصرى حين كتب عمر بن عبد العزيز ..أما بعد ، فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات ، وحين كتب عمر بن عبد العزيز جوابه : أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل ، وهكذا لما علموا «أن العاقبة للتقوى» استحقروا الجاه والمال فى الدنيا ، يقول تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ  وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ القيامة / ٢٠ : ٢١ .

الثانية : يسقط الجاه عن قلوب الناس :

بأن يباشر أفعالاً يلام عليها حتى يسقط من عين الناس ، وتفارقه لذة القبول منهم ، ويقنع بلذة القبول من الخالق .

ولكن هناك ضوابط حول هذا الدواء منها :

١ـ أنه غير جائز لمن يقتدى به الناس فإنه يوهن الدين فى قلوب الناس .

٢ـ على المنفذ االذى لا يقتدى به ، ألا يقدم على محظور لأجل ذلك .

الثالثة : لا يطمع فيما عند الناس :

قال أطباء القلوب : إن قطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلهم عنده سواء ، فلا يبالى أكان له منزلة فى قلوبهم أم لا يكن ، كما لا يبالى بما فى قلوب الناس قربوا منه أو بعدوا ، ولا يتحقق ذلك إلا بالقناعة ، فمن قنع استغنى عن الناس ، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ، ولم يكن لقيام منزلته فى االقلوب عنده وزن ، وكما قيل : لا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وأن تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس وفرحك به ، يسقط منزلة عند الله فكيف تفرح به ؟ .

٦-بخل القلب

١ـ معنى بخل القلب .

❤ قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ المنافقون / ٩ ، وقال تعالى :﴿ ... أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال / ٢٨ ، وقال رسول الله ﷺ : « **يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت** » رواه مسلم .

وأخطر ما فى المال أن يلهى صاحبه عن ذكر الله ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه السلام : فى المال ثلاث آفات أن يأخذه من غير حله ، فقيل : إن أخذه من حله ؟ فقال : يضعه فى غير حقه ، فقيل : إن وضعه فى حقه ؟ فقال : يشغله إصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكر فى جلاله وذلك يستدعى قلباً فارغاً .

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله
مخافة الفقر فمالذى فعل الفقر

● لقد دخل ابنا خالد على رسول الله ﷺ فقال لهما : « **لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى** » ابن ماجه وقال سفيان فى قوله تعالى : ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ... ﴾ الطلاق / ٢ : ٣ .



قال : بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه، فإن انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغى أن يضطرب قلبه لأجله فإن كان الله تكفل بالرزق فعلى العبد القناعة لقوله ﷺ عن أبى هريرة : « **إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه** » متفق عليه . وعماد القناعة الصبر وقصر الأمل وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل للتمتع دهراً طويلا فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه فى انتظار الشفاء .

❤ و كان بشر يقول : النظر إلى البخيل يقسى القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين وقال يحيى بن معاذ : ما فى القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجاراً ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبراراً .

وذلك لأن البخل سببه حب المال ولحب المال سببان :

الأول : حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل .

الثانى : حب المال نفسه فيكنزه وهو يعلم أنه مشرف على الموت ويحرم نفسه من التمتع به ، وهذا مرض القلب ، عسير العلاج ، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه .

٢ـ علاجه :

❤ ❤ يبدأ بمعالجة أسباب حب المال ، وكل علة بضد سببها :

❤ يعالج حب الشهوات: بالقناعة باليسير والصبر

❤ يعالج طول الأمل : بكثرة ذكر الموت والنظر فى موت الأقران ، وطول تعبهم فيجمع المال ثم ضياعه بعدهم .

❤ **يعالج التفات القلب إلى الولد :**

بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً ، وحاله أحسن ممن ورث .

❤ ❤ **ثم يعالج قلبه :**

❤ **يعالج قلبه** : بكثرة التأمل فى الأخبار الواردة فى ذم البخل ، ومدح السخاء ، وما توعد الله به على البخل من العقاب .

❤ **ويعالج قلبه** : بالتفكر فى مقاصد المال ، وأن المال قد خلق من أجل أن يبذل فى الله ، فيدخره لنفسه فى الآخرة ولا يتوقف عن البذل فإن الشيطان



يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه .

❤ **ويعالج قلبه** : بمخالفته فى الملبس أو المطعم فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا ، وإلا أنس بالدنيا وأحبها ، فإن كان له ألف متاع كان له ألف محبوب .

٧ـ رياء القلب

❤ **معنى رياء القلب** :

يقول تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ الماعون: ٤ : ٦ ، قال ابن عمر رضى الله عنهما : قال النبى ﷺ : « **من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به** » متفق عليه ، وقال ﷺ عن محمود بن لبيد فيما أخرجه البيهقى فى الشعب : « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « **الرياء** ».

ويقول علىّ كرم الله وجهه : للمرائى ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان فى الناس ، ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم.

بل إن الفضيل بن عياض أضاف إلى المرائين صفة الخداع فى قوله : كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون ، هذا فى عصره ، فماذا لو رأى مرائى عصرنا وزماننا ؟!.

والحسن يدلنا على أن المرائى مفضوح مكشوف أمام قلوب المؤمنين ، فى قوله : المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى ، وهو رجل سوء ، يريد أن يقول الناس هو رجل صالح،وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء ،فلابد لقلوب المؤمنين أن تعرفه .

والرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس ، بإيرائهم خصال الخير ، وهو مخصوص بالعبادات وإظهارها ، فالمرائى عابد يرائى الناس بخصال يظهرها عن قصد .

وللرياء مراحل حتى يستبد بالقلب ، فهو فى الأصل مستكن فى القلب ، فيطلع عليه الناس ، فيفرح صاحبه ويسر ، فإن لم يقابل إطلاع الناس عليه بكراهية استشعر لذة الفرح والسرور ، ونسى المسكين أن فى ذلك غذاء خفى



لحظ خفى يحرك فى نفسه حركة خفية ، إما تظهر بقول أو تعريض أو تصريح ، وإما شعور فى قلبه بثقل ووجد عليه إن لم يعجب بها الناس ، وهذا هو الذى أخفى من دبيب النمل .

وما زالت القلوب المخلصة تخفى أعمالها مخافة الرياء الخفى ، ورجاء أن يجازيهم ربهم يوم العرض عليه خير الجزاء .

ولذلك فالسرور والفرح باطلاع الناس على العمل ليس كله مذموماً ، وإنما يكون مذموماً ، حينما يكون الفرح والسرور لقيام المنزلة فى قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويخدموه ويقابلوه بالإجلال والتكريم فهذا هو المكروه ، فإن كان بدء العمل الإخلاص ، وشعر صاحبه بفرح وسرور ولم يظهره لأحد فإن ذلك لا يفسد العمل ، أما إن أظهره إلى الناس ، وزاد شعوره بالفرح لاطلاع الناس عليه ، فهذا هو الرياء الذى يفسد عليه العمل .

❤❤ علاج رياء القلب :

الطريقة الأولى : قلع أصله :

١ـ أن يعلم الآتى :

❤❤ أن أصول رياء القلب حب المحمدة والجاه والطمع فيما فى أيدى الناس ، فعن أبى موسى رضي الله عنه قال : (أن أعرابياً سأل النبى ﷺ فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل حمية (معناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مغلوب) وقال والرجل يقاتل ليرى مكانه (وهذا طلب لذة الجاه والمنزلة فى قلوب الناس) والرجل يقاتل للذكر (وهذا هو حب المحمدة) فقال ﷺ :« **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** ») متفق عليه.

❤❤ أن يعلم ما فى الرياء من المضرة ، فيما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق وفى الآخرة من المنزلة عند الله ، وما يتعرض له من مقت شديد حيث ينادى على رءوس الخلائق يا فاجر يا غادر يا مرائى .

❤❤ أن يعلم أنه يتعرض له فى الدنيا مع الرياء ، تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك ، ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فاقته وهو يوم القيامة .

❤❤ أن يعلم أن الله هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله ، ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل

والخيبة ، وإن وصل إلى غايته لم يخل من المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد .

❤❤ أن يعلم أنه حينما يستحضر فى قلبه الآخرة ، فإن الدنيا تتضاءل وتصغر وتستحقر مع ما فيها يتعلق بالناس ، وإذا تم للقلب ذلك فإن كل همه يجتمع على الله ، وينصرف قلبه بالكلية إلى الله ، فيشع من إخلاصه نور ينشرح له صدره ، وتبتهج به نفسه ، وترتقى فيه روحه ، فيسقط عنه الرياء .

٢- أدوية عملية :

❤ **اتفق أطباء القلوب** : أنه لا دواء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق فى بداية المجاهدة وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك ، مع توفيق الله وتأييده ، فكما قيل : من العبد المجاهدة ومن الله الهداية ، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب ، ولذلك كان الدواء العملى فى إخفاء العبادات ، وكما تغلق الأبواب دون الفواحش ، فليغلق الأبواب دون العبادات ، حتى يقنع قلبه باطلاع الله على عباداته ولا تنازعه النفس إلى طلب غير الله تعالى .

الطريقة الثانية : دفعه فى الحال

خطرات الشيطان بإلقاء الرياء فى قلب العابدين لاتنقطع ، ونزعاته لا تتوقف ، ولذا وجب على العابدين أن يدفعوا هذه الخطرات العارضة ، وهى سلسلة محكمة يسلم بعضها إلى بعض ، والذى ينمى مراحلها هو العابد نفسه ، تبدأ باطلاع الناس على عبادته إما بعلمهم أو برغبته ، والعقلاء يدفعون هذا الخاطر بعلمهم أن الله أعلم وما تفيدهم معرفة الناس بعبادتهم ، ولكن البعض يقعون فريسة الشهوة التى تقوى رغبتهم فى مدح الناس لهم أو الحصول على المنزلة فى قلوبهم ، وياليتهم مفكرون فى مقت الله يوم القيامة لهذه الرغبة أو هذه الشهوة ، فلو أنهم كرهوا ذلك سدوا على الشيطان بابه ، ودفعوا خاطر الرياء أن يقوى ، لأنهم لو أهملوا ذلك جاءت المرحلة الثالثة جامحة بأن تتحول هذه الشهوة إلى عزم وتصميم وتحقيق للرياء ، فتحبط أعمالهم ولا يشعرون .. وهذه هى الطامة الكبرى والعلاج هنا يكون أكثر صعوبة إذ يحتاج إلى إباء نفس ، وموقف صارم ... ولكن هيهات فالقلب قد امتلأ بحب المحمدة واستولى عليه الحرص بحيث لا يكون هناك متسع إلا لغير

الله ، فيدفع القلب بذلك إلى تحقيق شهوة الرياء ، التى تدفع حلاوتها الزائفة نور المعرفة .

فإن اتبع العبد هذه العلاجات العملية ، وخاصة فى المرحلة الأولى ، قطع على الشيطان خواطره ، وهو منهج الصالحين ، فما أشد غيظ الشيطان حينما يخفى العبد عبادته ويخلص قلبه لربه فيطيعه ولا يشتغل إلا به ، يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له : إن فلانا يذكرك (يغتابك) فقال : والله لأغيظن من أمره ... قيل ومن أمره ؟ قال : الشيطان ... اللهم اغفر له (أى لأغيظنه بأن أطيع الله فيه)... وهنالك الشيطان يتوقف عن عمله خيفة أن يزيد من حسناته .

ولذلك كان يقول إبراهيم التيمى : إذا رآك الشيطان متردداً طمع فيك ، وإذا رآك مداوماً ملّك وقلاك (أى تركك لمداومتك على طاعة الله تعالى) .

وفى وصية لقمان لابنه : لا تُرى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر ، فالقلب القلب يا عباد ، حتى تنأوا عن أعمال المنافقين ، فإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع .

وهكذا تكون انتباهة القلب ، فيلزمه صاحبه خوف اطلاع غير الله عليه ليصح العمل ، ثم يلزمه ذلك بعد الفراغ من العمل حتى لا يظهره ولا يتحدث به ، وإذا فعل جميع ذلك فينبغى أن يكون وجلاً من عمله خائفاً أنه ربما داخله الرياء الخفى .

ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر فى قلبه أنه ليس فى الوجود أحد سوى الله ، فيعمل عمل لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله فلا يلتفت قلبه إلى الخلق وقد تعلق بالخالق ، ولا ينجيك من الرياء الخفى كذلك إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك..فهل أنت فاعل؟ .

٨ــ كبر القلب

❤❤ معنى كبر القلب :

يقول تعالى : ﴿ ... كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ غافر/ ٣٥ .

وقال رسول الله ﷺ :« **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من**

كبر ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان » رواه مسلم . عن ابن مسعود وعن ابن عمر رضى الله عنهما فيما رواه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان قول النبى ﷺ : «**من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه**» وكان محمد بن الحسين بن على يقول : ما دخل قلب امرئ شئ من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلّ أو كثر .

ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له : ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك ويحك داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم .

فالقلب فى الحقيقة هو وعاء الكبر أو التواضع وهذا يتجلى فى قول أبى سليمان رضي الله عنه : إن الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام .

❤❤ حقيقة الكبر :

ولكى نتعرف على حقيقة الكبر ، نتعرف أولا على حقيقته الظاهرة فى الأعمال والباطنة فى القلوب ، وإن أخطر الكبر فى الحقيقة كبر القلوب لا كبر الجوارح ، وقد فرق بعض العلماء بين الكبر والتكبر كالإمام أبى حامد الغزالى فأوضح أن الكبر ما كان فى القلوب ، فإن ظهرت ثماره على الجوارح كان تكبراً ، والكبر متكبراً عليه ومتكبراً به ومعنى ذلك فالمتكبر يرى نفسه فوق غيره فى صفات الكمال ، فإن رأى نفسه فقط لا يكون متكبراً ، وإن استحقر غيره ولم ير نفسه فوقه لا يكون متكبرا ، ومن ثم لا يحصل له فى قلبه هزة وفرح واعتداد ونفخة ولذلك كان من دعاء النبى ﷺ : « **أعوذ بك من نفخة الكبرياء** » وكان من قول عمر لهذا الذى استأذنه أن يحدث الناس عقب صلاة الفجر : أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا . ولذلك قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿... **إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ**...﴾ غافر / ٥٦ ، قال : عظمة لم يبلغوها ففسر الكبر بتلك العظمة . ولذلك أيضاً كان الذم الصريح من الله تعالى لهذه القلوب فى قوله تعالى : ﴿... **فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ** ﴾ النحل / ٢٢ ، ويقول تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**... ﴾ الأعراف / ١٤٦ ، قيل فى التفسير : سأرفع القرآن عن قلوبهم وقيل : سأحجب قلوبهم عن الملكوت وقال ابن

جريح : سأصرف عن قلوبهم أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها ، ولذلك قيل : الحكمة تعمل فى قلب المتواضع ولا تعمل فى قلب المتكبر ، وهذا سر حرمانهم من الحكمة وجحودهم الحق .

❤❤ **أنواع المتكبرين :**

النوع الأول :-متكبرون على الله رب العالمين :

رائدهم فى ذلك نمرود الذى حدث نفسه بأن يقاتل رب السماء ، وقائدهم فرعون الذى ادعى الربوبية فقال : أنا ربكم الأعلى ، ومصير هؤلاء فى قول الله تعالى : ﴿... **الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ غافر / ٦٠ .

النوع الثانى : متكبرون على رسل الله ودعاته :

فيترفعون عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس ، إما بصرف الفكر أصلا فيظن أنه على حق مع امتناعه عن أتباع الرسول ، وإما امتناع وهو يعرف الحق ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد يقول تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا** ﴾ القرفان / ٢١ ، وقال تعالى عن إعراض فرعون : ﴿**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ... ﴾ القصص / ٣٩ .

النوع الثالث : متكبرون على الناس :

وذلك باستعظام نفسه واستحقار غيره فيترفع عليهم ويحتقرهم ويزدريهم ويستصغرهم وهو عظيم عند الله تعالى لسببين :

الأول : ينازع الله الكبرياء : لقوله تعالى : « **العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته** » فمن تكبر على الناس فقد نازع الله فى حقه .

الثانى : يخالف أمر الله : وهذا أمر مهم جداً فليس البحث أو الدراسة أو التحقيق هى المحرك لهؤلاء المتكبرين وإنما الكبر هو الذى يحركهم وليس سعيا للوصول إلى الحق كما يزعمون والدليل على ذلك :

١ـ فى قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ فصلت / ٢٦ ، فكان غرضهم الغلبة وليس ما يزعمون سعيا للظفر بالحق .

٢ـ فى قولـه تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ...﴾ البقـرة / ٢٠٦ ، فعـدم قبـوله للمـوعظة ليس لأنه لا يقتنع بالحق وإنما أنفة منه وعزة وإعراضا .

٣ـ فـى قـولــه تعـالـى : ﴿... أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ الأعراف / ١٢ ، فحمله الكبر على الامتناع عن أمر الله تعالى له بالسجود ويعتبر إبليس رائد هذا الصنف من المتكبرين .

❤❤ درجات كبر القلب :

الله عـز وجـل يريد منا القلوب ، فالجـاهل العاصى إذا تواضع هيبـة لله تعالى ، وذل خوفا منه ، فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب ، هكذا قال العلماء من أطباء القلوب ، وعلى هذا فمن اعتقد أنه فـوق أحد من الناس ، فقـد أحبط بجهله جميع عمله ، فقـد روى عن أنس رضي الله عنه أن رجلا ذُكر للنبى ﷺ بخير فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذى ذكرناه لك فقال : إنى أرى فى وجهه سفعة من الشيطان فسلم ووقف على النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس فى القوم أفضل منك قال :

« **اللهم نعم** » رواه أحمد والبزار .

فقد رأى النبى ﷺ بنور النبوة ما استكن فى قلبه ، سفعة فى وجهه .

وهذا الكبر ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : كبر مستقر فى القلب مع مجاهدة :

فالكبر مستقر فى القلب يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يتواضع ويجتهد ويجاهد نفسه ، فالكبر فى قلبه كالشجرة ولكنه قطع أغصانها بالكلية .

الدرجة الثانية : كبر فى الأفعال :

هذا الكبر المستقر فى القلب يتطور فيظهر على الأفعال بالترفع فى المجالس وإظهار الأفكار على من يقصر فى حقه والتقدم على الأقران ، وقد نسى هذا أن الورع ليس بهذه الأفعال ومظاهرها من عبوس وجهه أو تقطيب جبين كأنه متنزه عن الناس أو غضبان عليهم وإنما الـورع فى القلوب ، ولقد كان رسول الله ﷺ أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقاً وأكثرهم بشراً وتبسماً وانبساطا.



الدرجة الثالثة : كبر فى الأقوال :

ثم يتطور الكبر حتى يظهر على اللسان بالمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وعرض قصصه لغلبة غيره فى العلم والعمل والعبادة أو لتصغيرهم وتعظيم نفسه أو لتحقيق المباهاة عليهم ، وهذا قد كتب على نفسه الهلاك والدمار .

❤❤ لماذا يتكبرون ؟

كما تبين أن الكبر هو المعنى القلبى فقط فإن ظهر فى الأفعال والأقوال يطلق عليه التكبر ، ومعنى الكبر استعظام النفس فوق قدر الغير فإن كان فى نفسه فقط دون غيره أطلق عليه أطباء القلوب من العلماء «العجب».

وأسباب الكبر ثلاثة :

١ـ فى المتكبر وهو العجب : وهو يورث الكبر فى القلب وهو لا محالة يثمر كبر الفعل والقول والحال .

٢ـ فى المتكبر عليه مثل الحقد والحسد :

أما الحقد فإنه يحمل على التكبر دون العجب على من يرى أنه مثله أو فوقه ، فقد يكون قد غضب عليه بسبب سابق فأورثه الغضب حقداً ورسخ فى قلبه بغضه فهو لا يتواضع له أبداً ، وأما الحسد فإنه يوجب البغض للمحسود دون إيذاء ويدعو الحسد إلى جحد الحق وتعلم العلم وعدم قبول النصح .

٣ـ فى غيرهما وهو الرياء :

الرياء يدعو إلى أخلاق المتكبرين فقد يحاور الرجل من هو أعلم منه وليس بينهما محاسدة أو حقد ولكن امتناعه عن قبول الحق خيفة أن يقول الناس أنه أفضل منه ، ولو كان فى خلوة لا يتكبر خلافاً للأسباب السابقة من عجب أو حقد أو حسد ؟ فإنه عليه فى الجمع أو فى الانفراد .

علاج الكبر :

هناك طريقان لعلاج الكبر فهو إما أن يكون فى القلب منغرساً وثماره قليلة وإما أن تكون جذوره ضاربة فى القلب وامتدت إلى عوارض مختلفة فى الأقوال والأفعال .

ولذلك **فالطريق الأول** : استئصال الأصل وقلع شجرته من مغرسها فى القلب ، والقيام بهذه العملية يحتاج إلى علم وعمل معاً ولا يتم الشفاء إلا بهما ، فبالعلم قيل : يعرف نفسه ويعرف ربه ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر ، لأنه

إذا عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ولا يليق به إلا التواضع والمهانة ، وإذا عرف ربه حق المعرفة علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله ، وبالعمل قيل : هو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، والقلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح.

والطريق الثانى : رفع العوارض التى تعرض من التكبر بالأسباب الخاصة التى يتكبر الإنسان على غيره وهذه الأسباب كالتالى بدوائها :

الطريق الثانى لعلاج الكبر

السبب	العلاج القلبى
١ـ التكبر بالنسب .	١ـ يعرف أن الذى يعتريه من كبر من جهة النسب هو جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره . ٢ـ أن يعرف نسبه الحقيقى فيعرف أباه وجده فأباه القريب نطفة وأباه البعيد تراب .
٢ـ التكبر بالجمال .	أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ومهما اتصف بالجمال ، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بمرض أو جدرى أو قرحة أو أى شئ آخر .
٣ـ التكبر بالقوة والأيدى .	أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض وأنه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز فلا ينبغى أن يفتخر بقوته ولو قارن قوته بقوة حيوان لكان ضعيفاً فأى افتخار فى صفة يسبقه فيها البهائم .
٤،٥ : التكبر بالغنى وكثرة المال وفى معناه كثرة الأتباع والأنصار بالتقرب من الحكام والتمكن من جهتهم.	وهو أقبح أنواع التكبر لأنه خارج عن ذاته فلو ذهب ماله أو داره أو ما يملك لعاد ذليلاً ، وكذلك الحكام يتغيرون عليه فيكون أذل الناس ، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته كما قيل : فهو ظاهر الجهل ، فعليه أن يعلم أنه لا قدرة ولا قوة له فعلام يتكبر .

السبب	العلاج القلبى
٦ـ الكبر بالعلم .	وعلاجه شديد إذ أنه أعظم الآفات ولأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس وهذا أعظم من قدر المال والجمال وغيرها وكذلك قال عمر : العالم إذا زل زل بزلته عالم ، ولذلك فالعلاج يتم بالتالى : ١ـ أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد ، ومعصية العالم أقبح من الجاهل لقوله ﷺ : « **يؤتى يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه** » . ولذلك فعلى العالم إذا علم بجنايات الباطن من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وما ينتظره من خطر عظيم فارقه الكبر لا محالة . ٢ـ أن يعلم أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً وقد أحب الله منه أن يتواضع فلابد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه وهذا يزيل التكبر عن قلبه .
٧ـ التكبر بالورع والعبادة .	علاجه أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغى أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم . وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً بل يجب عليه التواضع له . أما مع غير العلماء فإما أن يكونوا معروفين أو غير

السبب	العلاج القلبى
	معروفين . فإن كانوا غير معروفين فينبغى أن لا يتكبر عليهم ، فلعلهم أقل منه ذنوباً وأكثر منه عبادة وأشد منه حباً لله . وأما المعروفون بأن ظهرت لك ذنوبهم فقارنها بذنوبك طول العمر وهى لا تحصى بل لا ينبغى أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل وغيرها شديدة عند الله وربما صرت ممقوتاً عند الله لخفايا ذنوب فى قلبك .

❤❤ أمر مهم جداً فى علاج الكبر

ما عرضناه هى معارف بينها أطباء القلوب من علمائنا ، يزال بها هذا المرض عن القلب .

إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع ، وتدعى البراءة من الكبر ، وهى كاذبة.. كالرماد الساخن..

فإذا تهيئت لها ظروف عادت إلى طبيعتها ونسيت وعدها .

ولذلك قال أهل القلوب :

لا ينبغى فى العلاج مجرد المعرفة بل ينبغى أن تكمل بالعمل وتثقل بأفعال وتجارب المتواضعين .

وقد وضع الغزالى فى الإحياء خمس امتحانات كنماذج يجرب بها العبد نفسه .

١ـ الاختبار الأول :

أن يحاور فى مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شئ من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق .

فذلك يدل على أن فيه كبر فليتق الله ويشتغل بعلاجه وهو **جزء علمى** : يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى .



وجزء عملى : يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يحمد الله ويقر على نفسه بالعجز ويشكر الناس أن عرفوه بالحق ، والمواظبة على ذلك تنقلب إلى طبع تسقط عن قلبه ثقل الحق وطاب له قبوله .

فإن ثقل عليه ذلك فى الملأ فهو رياء فلينظر علاج الرياء فى الجدول السابق وقد عرضناه من قبل .

الاختبار الثانى :

السبب	الأعراض	العلاج
الاجتماع مع الأقران فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشى خلفهم ولا يجلس فى الصدور .	يثقل عليه ذلك فهو متكبر .	يواظب عليه تكلفا حتى يسقط هذا الثقل وبذلك يعالج الكبر .

ملاحظة :-

قد يكيد الشيطان بتلبيسه فى هذا العلاج ويوسوس بالجلوس فى آخر الصف أو يجعل بينه وبين الصدر بعض الأراذل وهذا عين الكبر كأنه يوهم الحاضرين بأنه ترك مكانه فى الصدارة تفضلاً ، قيل وقد يكون كذلك لإظهاره التواضع .

الاختبار الثالث :

مادة الاختبار	الأعراض	العلاج
أن يجيب دعوة الفقير ويمر فى الأسواق فى حاجة رفقائه وأقاربه .	إن ثقل عليه ذلك فهو متكبر .	هذا خبث فى باطنه وعلاجه بالمواظبة على مكارم الأخلاق وتحقيق معارف العلاج فى الجدول السابق .
الاختبار الرابع :		
أن يحمل حاجة نفسه وأهله سواء من السوق إلى البيت أو غيره .	إن أبت نفسه ذلك فهو متكبر .	إن كان الطريق خالياً هو كبر وإن كان الناس يشاهدونه هو رياء (ينظر إلى جدول العلاج) .



مادة الاختبار	الأعراض	العلاج
		● عبد الله بن سلام حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان فى غلمانك ما يكفيك قال : أجل ولكن أردت أن أجرب نفسى هل تنكر ذلك .
الاختبار الخامس :		
أن يلبس ثياباً بذلة .	نفور النفس عن ذلك رياء وفى الخلوة كبر .	تقدم فى جدول العلاج من لا يعرف الشر لا يتقيه ومن لا يدرك المرض لا يداويه .

وأخيراً :

أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها يقول تعالى : ﴿ **إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ الشعراء / ٨٩ ، وكما قيل :

من لا يعرف الشر لا يتقيه

ومن لا يدرك المرض لا يداويه .

٩- عجب القلب

معنى عجب القلب :

يقول تعالى :﴿ ... **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا** ... ﴾ التوبة / ٢٥ ، فأنكر الله عليهم إعجابهم بكثرتهم وقوتهم ، ويقول تعالى :﴿ ... **وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ الكهف / ١٠٤ ، وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل ويقول ﷺ :« **ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه** » وقال لأبى ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة ، فقال: «**إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك**» رواه الترمذى وحسنه .

وقال تعالى : ﴿ ... فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ... ﴾ النجم / ٣٢ ، قال ابن جريج معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت ، وقال زيد بن أسلم لا تبروها أى لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب . وقال مطرف : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إلى من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً ، وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئاً قالت إذا ظن أنه محسن .

وأخطار العجب كثيرة : فإن العجب يدعو إلى الكبر بخطره الشديد ، ويدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له ، أما الأعمال فإذا أعجب بها عمى عن أخطارها ، ثم يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن من مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ، ويخرجه العجب إلى الثناء على نفسه ويحمدها ويزكيها ، فيستبد برأيه وأخطر ذلك أن يفتر فى السعى لظنه أنه قد فاز وهو الهلاك الصريح .

والمقصود بعجب القلب : لا يخاف من زوال الشىء بل يفرح ويطمئن به ويكون سبب فرحه أنه كمال ونعمة من حيث أنه منسوب إليه وليس للمنعم تعالى .. ومتى غلب على القلب أنه نعمة من الله ، متى شاء سلبها ، زال العجب عن قلبه .

فهو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم عز وجل .

❤❤ علاج العجب :

علة العجب الجهل فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط ، فعلى القلب أن يعرف أن جميع الأمور نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة منه ، فينبغى أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله إذ أفاض عليه مالا يستحق وآثره به على غيره ومن غير سابقة ووسيلة.

ولنأخذ مثالاً : فإن أعجب عابد بعبادته أوعالم بعلمه أو جميل بجماله أو غنى بغناه.. فيقول العابد المعجب بعبادته : وفقنى للعباده حبى له فيقال : ومن خلق الحب فى قلبك فيقول : هو ، فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده آثرك بهما حيث لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب هنا بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك ووجود أعمالك وأسباب أعمالك ، فإذن لا معنى لعجب العابد أو العالم أو الجميل أو الغنى لأن كل ذلك من فضل الله وعطائه، فمن عجيب الأمر أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ،

الذى صرف عنك السوء والفسق والفحش بل صرف عنك بواعث ذلك وآثرك وقدمك واصطفاك بفضله .. فما أعجب إعجاب المعجب بنفسه إذا عرف ذلك .

ونضرب مثالاً لذلك فقد سئل على كرم الله وجهه : ما بال العقلاء فقراء فقال : إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه ، ولو قيل للفقير : هل تؤثر جهله وغناه عوضاً عن عقلك وفقرك لامتنع عنه ، ويدل ذلك على أن نعمة الله عليه أكبر فلم العجب إذن ؟!!.

ولما اتكل أصحاب النبى ﷺ يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم : وقالوا لا نغلب اليوم من قلة فقال تعالى : ﴿ ... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ التوبة / ٢٥ .

وهذا رسول الله ﷺ وهو خير الناس يروى أبو هريرة فيما رواه البخارى ومسلم قوله : « **فما منكم من أحد ينجيه عمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته** ».. وكم تمنى أصحابه رضوان الله عليهم أن يكونوا تراباً وطيراً مع صفاء أعمالهم وقلوبهم ، فكيف لذى بصيرة بعد ذلك أن يعجب بعمله ولا يخاف على نفسه .. فهذا هو العلاج النافع للعجب فى القلب .

١٠- غرور القلب

❤❤ غرور القلب

ذم الله الغرور بقوله تعالى : ﴿ ... **فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ فاطر / ٥ ، ويقول تعالى :﴿ **وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ**... ﴾ الحديد / ١٤ ، وعن شداد بن أوس فيما رواه الترمذى قال ﷺ : « **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله** ».

فالغرور هو سكون القلب إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان ، فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهومغرور.

❤ وقلوب الكافرين قد يصيبها الغرور : فمنهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور ، فأما الصنف الأول فقادتهم شبهة إبليس :﴿... أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ الأعراف / ١٢ ، فكان قياساً فاسداً ولذلك أشار إليهم الله تعالى في قوله:﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة / ٨٦ ، ولهذا قال عليّ كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ما قلته حقاً فقد تخلصت وتخلصنا وإن كان ما قلناه حقاً فقد تخلصنا وهلكت .

والمؤمنون إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصى هم مشاركون للكفار فى هذا الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة .

❤ كفار مغرورون بالله :

١- الرجل المحاور المذكور في القرآن :

يقول تعالى : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ الكهف / ٣٦ .

هذا جزء من حوار الرجلين المتحاورين ، فدفعه غروره إلى هذا القول وهو أنه لو كان لله من معاد فهو أحق به من غيره وهو أوفر حظاً وأسعد حالاً.. أبعد هذا غرور؟.

٢- العاص بن وائل :

وصفه الله تعالى فى كتابه إذ يقول :﴿... لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ مريم / ٧٧ ، فرد عليه تعالى : ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ مريم / ٧٨ ، وقصة ذلك يرويها خباب بن الأرت أنه قال: كان لى على العاص بن وائل دين فجئت اتقاضاه فلم يقض لى فقلت إنى آخذه فى الآخرة ، فقال إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالاً وولداً أقضيك منه فأنزل الله قوله:﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ مريم / ٧٧ ، وهذا كله من الغرور بالله . قد نظمه فى قلوبهم إبليس فقالوا : قد أحسن الله إلينا بنعم الدنيا وكل محسن فهو محب وكل محب فإنه يحسن أيضاً فى المستقبل .

❤ وهكذا أوصلهم غرورهم إلى الهلاك بقوله تعالى :

﴿... سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف / ١٨٢ .



قيل فى تفسيرها : أنهم كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم فيقول تعالى : ﴿... إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ...﴾ آل عمران / ١٧٨ .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ إبراهيم / ٤٢ .

❤ **عُصاة مغرورون :**

المؤمنون الصادقون إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحباً بشعار الصالحين ، أما المغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان .

كما أخبر الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ⑮ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ الفجر / ١٥:١٦ .

فأجاب الله عن ذلك ﴿ كَلاَّ ﴾ أى ليس كما قال إنما هو ابتلاء ، فبين أن ذلك غروراً .

ولذلك فالعصاة من المؤمنين فى قولهم إن الله كريم وإنا نرجو عفوه ، ويتكلون على ذلك ويهملون الأعمال وتحسينها ، وقد أطلق علماء القلوب على هذا الوصف « الأمانى » وهو تمنى وغرور وليس برجاء كما يقولون .

فالشيطان لا يغوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب ولكن النبى ﷺ كشف عن ذلك فقال : « **الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله** » .

وهذا هو التمنى على الله تعالى غير أن الشيطان أطلق عليه اسم الرجاء فانخدع به الجهال ، فقد قيل للحسن :

قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال: هيهات هيهات تلك أمانيهم يترجحون فيها ، من رجا سيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه ، فمالا يبعث على العمل فهو شيئاً غرور ، أما رجاء الخلق فهو سبب فتورهم وإقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله إهمالهم السعى للآخرة ..فذلك غرور...

مادة الاختبار	الأعراض	العلاج
غرور العلماء والدعاة . ١ـ الاهتمام بالعلوم الشرعية وإهمال تفقد الجوارح بالتزامها الطاعة وإبعادها عن المعصية .	الاعتزاز بالعلم والظن أنهم عند الله بمكان .. فهو يدعو إلى الأخلاق وما زكى نفسه بل يكتب العلم بذلك ويعلمه الناس ولا يكلف به نفسه .	أن ينظر بالبصيرة وبعين الإيمان فالذى أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بذم علماء السوء وأن حالهم عند الله أشد من الجهال .
٢ـ إدعاء الإيمان والعلم بالله وإهمال العمل وتضييع أمر الله وحدوده .	تقصير فى التقوى واتباع للشهوات وكلامه فى العلم بالله ومعرفته أسامى دون معانى .	استفتى الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له : إن فقهاءنا لا يقولون ذلك فقال وهل رأيت فقيها قط الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد فى الدنيا ولا يدارى ولا يمارى .
٣ـ إحكام العلم والعمل والمواظبة على الطاعة وترك المعاصى إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم .	فى قلوبهم الصفات المذمومة من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة وطلب الشهرة .	تعهد القلب فالقلب هو الأصل يقول النبى ﷺ : « **إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** » .
٤ـ حققوا الثلاث السابقة وتفقدوا قلوبهم ولكن لم	من تلبيسات إبليس عليهم : طلب الرئاسة والشرف	الزهد فى الدنيا والإقبال على الله تعالى وإلا كما

مادة الاختبار	الأعراض	العلاج
يجاهدوا أنفسهم بمعنى أن هذه الأمراض القلبية بعيدة عنهم فهم أرفع عند الله وأعظم من أن يبتليهم . ويدفعهم غرورهم للوقوع في هذه الأمراض ويفسرونها بأسماء أخرى .	عندهم : عز للدين ونصرة للإسلام . الثياب الفاخرة : إذلال للأعداء . الحسد : غضب للحق . الرياء : اقتداء الناس بهم . التواضع للظالمين : شفاعة للمسلمين ودفع للضرر . المال الحرام : هو لمصلحة المسلمين .	قيل فهو (دجال الدين) . ويتذكر في ذلك مما تعرض له صحابة النبي ﷺ وحياتهم وأحوالهم وكيف اقتدوا برسول الله ﷺ وبذلك لا يقع فريسة للشيطان الذي يزين له هذا التلبيس .
٥ـ حققوا العلم وطهارة العلم وطهارة الجوارح وتفقدوا قلوبهم وجاهدوا تركوا بعض المنابت في زوايا القلب فأهملوها .	ولعدم اقتلاع المرض تماماً فقد يسهر الليل في جمع العلوم ويظهر المعنى الخفي من طلب الشهرة أو الثناء وهكذا في السامعين له والأتباع فيظن في نفسه الإخلاص ولم يتفقد نيته .	أن يفطن لخفايا قلبه وأن يكون يقظاً لكل هذه الأعراض بأن يعرف عيوب نفسه ويحرص على إصلاحها ويحرص على الاشتغال بفرض الكفاية مع النية الصحيحة بقصد وجه الله تعالى . البصيرة بما كان عليه
٦ـ الاشتغال بعلم الكلام والرد على	أهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت	أصحاب النبي ﷺ : من تركهم الجدل بل

مادة الاختبار	الأعراض	العلاج
المخالفين فظنوا أنه لا أحد أعرف بالله منهم حيث عرفوا معتقدات الطرق .	عليهم ذنوبهم وفى الحقيقة يتلذذون بالغلبة فى الجدل والإفحام ولذة الرياسة	قالوا إن الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل فى الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو أمامة الباهلى عن النبى ﷺ : « **ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل** » وهذا رسول الله ﷺ ما جلس مع المجادلين يقيم عليهم حجة بل جادلهم بالقرآن الكريم يتلوه عليهم فاستخرج الإشكالات من قلوبهم حتى ما بقيت شبهة . فأهل الحزم من الأكياس يقولون : لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم .
٧ـ يذكّرون الناس بصفات القلوب ظانين	يذكرون بالخوف والرجاء والصبر	يسأل نفسه دائماً إذا تحدث عن صفة هل أنا

مادة الاختبار	الأعراض	العلاج
بكلامهم أنهم موصفون بها وهم منفكون عنها عند الله .	والشكر والتوكل والزهد والصدق والإخلاص وهم على العكس من ذلك تماماً فهم من الآمنين من مكر الله والساخطين والمرائين والحريصين على الدنيا ، وذلك لأن وجود الصفات المحمودة ضعيف فى قلوبهم كلما تكلموا فى المنازل ظنوا أنهم بلغوها .	كذلك ؟ ويمتحن نفسه دائماً ويطالب قلبه بالحقيقة ولا يقنع منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ .




فقه القلوب
(٤)
حياة القلوب
حياة القلوب

رابعاً
حياة القلوب

١ـ قلوب الراجين
٢ـ قلوب المؤمنين
٣ـ قلوب المحبين
٤ـ قلوب الذاكرين
٥ـ قلوب الخائفين
٦ـ قلوب الشاكرين
٧ـ قلوب الصابرين
٨ـ قلوب الراضين
٩ـ قلوب الزاهدين
١٠ـ قلوب التائبين
١١ـ قلوب المتوكلين
١٢ـ قلوب الواثقين



حياة القلوب

١- قلوب الراجين

الرجاء على وجوه:

الأول: رجاء الظفر بالمطلوب والوصول إلى المحبوب.

والثانى: رجاء استمراره بعد الحصول عليه.

والثالث: رجاء دفع المكروه وصرفه كى لا يقع.

والرابع: رجاء الدفع والإماطة لما قد وقع.

والخوف والرجاء متناسبان حيث لا خائف إلا وهو راج، ولا راجى إلا وهو خائف.. ولأجل تناسب الأمرين قرن الله تعالى بهما فى قوله تعالى:

- ﴿ ... وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف/ ٥٦ .

فالخوف: الإشفاق، **والطمع**: الرجاء

- ﴿ ... وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ.... ﴾ الاسراء / ٥٧ .
- ﴿ ... وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ الأنبياء / ٩٠ .

فالرغبة: الرجاء، **والرهبة**: الخوف.

عن أنس أن النبى ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله وأخاف ذنوبى. فقال رسول الله ﷺ: « **لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف** » رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب (٣/ ٣١١).

قال البيهقى رحمه الله: وأفضل الرجاء ما تولد عن مجاهدة النفس ومجانبة الهوى قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة/ ٢١٨.

ولذا ففى وصية النبى ﷺ قبل أن يموت بثلاث - كما روى جابر رضي الله عنه: « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل** » رواه مسلم ٢/ ٢٢٠٦ .

كان من رأى سلمان الدارانى قوله:

(إذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب) أبو نعيم فى الحلية ١٠/ ٢١ .

وبهذا الفقه يقول ابن السماك: كتبت إلى صديق لى: أن الرجاء حبل فى قلبك، قيد فى رجلك، فأخرج الرجاء من قلبك تحلُّ القيد من رجلك.

قال البهيقى عن ذلك: وهذا رجاء غلب على الخوف وإنما الخوف والرجاء يعتدلان، والرجاء الحقيقى ما دفع إلى الطلب ففى جوفه الطاعة، وفيه وجوب الجنة. اختصر ذلك لقمان فى وصيته لابنه: يا بنى ارج الله رجاء لا يجرّئك على معصيته وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته.

وهذا أبو عثمان المغربى الذى قال عنه السلمي: كان أوحد فى طريقته وزهده لم ير مثله فى علوْ الحال وصون الوقت يقول:

من حمل نفسه على الرجاء تعطل
من حمل نفسه على الخوف قنط
ولكن ساعة وساعة ومرة ومرة.

ومن ثم كان الفقه الربانى لرسول الله ﷺ، فيما رواه البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة أن النبى خرج على رهط من أصحابه وهم يتحدثون فقال: « **والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً** » فلما انصرف أوحى الله إليه: يا محمد لم تُقْنط عبادى؟ فرجع إليهم فقال: «**أبشروا وقاربوا وسددوا** ». واستمر هذا الفقه يلقَنه النبى ﷺ فى قلوب أصحابه يوم أن قال حنظلة: كنا عند رسول الله ﷺ فذكّرنا بالجنة والنار كأنهما رأى عين، فقمت وأتيت إلى أهلى فضحكت ولهوت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقلت: يا أبا بكر نافق حنظلة! فقال أبو بكر: وما ذاك ؟ فأخبرته فقال : إنا لنفعل ذلك فأتيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله : إنا إذا كنا عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنا رأى عين ، فقمت إلى أهلى فضحكت ولعبت فقال النبى ﷺ :

« **يا حنظلة ساعة وساعة لو كنتم تكونون كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة فى بيوتكم وعلى فرشكم، يا حنظلة ساعة وساعة** » رواه مسلم ٣/ ٢١٠٧ .

وفى هذا دلالة على أنه لا ينبغى أن يكون خوفه بحيث يؤيسه ويقنطه من

رحمة الله، كما لا ينبغى أن يكون رجاؤه بحيث يأمن مكر الله، أو يجرئه على معصية الله عز وجل .

ولا ينبغى أن يكون الرجاء إلا من الله لأنه لا يملك أحد من دونه خيراً ولا نفعاً، فمن رجا ممن لا يملك مالا يملك فهو من الجاهلين.

ولذلك كان قول يحيى بن معاذ:

علم القوم فى أربعة أشياء:

يَرونْ كل شئ من الله
ثم يرجعون كل شئ إلى الله
فيطلبون كل شئ من الله
ويردون كل شئ إلى الله

ثم على من علق رجاؤه بالله فينبغى له أن يسأله ما يحتاج إليه صغيراً وكبيراً، لأن الكل بيده لا قاضى للحاجات غيره قال الله تعالى: ﴿ ... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... ﴾ غافر: ٦٠ .

ومن هنا فقلوب الراجين على صلة دائمة بربها فى جميع أحوالها وحركاتها. (والرجاء ضرورى للسالك العارف ولو فارقه لحظة لتلف أو كاد فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه وعيب يرجو إصلاحه وعمل صالح يرجو قبوله واستقامة يرجو حصولها ودوامها وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها) المدارج لابن القيم.

ومن فوائد الرجاء للقلب تعلقه بذكر الله ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته وتنقل القلب فى رياضها الأنيقة وبه يفرح القلب بربه ويسر به ويبتهج بقرة عينه وينعم بحبيبه والشوق إلى لقائه.

ولذلك فأفضل أنواع الرجاء وأعلاها هذا الرجاء الذى أطلقوا عليه رجاء أرباب القلوب، وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق، المبغض المنغص للعيش، المزهد فى الخلق ﴿ .... فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ سورة الكهف / ١١٠ .

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته وإليه شخصت أبصار المشتاقين لأن الاشتياق هو سفر القلب فى طلب محبوبه:



يا أخا اللب إنما السير عزم
ثم صبر مؤيد بالبصائر
يالها من ثلاثة مَنْ ينلْها
يَرْقَ يوم المزيد فوق المنابر

الق نفسك مع القدر تكن من الراجين: ﴿ ... وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ... ﴾ النساء/ ٧٨ .

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ الشورى/ ٣٠ .

عن ابن الديلمي قال:

(أتيت أبيّ بن كعب فقلت له: وقع فى نفسى شئ من القدر، فحدثنى بشئ لعل الله جل ثناؤه أن يذهبه من قلبى، فقال: لو أن الله جل ثناؤه عذب أهل سماواته وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً فى سبيل الله، ما تقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار).

قال ثم لقيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك.. ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثنى عن النبى ﷺ مثل ذلك. أبو داود ٥/ ٧٥ ـ أحمد ٥/ ١٨٥ وبهذا الحديث ذهب عن قلبه ما وقع فى نفسه، ليسلك سبيل القلوب الراجية.

ففيما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال:

«كان مشركون عند رسول الله ﷺ يخالفونه فى القدر فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر / ٤٧ : ٤٩ .

فهل يحق لأحد أن يلوم أحداً على القدر الذى لا يدفع له إلا على وجه التحذير للوقوع فى المعصية؟ وتأتينا الإجابة فيما رواه مسلم عن على رضي الله عنه فى قوله: (كنا فى جنازة فلما انتهينا إلى بقيع الغرقد، قعد رسول الله ﷺ وقعدنا حوله، فأخذ عوداً فنكت به الأرض، ثم رفع رأسه فقال: « **ما منكم نفس منفوسة إلا وقد عُلم مكانها من الجنة والنار وشقية أم سعيدة** » ، قال: فقال رجل

من القوم: يا رسول الله: ألا ندع العمل ونتكل على كتابنا.. فمن كان منا من أهل السعادة صار إلى السعادة ومن كان من أهل الشقوة صار إلى الشقاء! قال: فقال رسول الله ﷺ: « **اعملوا.. فكل ميسر، فمن كان من أهل الشقوة ييسر لعملها، ومن كان من أهل السعادة ييسر لعملها** » ثم قال رسول الله ﷺ: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)** ﴾ الليل ٥: ١٠.

فالعبد إنما ييسر لما خلق له، وإن التيسير إنما هو بحق الله ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ الأنبياء/ ٢٣.

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ الأنعام / ١٢٥.

وما فيها من قوله: (يشرح)، (يجعل) وذلك يوجب الفعل والايجاد فهي حجة في خلق الهداية والضلال، يقول تعالى: ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ الملك/ ١٣: ١٤.

فهو الذى خلق الإسرار والجهر، واللذان يكتسيان بالقلب وأنه عليم بهما، وكيف لا يعلم وهو خلقهما؟ فدل ذلك أن الخلق يقتضى علم الخالق بالخلق من كل الوجوه.

ولذلك كان من دعاء النبى ﷺ: « **أسألك الرضا بعد القضاء** » فقال الرضا قبل القضاء لأنه عزم على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرضا. وفيما رواه ابن أبى الدنيا قول بشر:

(قلت لعابد أوصني. قال: الق نفسك مع القدر حيث ألقاك فهو أحرى أن تفرغ قلبك، وأن تقل همك).

وعن سفيان فى قوله تعالى: ﴿ .. **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** .. ﴾ التغابن / ١١.
قال: بالرضا والتسليم

ورحم الله ابن القرجي وهو يقول: (معنى الرضا فيه ثلاثة أقوال:
* ترك الاختيار
* وسرور القلب بمُرّ القضاء
* وإسقاط التدبير من النفس حتى يحكم لها أو عليها).



٢ـ قلوب المؤمنين

يقول أبو عبد الله الحليمى رحمه الله تعالى:

(الإيمان مشتق من الأمن الذى هو ضد الخوف) كما قال الله عز وجل: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ . .﴾ البقرة/ ٢٣٩ .

فهمتها القلوب المؤمنة بأنها التصديق والتحقيق، فالإيمان بالله عز وجل ثناؤه: اثباته والاعتراف بوجوده، والإيمان له: القبول عنه والطاعة له، والإيمان بالنبى ﷺ إثباته والاعتراف بنبوته والإيمان للنبى ﷺ: اتباعه وموافقته والطاعة له.

وكان للتصديق عندهم ما هو واقع بالقلب ويسمى اعتقاداً، وهو ما يخفى كالنيات والعزائم، وما هو واقع باللسان ويسمى إقراراً وشهادة، وهو الظاهر المتجلى كأعمال الجوارح من طهارة وصلاة وزكاة وحج وصيام وجهاد.

والإيمان بالله ورسوله أصل، وهو الذى يقابل الكفر ، والإيمان لله ورسوله فرع، وهو الذى يكمل بكماله الإيمان، وينقص بنقصانه الإيمان، ووفق هذا الفهم كانوا يتبعون الأصل بطاعة زائدة فيزدادون إيماناً ... ثم يقطعون شعب الايمان عملاً وتحقيقاً.

ومن ثم ابتعدوا عما ينقص إيمانهم، فإن التقصير فى ركن نقص للإيمان مع اتفاق العلماء بفسقه ومعصيته، أما إن لم يكن فى واجب فهو فى نقصان للايمان ولا يوجب لتاركه عصياناً ثم يقول أبو عبد الله الحليمى:

وإذا أوجبنا أن تكون الطاعات كلها إيماناً، لم توجب أن تكون المعاصى الواقعة من المؤمنين كفراً، وذلك لأن الكفر بالله أو رسوله يقابل للإيمان به، فإن كان الإيمان بالله أو رسوله: الاعتراف به والاثبات له، كان الكفر: جحوده والتكذيب به، أما الأعمال فإنها إيمان لله وللرسول بعد وجود الإيمان به.. فكان الذى يقابله (الشقاق والعصيان دون الكفر) .

* **صدق الإيمان :**

يقول تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ . . .﴾ الحجرات / ١٤.

فلو كان فى قلوبهم إيمان لكانوا مؤمنين، لجمعهم بين التصديق بالقلب

والقول باللسان، فيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل** » .

وفيما أخرجه الشيخان عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، صادقاً من قلبه، دخل الجنة» ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ... ﴾ الأنفال/ ٢: ٤ .

انظر إلى أثر هذه الأعمال فى القلب، فعند الذكر (وجل القلب) إشارة إلى الاستقامة من كل وجه، وعند تلاوة الآيات يزداد القلب إيماناً، وقبل فعل (يتوكلون) القلب ليس فيه سوى الله (على ربهم) وكذلك القلب حال الصلاة فى إقامتها بخشوعها وحضور الله والتدبر بالفهم للآيات، وعند الإنفاق فالقلب لا يقر برازق إلا الله، وهكذا يعيش القلب مع نعمة ربه وعطائه: ﴿ ... وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ... ﴾ الحجرات / ٧ .

ثم يزداد العطاء من ربك ، حينما يزداد القلب إيماناً ، يقول تعالى: ﴿ ... لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ... ﴾ الفتح / ٤ .

ويقول تعالى: ﴿ ... فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ التوبة / ١٢٤ .

ويقول تعالى: ﴿ ... وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ... ﴾ المدثر / ٣١ .

فالإيمان قابل للزيادة، والمؤمنون متفاوتون فى إيمانهم، وبعضهم أكمل من بعض ، لقول النبى ﷺ فيما أخرجه مسلم فى صحيحه:

« **من رأى منكم منكراً فليغيره، بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان** » وفيما رواه الشيخان قول النبى ﷺ عن أبى سعيد الخدرى: « **يدخل الله أهل الجنة الجنة، ويدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار ثم يقول: انظروا من وجدتم فى قلبه مثقال حبة خردل من ايمان فأخرجوه** ».

ويظل المؤمنون بتفاوت إيمانهم حتى ينتفى تماماً فى لحظة المعصية بترك

الواجب أو ارتكاب الكبيرة ، يقول ﷺ : فيما رواه البخارى ومسلم: «**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»... وهذا يدخله فى دائرة العصاة وليس الكافرين يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ... ﴾ النساء / ١١٦.

على عكس ذلك يزداد المؤمنون إيماناً بالطاعات، حتى يبلغوا درجة سامية من ربهم وفى الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم) أبو داود ٥ / ٣٠ .

وكان كثيراً ما يأخذ بيد الرجل والرجلين قائلاً لهما: (تعالوا نزداد إيماناً).

وعن على رضي الله عنه وكرم الله وجهه قوله: (إن الإيمان يبدو لُمَظَة بيضاء فى القلب، فكلما ازداد الإيمان عظماً، ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل الإيمان ابيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة فى القلب، فكلما ازداد النفاق عظماً، ازداد ذلك سواداً، فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله، وأيمُ الله! لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود).

واللُمظة هى الذوقة: وهو أن يلمظ الانسان بلسانه شيئاً يسيراً، أى يتذوقه، فكذلك القلب يدخل من الإيمان شئ يسير ثم يتبع فيه فيكثر.

وكان من فقه ابن مسعود فى دعائه: (اللهم زدنى إيماناً وفقهاً) ومن تفسير مجاهد لقوله تعالى: ﴿ ... **وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ... ﴾ البقرة / ٢٦٠ .

قال: (أزداد إيماناً إلى إيمانى) .

٣ـ قلوب المحبين

*** ما معنى محبة الله فى القلوب ؟**

إنها جماع لمعانى حميمة بدءاً من الاعتقاد أنه محسن إلى عباده، منعم متفضل عليهم، بواقع أجلّ وأكبر من أن يرد العبد شكره أو أن يرده بالعمل، ولذا فهو فى وجل وإشفاق كلما أعرض عن ربه... وذلك لأنه دائم الافتقار إليه عز وجل.. وهذا يجعله على إدامة الذكر إن تمكنت هذه المعانى فى القلب. بما يجعله حريصاً على التقرب إلى ربه من نوافل الخير فضلاً على أداء الفرائض .. يوالى من أحبه ويناوئ من غوى طريقه.

إن استجماع هذه المعانى فى القلب هى محبة الله وحده.. وقد جاءت هذه المعانى عن النبى ﷺ:

* « **أحبوا الله لما يغذوكم به من النعمة وأحبونى لحب الله، وأحبوا أهل بيتى لحبى** » الترمذى ٥ / ٦٦٤ .

* «**حبك الشئ يعمى ويصم** » رواه البخارى فى التاريخ الكبير ٢/ ١/ ٢٠٧ .

ومعناه: من أحب أحداً من جنسه لم يكد يبصر منه إلا ما يستحسنه، ويزيده إعجاباً به.

* بم تفصح قلوب المحبين؟

إن فتشت فى قلوب المحبين عن تلكم المعانى وجدتها فى أحوالهم فصيحة بليغة، ففيما أخرجه أبو نعيم فى الحلية ٩/ ٣٤١ قول ذى النون : (ثلاثة من أعلام المحبة: الرضا فى المكروه، وحسن الظن فى المجهود، والتحسين لاختياره فى المحدود).

وحينما سئل عن أى مجلس أشهى وألذ؟ فأجاب الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد تشم من رائحة المعرفة وتسقى بكأس المحبة سبحان الله ما ألذه من مجلس! وأعذبه من شراب!

قيل: فما عيد المؤمن؟ قال: السرور بالإيمان والنزهة بالقرآن ، قال الله عز وجل: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ يونس / ٥٨ .

يا حبيب القلب أنت حبيبى
لم تزل أنت مُنيتى وسرورى

وكما قال سرى السقطى: السرور بالله هو السرور، والسرور بغيره هو الغرور البداية ١١/ ٢٩٨ .

فَبعُدَت قلوب تحب غيرك، وثكلت خواطر أنست بسواك فالأنس بك نور ساطع والأنس بالناس غم واقع.

ورحم الله الفضيل وهو يقول: طوبى لمن استوحش من الناس، وأنس بربه، وبكى على خطيئته. طبقات السلمى ص/ ١٤ .

وقد سئل الشبلى : ما علامة صحة المحبة ؟ فقال: (العمى عن كل شئ سوى محبوبه) وكان يقول فى قوله تعالى: ﴿ ... **وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ** ﴾

المؤمنون / ١٧ .

فقال: وما كنا عن مَنْ قرب منا غافلين، ولا على من أقبل علينا شاغلين.

وما أحسن تقسيمات ابن الأزهر- (طبقات السلمى / ٢٣٤) وهو يقول:

الغافلون: يعيشون فى حلم الله .

والذاكرون: يعيشون فى رحمة الله .

والعارفون: يعيشون فى لطف الله .

والصادقون: يعيشون فى قرب الله.

والمحبون: يعيشون فى الأنس بالله والشوق إليه فالشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات، إذا بلغها العبد استبطأ الموت شوقاً إلى ربه، وحباً للقائه، والنظر إليه، فمقام المحبين شوقهم إلى محبوبهم وطلبهم رضاه، حرصهم على خدمته، فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه، يقول أبو عثمان فى قوله تعالى: ﴿ ... فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ... ﴾ العنكبوت / ٥ .

قال: هذه تعزية المشتاقين معناه : إنى أعلم أن اشتياقكم إلىّ غالب، وأنا قد أجلت للقائكم أجلاً، وعن قريب يكون وصالكم إلى من تشتاقون إليه، وكان يقول: بقدر ما يصل إلى قلب العبد من السرور بالله يشتاق إليه، وعلى قدر شوقه يخاف من بُعده وطرده.

*** لا تحزن فالمرء مع من أحب**

فيما رواه مسلم عن أنس بن مالك (أن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله متى الساعة؟) فقال: « **ما أعددت لها ؟** » (فقال الأعرابى: ما أعددت لها من كبير، إلا أنى أحب الله ورسوله) ، فقال رسول الله ﷺ : « **فإنك مع من أحببت** » البخارى ٤/ ٢٠٠، مسلم ٣٠/ ٢٠٣٢ .

وذلك لأن المحب الحقيقى لا يستريح من ذكر المحبوب، فالمحبة شعبة من الإيمان بالله، وهو أصل لجميع مراتب الأصفياء، وكان يحى بن معاذ يقول: إن فطنك ببرّه، فرّغك بذكره، وإن فرغك لذكره مَنّ عليك بحبه، وإن مَنّ عليك بحبه فاجأك بقربه.

ومن شروح ابن عطاء لحديث النبى ﷺ « **جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها** » .

قال: كيف لا تحب واجدك وما انفككت من تواتر نعمته قط، ولا تنفك أبداً،



ولكن ضعف اليقين وكدورة المعرفة ونقص الإيمان حجبك عن محبته والميل إليه.

فواعجباً: فمن لم ير محسناً غير الله، كيف لا يميل بكليته إليه، فكما قيل:

علامة المحبة ترك ما تحب لمن تحب، وأن عين المحبة أن تحب ما يحب الله في عباده وتكره ما يكره الله في عباده، وليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك.

وإن تعجب فعجب من ليلة قضاها عتبة الغلام، قيل أنه كان يشبه في حزنه حسن البصري وكان من نُساك البصرة... فما زال ليلته تلك حتى أصبح يقول: (إن تعذبني فإني لك محب وإن ترحمني فأنا لك محب) حلية الأولياء: ٦/ ٢٣٤ .

بل عدها الجنيد في المداومة عليها فكان يقول: قوام المحبة موافقة الحبيب في جميع الأحوال وأنشد:

ولو قلت مُتْ مُتُّ سمعاً وطاعة
وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً

فلا تحزن يا أخي : إن المرء مع من أحب

*** احذر أن تنحى عن باب المحبوب :**

قالها ذو النون حينما سئل: متى يأنس العبد بربه؟ قال: إذا خافه أنس به، أما علمتم أنه من واصل الذنوب نُحّيَ عن باب المحبوب.

وكان يقول: لو وصلوا إليه ما رجعوا، فازهد في الدنيا ترى العجب:

ومن إنشاد يحيى بن معاذ الرازي:



إن المليك قد اصطفى خدّاماً
متوددين مواطئين كِراماً
رزقوا المحبة والخشوع لربهم
فترى دموعهم تسحُّ سحاما
يُحْيُونَ ليلتهم بطول صلاتهم
لا يسأمون إذا الخَلِيُّ ناما
قومٌ إذا رقدت العيون رأيتهم
صفوا لشدة خوفه إقداما

وتخالُهم موتى لطولُ سجودهم
يخشونْ من نار الإله غراما
شُغفُوا بحب الله طول حياتهم
فتجنبوا لوداده آثاما

وهل تغلق الأبواب أمام صدق المحبين، فقد سأل شاب أبا عثمان قائلاً: متى يكون الرجل صادقاً في حب مولاه ؟ قال: إذا خلا من خلافه كان صادقاً في حبه.. قال: فوضع الرجل التراب على رأسه وصاح قائلاً:

كيف أدّعى حبهً
ولم أخلُ طرفة عين من خلافه؟

فبكى أبو عثمان وأهل المجلس... ويقول في بكائه:
صادقٌ في حبه
مقصرٌ في حقه

وما أروع جواب الجنيد لسائله: كيف أنت؟ فأنشأ يقول:

من لم يبتْ والحبُّ حشو فؤاده
لم يدر كيف تفتَّتُ الأكباد

وكانت رابعة إذا غلبها الحب تقول:

تَعصِى الإله وأنت تُظْهر حبّه
هذا محال في الفعال بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته
إن المحبَّ لمن أحب مطيعُ

روى عمر بن الخطاب فيما رواه البخاري ٨/ ١٤ أن رجلاً على عهد رسول الله ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يُضحك رسول الله وقد جلده في الشراب ، فأتى به يوماً فأمر فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به! .

فقال رسول الله ﷺ: « **لا تلعنه فوالله ما علمت إنه ليحب الله ورسوله** » .

فإنه مع شربه، سماه محباً، فانهض مع تقصيرك واحذر أن تنحى عن باب المحبوب .



٤ـ قلوب الذاكرين

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ الاحزاب ٤١ : / ٤٢ .

ويقول تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ... ﴾ البقرة / ١٥٢ .

وفيما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير فى طريق مكة فمرّ على جبل يقال له جُمْدان فقال: « **سيروا، هذا جُمْدان، سبق المُفَرِّدون** » قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: « **الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**».

فقد حث ذلك على الإكثار من الذكر والمداومة عليه، وعندما تتحقق معية الله تعالى لعباده الذاكرين ، ففى الصحيح ـ مسند الامام أحمد ٢/ ٥٤٠ ـ عن أبى هريرة] قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **قال ربك عز وجل أنا مع عبدى إذا ذكرنى وتحركت بى شفتاه** ».

ومن يحقق ذلك نأى عن حسرة يوم القيامة وإن كان من أهل الجنة فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ :« **ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها** » الطبرانى ٢٠/ ٩٤ .

ولذا كان من جواب النبى ﷺ على سائله: أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ بقوله ﷺ :

« **أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل**».

ولكن أين القلب من ذكر الله؟ وكيف حال قلوب الذاكرين؟ يقول الحليمى رحمه الله فى المنهاج ١/ ٥٠٣ : (المراد بالذكر ليس هو الذكر باللسان وحده، ولكنه جامع للسان والقلب والذكر بالقلب أفضل لأن الذكر بالقلب أفضل لأن الذكر باللسان لا يردع عن شئ، والذكر بالقلب يردع التقصير فى الطاعات والتهافت فى المعاصى والسيئات) . وكان أبو الدرداء يكثر من قوله: (إن لكل شئ جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل).

وفيما رواه مسلم فى صحيحه ٣/ ٢٠٧٤ قول النبى ﷺ : « **لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده** ».. وكلها آثار لا تتحقق إلا فى القلب.



ومن المداومة على الذكر ألا ينقطع من مكان لآخر، ولا يرتبط بمكان معين. سواء في المسجد أو في العمل أو في البيت، ففيما رواه البخاري ومسلم / ١٦٨ ٧ـ ١/ ٥٣٩ في صحيحهما عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: « **مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر فيه كمثل الحيّ والميت** ».

ومن المداومة على الذكر كذلك، ألا ينقطع بحال من الأحوال ففيما أخرجه الترمذي ٤/ ٤٦١ وذكره الألباني في صحيحه ٧٤ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « **من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه ترَّة ومن قام مقاماً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترَّة، ومن اضطجع مضجعاً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترَّة** » .

وصراع الشيطان مع الذكر محله القلب، والغلبة للذاكرين فعن أنس أن النبي ﷺ قال:

« **إن الشيطان واضع خطمه في قلب ابن آدم، فإذا ذكر خنس، وإذا نسي التقم قلبه** ». أبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٦٨ .

ولذلك كان لذكر القلب الحظ الأوفر عند الله، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: « **سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله** » ومنهم: « **ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه** ». البخاري ١/ ١٦٠ .

وكان الحليمي يقول ـ المنهاج ١/ ٥٠٤ : الذكر الخفي ضربان أحدهما الذكر في النفس لقوله: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ... ﴾ الأعراف / ٢٠٥ .

والآخر ما دار به اللسان ولم يسمعه إلا صاحبه لقول النبي ﷺ : « **خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي** » أحمد ١/ ١٨٧ .

فإذا عرف محل الذكر، كان من حق العبد أن يحافظ عليه، فما زال يذكر حتى يبرئ من النفاق لقوله ﷺ: «**من أكثر ذكر الله برئ من النفاق**» الطبراني/ ٧٧ ولقوله ﷺ : « **إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة** » رواه مسلم في صحيحه ٢/ ٢٠٧٥ .

ولقوله ﷺ : «**إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس، وجلاؤها الاستغفار**» رواه الطبراني ١/ ١٨٤ .

وعن ابن عباس قال: ما من مولود إلا على قلبه الوسواس فإذا ذكر الله خنس، وإن غفل وسوس، وهو قوله عز وجل: ﴿ ... الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾



الناس / ٤ . ومن محافظة أبى عبيدة قوله: (ما دام الرجل يذكر فهو فى صلاة، وإن تحرك اللسان والشفتان فذلك أعظم) (الإمام أحمد فى الزهد ٣٨١).

ومن علاجات الإمام الحسن أن جاءته امرأة، فقالت: يا أبا سعيد إنى إذا أتيت الذكْر رق قلبى، وإذا تركته أنكرت نفسى، قال: اذهبى حتى يصلح قلبك. ويوم أن جاءه رجل يقول: يا أبا سعيد أشكو إليك قساوة قلبى ، قال: أدّبه بالذكر.. وفى رواية: أدّبه من الذكر.

ومن تذوقات الذاكرين

قول مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل (أبو نعيم فى الحلية ٢/ ٣٥٨) .

ودعاء يحيى بن معاذ: يامَن ذكره أعزّ علىّ من كل شئ لا تجعلنى بين أعدائك أذل من كل شئ. إلهى أدعوك فى الملأ كما يدعى الأرباب وأدعوك فى الخلاء كما يدعى الأحباب:

أقول فى الملأ يا إلهى! .

وأقول فى الخلاء يا حبيبى! .

وقول ذى النون: إلهى أنا لا أصبر عن ذكرك فى الدنيا فكيف أصبر عنك فى الآخرة.

وجعل العلماء الغافلين عن ذكر الله،هم المعادين لله تعالى بل هم أشد الناس عداوة لربهم وذلك لابتعادهم عن مخاطبة الرب، وقسوة قلوبهم بذكر سواه، ويزدادون عداوة من ربهم حينما يكرهون من يذكر الله، ويبغضون الذاكرين، فعن الأوزاعى قال: قال حسان رضي الله عنه :

ما عادى ربه بشئ أشد عليه
من أن يكره ذكره أو مَن يذكره

ونختم بما أورده ابن القيم فى المدارج عن حظ القلب من ذكر الله تعالى:

* الذكر عبودية القلب واللسان وهى غير مؤقتة بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم فى كل حال قياماً وعلى جنوبهم فالقلوب بور وخراب وهو عمارتها وأساسها.

* وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها وكلما ازداد الذاكر فى ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً.

* ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم وقلوبهم فيها كالأموات فى القبور كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم
وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وخشة من جسومهم
وليس لهم حتى النشور نشور

٥ـ قلوب الخائفين

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران / ١٧٥ .

ويقول تعالى: ﴿ ... فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ... ﴾ المائدة / ٤٤ .

ويقول تعالى: ﴿ ... وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ البقرة / ٤٠ .

والخوف على وجوه:

الأول: ما يحدث عن معرفة العبد بذلة نفسه وهوانها وقصورها كما فى قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح / ١٣ .

أى لا تخافون لله عظمة.

والثانى: ما يحدث من المحبة وهو أن يكون العبد فى عامة الأوقات وجلاً من أن يكله إلى نفسه ويمنعه مواد التوفيق ويقطع دونه الأسباب كما فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ...﴾ آل عمران / ٨ ، فإن الله أثنى على الذين يدعونه بذلك، لأنهم لا يدعون بهذا الدعاء إلا وهم خائفون على الهدى الذى أكرمهم به الله تعالى أن يسلبهم إياه.

والثالث: ما يحدث من الوعيد كما فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ...﴾ النساء / ١ .

وفى قوله تعالى : ﴿... وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ البقرة / ٤١ .

وفى قوله تعالى : ﴿ ... قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ... ﴾ التحريم / ٦ .

فأمر بالتقوى وهى أن يقى المخاطبون أنفسهم من نار جهنم بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ومعنى﴿ اتَّقُونِ ﴾ اتقوا عذابى ومؤاخذتى.



وفيما أخرجه الحاكم ٢/ ٣٥١ وصححه ابن عباس قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا . . .﴾ التحريم / ٦ ، تلاها رسول الله ﷺ على أصحابه ذات ليلة. فخر فتى مغشياً عليه فوضع النبى ﷺ يده على فؤاده فإذا هو يتحرك فقال : « **يا فتى قل لا إله إلا الله**» فقالها، فبشره بالجنة فقال أصحابه: يا رسول الله أمن بيننا ؟ فقال ﷺ : « **أما سمعتم** قوله تعالى: ﴿ . . . ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ إبراهيم / ١٤ .

وكل هذه الوجوه تدل على أن محل الخوف القلب، فقد أخرج ابن المبارك في زيادات الزهد ٣٥ـ ١٣٩عن السدى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . .﴾ الأنفال / ٢ .

قال: إذا هم بمعصية أو ظلم أو نحو هذا قيل له: اتق الله، وجل قلبه. وفيما صححه الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله قول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ المؤمنون / ٦٠ .

أهو الذى يزنى ويشرب الخمر؟ وفى رواية: أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل؟ قال: « **لا يا بنت الصديق؟ ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق وهو يخاف أن لا يقبل منه** » وفى رواية: « **وهو مع ذلك يخاف الله عزوجل** » وفى (زهد الإمام أحمد ٢٨٦) قول الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ المؤمنون / ٦٠ .

قال: كانوا ما يعملون من أعمال البر وهم مشفقون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله عز وجل.

وكأنى ببلال بن سعد وهو يقول: أشفقوا من الله، واحذروا الله، ولا تأمنوا مكر الله ولا تقنطوا من رحمة الله. (أبو نعيم فى الحلية ٥/ ٢٣٢).

وفيما أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم (١/ ٢٦٤) عن مطرف عن أبيه قال :

رأيت رسول الله ﷺ يصلى وفى صدره أزيز كأزيز الرّحى من البكاء..
وإنما ذلك من شدة معرفته بالله عز وجل وخوفه منه.

*** فما موت قلوب الخائفين ؟**

فى باب الرقائق أخرج البخارى (٧/ ١٨٦) عن أبى هريرة قول



رســـول اللـــه ﷺ: « **لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً** ».

وأخرجه الحاكم (٢/ ٥١٠) عن أبى ذر قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ** ...﴾ الإنسان / ١ ، حتى ختمها ثم قال:

« **إنى أرى مالا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط ، وما فيها موضع قدر أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته وهو ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفُرش ، ولخرجتم إلى الصُّعَدات تجأرون إلى الله عز وجل** ».

وقد سئل الجنيد: هل يسقط الخوف عن العبد؟ قال : (لا ما كان العبد أعلم بالله كان له أشد خوفاً) والخائفون على طبقات: خائف من الإجرام، وخائف من الحسنات أن لا تقبل ، وخائف من العواقب. قال تعالى: ﴿ **وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا** ﴾ الشمس/ ١٥.

وما أجمع قول أبى سليمان: (أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى) (حلية الأولياء ٩/ ٢٥٩).

ولذلك انقلب خوفهم تشميراً واجتهاداً وطاعة وسعياً فى الخيرات تحقيقاً لقول النبى ﷺ: « **من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا وإن سلعة الله لغالية ، ألا إن سلعة الله الجنة** » (الترمذى ٤/ ٦٣٣) ويقول الجنيد: سمعت السُّرى السقطى يقول: (قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم ، وقلوب المقربين معلقة بالسوابق، أولئك يقولون: ماذا من الله سبق لنا؟ وهؤلاء يقولون: بم يختم لنا) أبو نعيم فى الحلية ١٠/ ١٢١ .

ويقول إبراهيم بن أدهم:

(الهوى يردى ، وخوف الله يشفى، واعلم أن ما يزيل عن قلبك هواك إذا خفت من تعلم أنه يراك) شعبة الإيمان البيهقى ٣/ ١٤٠ .

ويقول إبراهيم بن شيبان: (الخوف إذا سكن القلب أحرق مواضع الشهوات منه وطرد رغبة الدنيا عنه، وأسكت اللسان عن ذكر الدنيا) البيهقى ٣/ ١٤٥ .

وقال يوسف: خلق الله القلوب مساكن للذكر

وصارت مساكن للشهوات

والشهوات مفسدة للقلوب وتلف للأموال

لا يمحو الشهوات من القلب إلا خوف مزعج وشوق مُقْلق) أبونعيم فى



الحلية ٨/ ٢٣٨ .

وقال الرشيد: ما رأت عيناى مثل الفضيل بن عياض.

قال لى: وقد دخلت عليه: يا أمير المؤمنين فرغ قلبك للحزن والخوف حتى يسكناه فيقطعاك من معاصى الله تعالى. ويباعداك عن عذاب النار. البيهقى ٣/ ١٤٨ وكان أحمد بن عاصم الأنطاكى يقول: (قلة الخوف من قلة الحزن فى القلب وإذا قل الحزن فى القلب خرب كما يخرب البيت إذا لم يسكن خرب) (البيهقى ٣/ ١٤٩) .

مصداقاً لحديث النبى ﷺ عن أبى الدرداء بإسناد حسن: « **إن الله يحب كلَّ قلب حزين** ».

وتفسير ذلك فى حوار لطيف بين الجنيد والشبلى: قال الجنيد: من كان الله همه طال حزنه، فقال الشبلى: لا أبا القاسم بل من كان الله همه زال حزنه.

قال البيهقى: للفصل فى هذا الحوار بين الجنيد والشبلى وهو يعلق: قول الجنيد محمول على ذكر الدنيا وقول الشبلى محمول على الآخرة ، وقول الجنيد محمول على حزنه عند رؤية التقصير من نفسه فى القيام بواجباته، وقول الشبلى محمول على سروره بما أُعطى من التوفيق فى الوقت حتى جعل الهم هماً واحداً ... والله أعلم .

ومن فقه إبراهيم التيمى فى ذلك قوله:

ينبغى لمن لم يحزن أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا: ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ... ﴾ فاطر / ٣٤ .

وينبغى لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا:

﴿ ... **إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ** ﴾ الطور / ٢٦ .

وامتلأت قلوبهم بالطاعات، فسارت بالصفاء سيراً حثيثاً تخشى الله وتخافه، رحم الله أبا سفيان بن عيينه وهو يصفهم قائلاً:

(أقلهم ذنباً أخوفهم لربه عز وجل لأنه أصفاهم قلباً)

حتى يحقق الله فيهم قولهم: حقيقة الخوف ألا تخاف مع الله أحداً.

فانظر أيها الحبيب إلى قلبك.. وموقعه من الخوف وكيف يكون من القلوب الخائفة.. وقد أفصح الحارث المحاسبى وهو يقول عند ذكر البلاء:

هو للمخلصين عقوبات



وكذلك قلوب الخائفين درجات إن شاء الله..
وما أحكم ما قاله الإمام ابن القيم فى مدارجه :
(قال أبو حفص: الخوف سراج فى القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل فإنك إذا خفته هربت إليه فالخائف هارب من ربه إلى ربه) .

وقال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب ، وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فما زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

٦ـ قلوب الشاكرين

*** الشاكر حبيب الرحمن :**

يقول الله تعالى: ﴿ **مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ** ... ﴾ النساء / ١٤٧ ، فقرن الله الشكر بالإيمان ورفع بوجودهما العذاب. وقال تعالى: ﴿ **وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**... ﴾ آل عمران / ١٤٥ ، وقد أمر الله تعالى: بالشكر وقرنه بالذكر فى قوله تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُون** ﴾ البقرة / ١٥٢ ، وفى أحد الوجوه من قوله عز وجل ﴿ ... **لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ الأعراف / ١٦ ، قال: طريق الشكر، فلولا أن الشكر طريق يوصل إلى الله تعالى لما عول العدو على قطعه ولولا أن الشاكر حبيب رب العالمين ما طعن إبليس اللعين فى قوله تعالى: ﴿ ... **وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ الأعراف / ١٧ ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ ... **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ سبأ / ١٣ ، .

* ما معنى (المزيد مع الشكر) ولم يستثن فيه فقال تعالى ﴿ ... **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ إبراهيم / ٧ ، فالشاكر على مزيد والشكور فى نهاية المزيد وهو الذى يكثر شكره على القليل ويتكرر منه الشكر والثناء على الشئ الواحد من النعم.. (وقد يكون المزيد أخلاقاً وقد يكون علوماً وقد يكون فى الآخرة وتثبيتاً عند فراق العاجلة) وقد جعل الله تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فى قوله تعالى: ﴿ ... **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ يونس / ١٠ ، فلولا أنه

أحب الأعمال إليه ما أبقاه عليهم لديه.

* وأول الشكر (معرفة النعم أنها من المولى وحده لا شريك له)

يقول تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ النحل / ٥٣ ، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الأنعام / ١٧ ، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الجاثية / ١٣ ، وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ لقمان / ٢٠ .

**** شكر القلب**

ومشاهدة المنعم فى النعمة وظهور المعطى عند العطاء حتى ترى النعمة منه والعطاء عنه هو(شكر القلب) وهو موضوعنا وبحثنا ومقصودنا فى التحقيق (فما معنى شكر القلب؟) عند الشاكرين معنى شكر القلب(معرفة القلب ووصفه لا وصف اللسان) ففى حديث النبى ﷺ عن ثوبان وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما حين نزل فى الكنوز ما نزل سأله عمر: أى المال نتخذ؟ فقال: « **ليتخذن أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً** » فدله على أن الشكر يقتنى كمال الآخرة خير من مال الدنيا واقتنائه.

وإذا كان شكر اللسان فى:

(حسن الثناء على الله تعالى وكثرة الحمد والمدح له وإظهار إنعامه وإكرامه ونشر أياديه وإحسانه وأن لا يشكو المالك إلى المملوك ولا المعبود الجليل إلى العبد الذليل: وأن يشكره على القليل لأن القليل من الحبيب كثير) فشكر القلب فى:

كيف يكون القلب شاكراً؟

أولاً: شهادة يقين:

فيعلم أنه خلقة الله وصنعته والرب صانعه ومالكه، فإذا شهد هذه الشهادة رأى الله عز وجل عليه كل شئ فرضى منه بأدنى شئ ولم ير له على الله تعالى شيئاً فلم يقنع لله تعالى منه بشئ ولم يطالب مولاه بشئ قال بعض العلماء: شكر القلب المعرفة بأن النعم من المنعم لا غير.

ثانياً: ظهور الشكر وغلبته فى القلب

ويكون شكر الله تعالى لعبده كشفه له ما ستره عنه وإظهاره له ما حجبه منه

من العلوم والقدر وهو المزيد فيزداد معرفة بالله سبحانه .

**** من الشكر العمل :**

* يقول الله تعالى: ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾ سبأ / ١٣ ، فدل على أن الشكر للمنعم يكون بالعمل فمن الشكر العمل... ولما عوتب النبى ﷺ فى اجتهاده مع أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: « **أفلا أكون عبداً شكوراً** » فأخبر أن المجاهدة وحسن العمل شكر لله وجزاء المنعم .. ولذلك قيل أن (حقيقة الشكر) فى التقوى وهو اسم يستوجب جملة العبادة التى أمر الله بها عباده فى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ البقرة / ٢١ ، ثم أخبرنا الله تعالى على أن التقوى هى الشكر فقال سبحانه: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾آل عمران / ١٢٣ ، .

* ومن أقوى المعانى فى قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ الشعراء/ ٨٨ : ٨٩ ، قيل سالم من الشك والشرك والسالم الصحيح المعافى وبوجود عافية اليقين فى القلوب وعدم الشك والنفاق وهما من أمراض القلوب كما قال تعالى: ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ البقرة / ١٠ ، قيل شك ونفاق يقال: ما من مصيبة إلا ولله تعالى فيها خمس نعم :

أولها : لم تكن فى الدين

والثانية: ما لم تكن أكبر منها

والثالثة: أنها كانت مكتوبة عليه لا محالة فقد نفذت

والرابعة: أنها عجلت له فى الدنيا ولم تؤجل فى الآخرة

والخامسة: ثوابها خير منها.

وفى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** ﴾ العاديات / ٦ ، قيل هو الذى يشكو المصائب وينسى النعم ولو علم أن مع كل مصيبة خمس نعم وزيادة قلت شكواه وبدلها شكراً وإذا كانت المصائب على ثلاثة أقسام: إما درجة وإما كفارة وإما عقوبة ، فعجلة فى الدنيا رحمة ونعمة، فدل ذلك على أن كل المصائب نعم من الله تعالى... ومعرفة هذه النعم هى طريق الشاكرين.

**** شكر نعمة الإيمان :**

ومن أفضل النعم عند العلماء (نعمة الإيمان) ثم دوامه ودوام الشئ نعمة

ثانية، فنعم الله لا تحصى بدوام الإيمان وثباته فى القلب ، وهذا من فضل الله ورحمته وهذا أحد الوجوه فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ عبس / ٢٣ ، أى لا يقضى العبد أبداً شكر ما أمره الله تعالى من نعمة الإيمان ودوامه وثباته ومن هذا قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ المجادلة / ٢٢ ، أى قواهم بمدد يثبته ويكفيه وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ إبراهيم / ٢٧ .

وهذا سر دعاء النبى ﷺ « **يا مقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك** »... ولكن ما علاقة ذلك بالشكر القلبى؟ إن معرفة هذه النعمة العظيمة اللطيفة تستخرج من القلب خوف سوء الخاتمة لمشاهدة سرعة تقليب القلب بالمشيئة وذلك مزيد شكرها. فمعرفة ذلك هو من شكر نعمة الإيمان، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان يوجب العقوبة، وكل ما يكون عليه المؤمن من معرفة بالتقصير عن الشكر والاعتذار من قلة الشكر والمعرفة بعظم النعم والاعتراف بما أعطى من حسن الثناء كل ذلك هو شكر لله تعالى. وبتحقيق نعم الإيمان فى القلب تتوالى النعم مع توفيق للحسنى وتيسير لليسرى. وصرف الكفر وأخلاق الكافرين وأعمالهم، وتزيين القلب بالإيمان وتحبيبه إليه وتكريه الفسوق والعصيان فضلاً من الله ونعمة.. وشكره لا يقام إلا بما وهب أيضاً وأنعم به من المعرفة بذلك والمعونة عليه والحياء من تتابع هذه النعم.

* * وأخيراً.. المقربون فى سيرهم فى منازل القرب من الله يحتاجون إلى صبر وشكر معاً.. فأحدهما لا يتم إلا بالآخر، لأن الصبر يحتاج إلى شكر عليه ليكمل والشكر يحتاج إلى صبر عليه ليستوجب المزيد، وقد قرن الله تعالى بينهما فى قوله:﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إبراهيم / ٥ ، وقد جاء الصبر والشكر على صيغة المبالغة أى من حققهما بمعانيهما وجوهرهما وحضور القلب فى أدائهما وعملهما..

فالشاكر أيقن بالنعمة أنها من المنعم وأيقن بإنجاز الله ما وعد من المزيد فشكر، كما أيقن الصابر بمسه بالبلاء لأنه هو المبتلى، وهكذا قلوب الموقنين صبر عند البلاء وشكر عند الرخاء.. وهكذا تتحرك قلوب الشاكرين.



**** منازل الصابرين عند الله :**

يقول تعالى: ﴿ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ السجدة / ٢٤ ،

ويقول تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ الأعراف / ١٣٧ ، فجعل الله تعالى الصابرين أئمة المتقين وتمم كلمته الحسنى عليهم فى الدين، يقول على كرم الله وجهه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له، ولذلك رفع الله من شأن الصبر وقرنه باليقين فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾السجدة / ٢٤ ، وبين النبى ﷺ أنه فيه الفلاح والنجاح حينما تهاجم الفتن قلوب العباد فقال ﷺ محذراً: « **ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه** » ثم قرأ ﴿وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ التوبة / ١٢١ ، رواه شهر بن حوشب عن أبى أمامة الباهلى.

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا . . .﴾القصص / ٥٤ .

وقال عز وجل: ﴿ . . إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ . .﴾ الزمر / ١٠ .

فضاعف أجر الصابرين على كل عمل ثم دفع جزاء الصبر فوق كل جزاء فجعله بلا نهاية ولا حد، وقد أخبر الله تعالى أنه مع الصابرين ومن كان الله تعالى معه غلب كما أن من كان معه علا فقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنفال / ٤٦ .

بل إنه تعالى اشترط الصبر للإمداد بجنده ونصره وتأييده يقول تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ آل عمران / ١٢٥ . ولسنا بصدد الحديث عن فضيلة الصبر بقدر مانحن نتلمس حركة القلب الصابر وعمله وفقهه ليكون دافعاً إلى العمل وحوز القرب من المحبوب .

**** تصبر على ماذا ؟**

كان سهل يقول : الصبر تصديق الصدق وأفضل منازل الطاعة الصبر على

المعصيـة ثـم الصبر على الطـاعـة، وقـال فى معنـى قولـه تعالى: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ الأعراف / ١٢٨ ، أى استعينوا بالله على أمر الله واصبروا على أدب الله. وقال: لم يمدح الله تعالى أحداً إلا من صبر للبلاء والشدة فبذلك يثنى عليه، فالصالحون فى المؤمنين قليل والصادقون فى الصالحين قليل، والصابرون فى الصادقين قليل، وعن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا فقال عمر رضي الله عنه : نعم يا رسول الله، قال: وما علامة إيمانكم؟ قال: نشكر فى الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة. ويقول أبو طالب المكى: الصبر ينقسم على عملين:

أحدهما : لا صلاح للدين إلا به فيكون صابراً على الذى فيه صلاح الدين فيكمل به إيمانه.

والثانى : هو أصل فساد الدين فيكون صابراً على الذى فيه فساد الدين فيحسن به يقينه.

وكان من أحسن أقوال أبى الدرداء رضي الله عنه : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالمقدور، مما دفع بعض العلماء إلى قولهم: ما كنا نعد إيمان من لم يؤذ فيحتمل الأذى ويسير عليه إيماناً، وقد فعل الله تعالى ذلك بالمؤمنين اختباراً وأخبر أن ذلك ليس منه عذاباً وإنما هو فتنة وابتلاء فصار رحمة للمؤذى وخيراً فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ العنكبوت / ١٠ ، له يعنى فتنة الناس به كعذاب الله تعالى إياه أى ليس عذاباً منى وإنما هو رحمة باطنة كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ ﴾ الفجر / ١٦ : ١٧ ، أى لم أهنك بالفقر كما لم أكرم الآخر بالاكرام والتنعيم، وعلى معنى هذا خاطب نبيه ﷺ بالصبر الذى أمره به فقال تعالى: ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ص/ ١٧ ، فسلاه به وفضله عليه.

**** معنى صبر القلوب :**

يقول أبو طالب المكى: معنى الصبر: حبس النفس عن السعى فى هواها ووحبسها أيضاً عن مجاهدتها لمرضاة مولاها بمثل ما يوجب المجاهدة على قدر ما يبتلى به العبد، لأن المجاهدة على قدر البلاء، وأيضاً حبس النفس على دوام

الطاعة وصبرها عن شره الطبع الذى يظهر سوء الأدب بين يدى الرب سبحانه وصبرها على حسن الأدب فى المعاملة.

لقد قال الله تعالى فى جزاء المخلصين: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات / ٤١ ، وقال تعالى فى جزاء الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزمر / ١٠ ، والمعنى فى ذلك أن الصبر أشق شئ على النفس وأكرهه وأمرّه على الطبع وأصعبه، فيه الألم والكظم عند الذل والحلم والتواضع منه والكتم وفيه الأدب وحسن الخلق وبه يكون كف الأذى عن الخلق واحتمال الأذى من الخلق.. وهذه من عزائم الأمور التى تضيق منها أكثر الصدور إلا قلوب الصابرين.. وفيه إكراه النفس وحملها على الشدة والبؤس وأفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ولذلك اشترط الله تعالى على المتقين والصادقين الصبر فى الشدائدوالمكاره، فحقق بالصبر صدقهم وتقواهم وأكمل به وصفهم فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ المتقون / ١٧٧ .

**** صبر القلب :**

١ـ عن الخطرات والأهواء :

وهو صبر على الثبات فى خدمة المولى فتنصرف الهمة إلى الله ويطهر القلب من خطرات الهوى ونزعات الأعداء وتزيين الدنيا.

٢ـ حبس النفس على الحق وعكوفها عليه، وعلى عبادة الخالق سبحانه، حتى تقنع وترضى برزقه.

٣ـ تحقيق الآية الجامعة التى قال فيهاابن مسعود رضي الله عنه : أجمع آية فى كتاب الله لأمر ونهى..هى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ...﴾ النحل / ٩٠ ، ففيها : الصبر على كف الأذى عن الخلق وهو العدل ثم احتمال الأذى عن الخلق وهو الإحسان، ثم الصبر على الإنفاق وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم وهو ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ النحل / ٩٠ ، ثم الصبر على الفحشاء والصبر على المنكر والصبر عن البغى.

ولا يستقيم الصبر إلا بثلاثة: صبر أول العمل على تصحيح النية وعزم ووفاء حتى تصلح الأعمال ، ثم صبر أثناء العمل بالتأنى فيه حتى يتم ثم صبر بعد العمل على كتمه وترك النظر إليه ليخلص من السمعة والعجب فيكمل

ثوابه كما خلص من الرياء، يقول تعالى: ﴿ ... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ محمد / ٣٣ ، يقول السلف: لا يتم المعروف إلا بثلاث تعجيله وتصغيره وكتمه.

٤ـ الصبر على الأذى وحبس النفس عن المكافأة وتحمل الاذى لقوله تعالى: ﴿ ... وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ إبراهيم / ١٢ ، وقد قيل: لا يثبت للعبد مقام فى التوكل حتى يؤذى ويصبر على الأذى.

٥ـ حبس النفس على التقوى ، لقوله تعالى: ﴿ ... مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يوسف / ٩٠ ، وقوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾آل عمران / ١٨٦ .

والتقوى والصبر فى قلب المؤمن لا يفترقان، فقد قيل لسفيان الثورى: ما أفضل الأعمال قال: الصبر عند الابتلاء وقال العلماء: وأى شئ أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كتابه فى نيف وتسعين موضعاً ولا نعلم شيئاً ذكره الله هذا العدد إلا الصبر.

٦ـ الصبر على العوافى: فالصبر على الغنى ألا يبذله فى الهوى والصبر على النعمة أن لا يستعين بها على معصية، يقال أن البلاء والفقر يصبر عليها المؤمن والعوافى لا يصبر فيها إلا صديق ، وكان سهل يقول: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء وكذلك قالت الصحابة رضوان الله عليهم : لما فتحت الدنيا فنالوا من العيش واتسعوا:ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة الضراء فلم نصبر.

٧ـ كتمان المصائب والأوجاع : وترك الشكوى بهما فذلك هو الصبر الجميل، قيل: هو الذى لا شكوى فيه ولا إظهار. وقد اشترط النبى ﷺ لنجاح الصبر أن يكون عند الصدمة الأولى، والسر فى ذلك يفصله العلماء بقولهم: فأما اشتراط الصبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فى قول النبى ﷺ إنما الصبر عند الصدمة الأولى فلأنه يقال إن كل شئ يبدو صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر فاشترط لعظم الثواب لها عند أول كبرها قبل صغرها وهى صدمة القلب أول ما يبغته الشئ فينظر إلى نظر الله تعالى فيستحى منه فيحسن الصبر.

٨- الصبر على الله: بالمجالسة له والإصغاء إليه وعكوف الهم عليه وحياء منه أو حباً له وتسليماً أو تفويضاً إليه، وهو سكون القلب لجريان الأقدار، وشهودها من الإنعام، يقول تعالى: ﴿ ولِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ المدثر / ٧ ، ويقول تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ الطور / ٤٨ ، ومن هذا النوع الصبر على إخفاء أعمال البر والصدقات، وصون الفقر وإخفاؤه والصبر على بلاء الله تعالى فى مفاجآت الفاقات، وحبس النفس عن حب المدح والحمد والرياسة.

٩- الصبر على الأبناء: فى الكسب لهم والإنفاق عليهم واحتمال الأذى منهم، فكما قيل: أن أكثر معاصى العباد فى شيئين قلة الصبر عما يحبون أو قلة الصبر على ما يكرهون .. لقوله تعالى: ﴿ ... وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ البقرة / ٢١٦ ، فقرن الله بين الكراهة والخير وبين المحبة والشر. قال بعض العارفين: الصبر على ثلاثة معان فقال: أوله ترك الشكوى والثانية: الرضا بالمقدور، والثالثة: المحبة لما يصنع به مولاه.

وأخيراً:

من يعظم الصبر ويحقق محبته لله تعالى، كان أشد تعظيماً لشعائر الله عز وجل ومن عظم شعائر الله فهو أتقى لله تعالى ﴿ ...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ... ﴾ الحجرات / ١٣ ،

والصبر مقام أولى العزم من الرسل الذين أمر النبى  بالقدوة بهم وباهى الله تعالى بهم رسوله فقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ... ﴾ الأحقاب / ٣٥ ، وبالصبر يدخل المؤمنون الجنة من باب الصابرين فكما قيل: إن لأبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء، وهكذا تتحرك قلوب الصابرين نحو ربها، والطريق مفتوح أمام من يحاول ومن لم يصبر فليتصبر بمعنى مجاهدة النفس وحملها على الصبر وترغيبها فيه وهو التعمل للصبر والتصنع للصبور، ويشغل قلبه عن شهواته بالتصبر عن الحلال فينقاد القلب بالصبر عن فضول الشهوات، ويترك القلب الهوى طمعاً فيما عند الله تعالى، وما أعده للصابرين من أفضال لا تحصى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بسكينة من الله تعالى وتصبر بقوة به عز وجل وعناية منه ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ... ﴾ النحل / ١٢٧ .

٨ـ قلوب الراضين

* **أحسن الرضا** : مَنْ أحسن الرضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه فقابل الرضا بالرضا وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء وهى قوله عز وجل: ﴿ ... رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ... ﴾ البينة / ٨ ، وقد رفع الله الرضا على جنات عدن وهى أعلى من الجنان، فقال تعالى: ﴿ ... وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... ﴾ التوبة / ٧٢ .

كان عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحت وما لى سرور إلا فى مواضع القضاء، فالراضون عن الله عز وجل هم الذاكرون لله بما يحب ويرضى فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر وهذا أحد المعانى فى قوله: (**من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أُعطى السائلين**): أى الرضا عنه لأن السائلين يسألونه لهم فأعطاهم العفو والذاكرون ذكروه فأعطاهم الرضا عنه عز وجل.

وفى الخبر أن الله يتجلى للمؤمنين فيقول: سلونى فيقولون رضاك فسؤالهم الرضا بعد النظر تفضيل عظيم للرضا ولأن بالرضا دام لهم النظر لما كان الرضا موجب النظر سألوا دوام الرضا ليدوم القرب والنظر.

* **معنى الرضا** : فى وصية لقمان لابنه جعل الرضا شرط الإيمان لا يصلح إلا به فقال فى وصيته: للإيمان أربعة أركان لا يصلح إلا بهن كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين ذكر منهما الرضا بقدر الله. وقيل من رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضي الله عنه بالقليل من العمل. وفى أخبار موسى عليه السلام أن بنى إسرائيل قالوا: سل ربك أمراً إذا فعلناه يرضى به عنا قال موسى إلهى قد سمعت ما يقولون فقال: يا موسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم.

** **رضا القلب** :

١ـ سرور القلب بالمقدور : فى جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها فى كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع ومهلع من أمور الدنيا، وقناعة العبد بكل شئ واغتباطه بقسمة ربه وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلام العبد للمولى فى كل شئ رضاه منه بأدنى شئ وتسليمه الأحكام والقضايا باعتقاد

حسن التدبير وكمال التقدير فيها وأن لا يشكو الملك السيد إلى العبدالمملوك، ولا يتبرم بفعل الحبيب، ولا يفقد فى كل شئ حسن صنيع القريب.

٢ـ ومن معانى الرضا عند أهل الرضا ألا يقول العبد هذا يوم شديد الحر ولا هذا يوم شديد البرد ولا يقول الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والعمل الحرفى تعب ومشقة بل يرضى القلب ويسلم ويرضى ويسكن ويستسلم لوجود حلاوة التدبير واستحسان حكم التقدير، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما أبالي على أى حال أمسيت شدة أو رخاء، ويقول ا لفضيل بن عياض: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى وذلك عندما سئل: متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى؟ .

وفى أخبار داود: ما لأوليائى والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم، فكما قيل الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، فالفرح بالدنيا يخرج هم الآخرة من القلب والغم على الدنيا يحجب عن الحزن على فوت الآخرة، والمخرج أن تعيش مع الله، فكما قال أبو محمد سهل: حظ الناس من الرضا على قدر عيشهم مع الله.

٣ـ ألا تذم شيئاً مباحاً ولا تعيبه : إذا كان بقضاء مولاه، شاهداً للصانع فى جميل الصنعة، ناظراً إلى إتقان الصنع والحكمة، حتى أن بعض العارفين جعل هذه الأشياء فى باب الحياء، ومنهم من قال هى من باب حسن الخلق ، ومنهم من قال: هى من باب الأدب بين يدى اله تعالى، فذم الأشياء بهذا المفهوم وعيبها من سوء الخلق مع الله أو من سوء الأدب بين يدى الله وأعظم من ذلك أنها تدخل فى باب قلة الحياء مع الله.

وبعض الراضين يجعل ذم الأشياء وعيبها بمنزلة الغيبة لصانعها لأنها صنعته ونتاج حكمته ونفاذ علمه وحكم تدبيره، وذلك أن الراضى عن الله متأدب بين يدى الله يستحى أن يعارضه فى داره أو يعترض عليه فى حكمه. ذكر أبو طالب المكى: كان عمران بن حصين استسقى بطنه فلبث ملقى على ظهره ثلاثين سنة سطيحاً لا يقوم ولا يقعد فدخل عليه مطرف فجعل يبكى لما يرى من حاله فقال: لم تبكى فقال لأنى أراك على هذه الحال العظيمة، فقال: لا تبكى فإن أحبه إلىَّ أحبه إلى الله، ومن ذلك لم يكن هذا البلاء عقوبة وإنما آية الله تعالى فى رضاه بهذا العمق هو بلاء درجة ورحمة حيث توجد

عنده حلاوات ومزيد القلوب من نسيم ريحان الغيوب ومن إنشاد بعض المحبين :

يا حبيباً بذكره نتداوى
وصفوه لكل داء عجيب
من أراد الطبيب سُر إذا
اعتل اشتياقاً إلى لقاء الطبيب
من أراد الحبيب سار إليه
وجفا الأهل دونه والقريب
ليس داء المحب داء يداوى
إنما برؤه لقاء الحبيب

اجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثورى ويوسف بن أسباط فقال الثورى: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم فأما اليوم فوددت أنى مت، فقال له يوسف ولم؟ قال: لما أتخوف من الفتنة، فقال يوسف: لكنى لا أكره طول البقاء فقال الثورى ولم تكره الموت؟ قال: لعلى أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً فقيل لوهيب: أى شئ تقول أنت؟ فقال: (أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إليْ أحبه إلى الله) فقبل الثورى ما بين عينيه وقال روحانى ورب الكعبة. (فالراضى عن الله موافق فيما حكم ومتبع له فيما رسم ومسلم له فيما قدر وعالم منه راض بما دبر ومستعمل لما شرع ومواطئ لرسوله ﷺ يذم ما ذمه مولاه ويمدح ما يمدحه لأجل مولاه لا لأجل نفعه إياه، والتحدث بالأوجاع والإخبار عن المصائب لا ينقص حال الراضى إذا رأها نعمة من الله عليه، وكان القلب مسلماً راضياً غير متبرم بمر القضاء.

**** حقيقة الرضا الصحيح**

* الرضا داخل فى كل أفعال الله سبحانه لأنها عن قضائه، لا يكون فى ملكه إلا ما قضاه فعلى العارفين به الرضا بالقضاء ثم يرد ذلك إلى تفصيل العلم وترتيب الأحكام، فما كان من خير وبر أمر به أو ندب إليه رضى به العبد وأحبه شرعاً وفعلاً ووجب عليه الشكر، وما كان من شر نهى عنه وتهدد عليه فعلى العبد أن يرضى به عدلاً وقدراً ويسلمه لمولاه حكمة وحكماً، وعليه أن يصبر عنه ويقر به ذنباً ويعترف به لنفسه ظلماً ويرضى بعود الأحكام عليه

بالعقاب وإنه اجترحه بجوارحه إكتساباً ورضا بأن لله الحجة البالغة عليه وألا عذر له فيه ويرضى بأنه فى مشيئة الله عز وجل من عفو عنه برحمته وكرمه إن شاء أو عقوبة له بعدله إن شاء، وفصل الخطاب أن حقيقة الرضا أن يرضى العبد سوء القضاء ويرضى به عن الله ولا يرضى به من نفسه ، لأن الموقنين والمحسنين لا يسقطون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا ينكرون إنكار المعاصى وكراهتها بالألسنة والقلوب ، من قبل أن الإيمان فرضها والشرع ورد بها ولأن الحبيب كرهها ، فكانوا معه فيما كره كما كانوا معه فيما أحب، ومقام اليقين لا يسقط فرائض الإيمان ، ومشاهدة التوحيد لا تبطل شرائع الرسول ولا تسقط اتباعه، فمن زعم ذلك فقد افترى على الله ورسوله وكذب على الموقنين والمحبين، فقد ذم الله قوماً رضوا بالدنيا ورضوا بالتخلف عن المسارعة فى الخيرات فقال تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ يونس / ٧ ، وقال تعال: ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ. . .﴾التوبة / ٨٧ ، يعنى النساء ﴿. . . وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة ٨٧ .

* والرضا لا يصح إلا فيما يحسن الصبر عليه والشكر عليه لأن الرضا فوق الصبر والشكر، فأما إذا كان العبد على نقصان من الدين وفى مزيد من الدنيا ثم رضى بحاله، فرضاه شر من أعماله لمخالفة الأمر، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ. . . ﴾ آل عمران / ١٣٣ ، ويقول تعالى: ﴿. . . وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ المطففين / ٢٦ ، ويقول تعالى: ﴿. . .يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ المؤمنون / ٦١ ، .

وهذا المعنى كان وراء سر (سرى السقطى) وسبب تركه للسوق وزهده فى الدنيا قوله: (الحمد لله) لأنها كلمة رضا ظهرت منه فى موضع الاسترجاع للمصيبة ذلك بأنه بلغه أن الحريق التهم جميع الدكاكين إلا دكانه فقال: الحمد لله ثم تفكر فى ذلك فقال: قلت الحمد لله فى سلامة مالى وهلاك أموال إخوانى المسلمين فتصدق بجميع ما فى دكانه كفارة لكلمته هذه ، وخرج من السوق فشكر الله فعله فزهد فى الدنيا ورفعه الله فأوصله ترك الرضا إلى الرضا، وكان يقول: (كلمة أستغفر منها الله ثلاثين سنة) يعنى قوله: الحمد لله .

* والرضا لا يصح إلا بعصمة القلب من جميع الهوى وأول الرضا القناعة وليست القناعة فى مجئ كل ما يرغب فيه الإنسان من الدنيا لباب منزله وإنما

هى حال فى القلب يقنع بالقليل ولا يلتفت إلى كل ذلك، فعصمة القلب هى حال الراضين من الله عز وجل، وهى ظاهر الرحمة والرحمة أول الرضا من الله تعالى، لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ يوسف / ٥٣ ، ويقول تعالى: ﴿... لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ...﴾ هود / ٤٣ .

٩ـ قلوب الزاهدين

(الزاهد حبيب الرحمن)

* سمى الله تعالى أهل الزهد علماء بقوله تعالى إذ وصف قارون ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ...﴾ القصص / ٧٩ ، إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ ...﴾ القصص / ٨٠ ، قيل هم الزاهدون فى الدنيا ثم قال عز وجل ﴿وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ القصص / ٨٠ ، أى عن زينة الدنيا فقد حصل للزاهد أجران بصبره على الفقر وبوجود زهده.

وقد سمى الله الفقراء الزاهدين محسنين ووضع عنهم السبيل فقال تعالى: ﴿...وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ...﴾ التوبة / ٩١ ، ثم قال: ﴿...مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ...﴾ التوبة / ٩١ ، وعلى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ الكهف / ٧ ، قيل أزهد فى الدنيا.

وفى وصية لقمان لابنه: واعلم أن أعون الأشياء على الدين زهادة فى الدنيا، ويقال من زهد فى الدنيا أربعين يوماً أجرى الله تعالى ينابيع الحكمة فى قلبه وأنطق بها لسانه فمن أصبح وهمه الدنيا شتت الله تعالى عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم ينل من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة يقول تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ الشورى / ٢٠، فإذا أردت أن يحبك الله تعالى فازهد فى الدنيا، فالزهد سبب محبة الله تعالى ولذلك صار الزاهد حبيب الله تعالى، قال بعض السلف: الدنيا دنيئة وأدنى منها قلب من يحبها ولذلك كان الحسن رحمه الله تعالى يصف أشياخه (كان أحدهم يعرض عليه المال الحلال فيقال خذه



فاستعن به فيقول لا حاجة لى فيه أخاف أن يفسد على قلبى) فهذا كان له قلب صالح راعاه فخاف تغيره.

يقول وهب بن منبه قرأت فى بعض الكتب: (**يا ابن آدم إن تردنى اترك الدنيا وإن ترد الدنيا طال عناك**) ، وفى الخبر عن الله تعالى أنه أوصى إلى الدنيا: (**اخدمى من خدمنى واتعبى من خدمك**) .

*** * ماهية الزهد ؟**

(ولا يمكن للعبد أن يعرف الزهد حتى يعرف الدنيا)

أولاً : ما الدنيا ؟

١ـ جملة الدنيا فى هذه السبع يقول تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ...** ﴾ آل عمران/ ١٤، ثم قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ آل عمران / ١٤، فكانت هذه السبعة هى جملة الدنيا، فمن أحب جميعها أحب جملة الدنيا نهاية الحب، ومن أحب أصلاً منها أو فرعاً من أصل فقد أحب الدنيا، وحتى لا يلتبس الأمر بَيَّن العلماء أن الحاجات ليس بدنيا لأنها تقع ضرورات فإذا لم تكن الحاجة دنيا دل أنها لا تسمى شهوة وإن كانت قد تشتهى لأن الشهوة دنيا ولتفرقة الأسماء لا يقاع الأحكام عليها.

٢ـ الهوى هو الدنيا يقول تعالى: ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنى لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر**﴾ ثم اختصر الخمسة إلى معنين فى قوله: ﴿ **إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ﴾ محمد / ٣٦ ، واللعب هو الهوى يقول عز وجل ﴿ **... وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ** (٤٠) **فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ النازعات / ٤٠ : ٤١ ، فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى بدليل قوله تعالى: ﴿**وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** (٣٨) **فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ النازعات / ٣٨ : ٣٩ ، فلما كانت الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا، فمن نهى نفسه عن الهوى فإنه لم يؤثر الدنيا فهذا هو الزهد.

٣ـ حب البقاء هو الدنيا يقول تعالى: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ** ﴾ النساء / ٧٧ ، فالقتال فيه فراق الدنيا فقالوا هلا أبقيتنا إلى وقت آخر وهو أجلنا بالموت لا بالقتل وهذا هو (حب البقاء) ففسر حب البقاء بأنه هو الدنيا فقال تعالى: ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾ النساء / ٧٧ ، فانكشف الناس وافتضح المنافقون وابتلى المؤمنون عند

فرض القتال، وظهر المحبون الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص وعندها ربح الذين هم لأنفسهم وأموالهم بائعون، وخسر الذين هم للحياة الدنيا بالآخرة مشترون فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... ﴾ التوبة / ١١١ ، فلما اشتروها باعوها.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : ما كنت أحسب أن فينا أحداً يريد الدنيا حتى نزلت ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ آل عمران ١٥٢ ، وحين نزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ النساء / ٦٦ ، قال ابن مسعود : قال لى رسول الله ﷺ : قيل لى أنت منهم (أى من القليل الذى كان يفعل ذلك).

ثانياً : معنى الزهد :

١- فإذا كان حب البقاء هو الدنيا فينبغى أن يكون حب بقاء الباقى هو الزهد فصار الزهد فى الدنيا هو الزهد فى البقاء، فمن زهد فى الحياة الفانية وفى ماله المجموع بالجهاد للنفس والانفاق فى سبيل الله فقد زهد فى الدنيا ومن زهد فى الدنيا أحبه الله تعالى، ولذلك صار الجهاد أفضل الأعمال لأنه حقيقة الزهد فى الدنيا ولأن الله يحب من زهدفى الدنيا.

٢- ثم كان مخالفة الهوى أفضل الجهاد لأنه هو حقيقة الرغبة فى الدنيا وقد عبر به رسول الله ﷺ عن الزهد فى الدنيا .

ففى الحديث الأول: « **ازهد فى الدنيا يحبك الله تعالى**» .

وفى الحديث الثانى: « **اجتنب المحارم يحبك الله تعالى**» .

واجتناب المحارم زهد فى الدنيا، فالزاهد فى الدنيا حبيب ربه تعالى .

٣- ووفق ما ذكرناه أن حقيقة الدنيا حب البقاء لطاعة الهوى وموافقة الهوى فى حب العرض لأجل البقاء، وكان أقصر الناس أملاً للبقاء أزهدهم فى الدنيا حتى لا يدخر شيئاً لغد لأنه عنده غير باق إلى غد وصار أرغب الناس فى الدنيا أطولهم أملاً لأن رغبته اشتدت فيها وحرصه كثر عليها لامتداد أمله فى الحياة فيها.

*** حقيقة الزهد :**

١- الزهد يكون بمعنيين : إن كان الشئ موجوداً : فالزهد فيه إخراجه وخروج القلب منه ولا يصح الزهد فيه مع تبقيته للنفس لأن ذلك دليل الرغبة

فيه وهذا زهد الأغنياء.

والثانى : إن لم يكن موجوداً : وكان العدم هو الحال فالزهد هو الغبطة به والرضا بالفقد وهذا هو زهد الفقراء وكذلك الزهد فى ترك الهوى لا يصح إلا بعد الابتلاء به والقدرة عليه.

فمن أخرج الشئ من يده طوعاً ونفسه تتبعه فهو من الزاهدين ومن أمسك الشئ وأظهرت نفسه الزهد فليس من الزاهدين لأن الإمساك علامة الرغبة والرغبة ضد الزهد فكيف يوصف بالشئ وضده فى حال قائمة.

لقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول إذا قيل له إنك زاهد، قال: إنما الزاهد عمر بن عبدالعزيز جاءته الدنيا وملكها فزهد فيها فأما أنا ففى أى شئ زهدت.

٢ـ وكما أن الإيمان قول وعمل كذلك الزهد عقد وعمل:

أما العقد :

فهو خروج حب الدنيا من القلب بدخول حب الآخرة فى القلب.

وأما العمل :

إخراج المحبوب من اليد فى سبيل الله تعالى مؤثراً فى ذلك ما عند الله عز وجل. أو قرب جواره فى داره يقول إبراهيم بن أدهم: قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية: الفرح بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالمدح، فإذافرحت بالموجود فأنت حريص والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل، يقول تعالى: ﴿ **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ الحديد / ٢٣ ، أى منها وهذان الوصفان هما أتم حال فى الزهد، ومن أعطى أحدهما تبعه الآخر، لأن الذى لا يأسى على ما فاته من الدنيا هو الذى لا يفرح بما أتاه منها.

والمتزهد غير الزاهد وهو الذى يتصنع للزهد ويعمل فى أسبابه من التقلل ورقة الحال فى كل شئ فمثله مثل المتصبر الذى يجهل على نفسه الصبر ويصبرها على العلم فيكون له مقام فى الصبر.

٣ـ وصفوة الزهد :

انتظار الموت وقصر الأمل لأن فيهما ترك الادخار وتحسين الأعمال، يقول



ابن عيينة: حد الزاهد أن يكون شاكراً عند الرخاء صابراً عند البلاء، وقال بشر بن الحارث رحمه الله: الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس ومن زهد فيهم فقدزهد فى الدنيا، وقيل ليحيى بن معاذ: متى يكون الرجل زاهداً فقال إذا بلغ حرصه فى ترك الدنيا حرص الطالب لها كان زاهدا.

وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى يقول : الدنيا كل ما يشغلك عن الله تعالى فكان الزهد عنده التفرغ لله تعالى وقد قال أيضاً: إنما الزاهد من تخلى عن الدنياواشتغل بالعبادة والاجتهاد فأما من تركها وتبطل فإنما طلب الراحة لنفسه.

وكان أبو سليمان يقول: إنما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة، وذلك تفسره حكمة الحكماء فى قولهم: ما فتحت الدنيا على عبد إلامكراً به ولا زويت عنه إلا نظراً له.

*** * كيف تكون من الزاهدين ؟**

أولاً : الابتعاد عما يفسد القلب :

كان الحسن البصرى يقول:

رأيت سبعين بدرياً كانوا والله فيما أحل الله تعالى لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم، وذكر قول القائل الذى كان يعرض عليه المال الحلال فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يفسد علىَّ قلبى.

فمن كان له قلب حفظه من فساده وخاف من تغيره وإبعاده ، وعمل فى صلاحه وإرشاده ، ومن لم يكن له قلب فهو يتقلب فى ظلمات الهوى فربما انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

ثانياً : الابتعاد عن الهوى :

الدنيا هى نصيب القلب من الهوى وما دنا من قلبه من الشهوات فمن زهد فى نصيبه وملكه من هواه المذموم فهذا هو الزهد المفترض ومن زهد فى نصيبه من المباح وهو فضول الحاجة من كل شئ فهذا هو الزهد المفضل.

يقول أبو طالب المكى: (الزهد فى المحرمات هو زهد المسلمين به يحسن إسلامهم والزهد فى الشبهات هو زهد الورعين به يكمل إيمانهم والزهد فى الحلال هو زهد الزاهدين به يصفو يقينهم) وكان سهل يقول: لا يتم الزهد

حتى يزهد العبد فى ثلاث فى الدرهم الذى يريد أن ينفقه فى أبواب البر يتقرب بذلك إلى الله تعالى ويزهد فى الثياب التى تستر بدنه فى الطاعة، ويزهد فى قوته الذى يستعين به على العبادة.

وقد روى مسروق عن ابن مسعود قوله: ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله تعالى من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى أخر الدهر أبداً سرمداً، ولا نهاية للزهد قال بعضهم (نهاية الزهد أن تزهد فى كل شئ وتتورع عن كل شئ للنفس فيه متعة وبه راحة) .

ثالثاً: أن تبتعد عن الغنى :

بمعنى أن تحب الفقر وأهله ومجالسة المساكين؛ لقد كان مطرف رحمه الله يجالس المساكين فى مجالس خاصة يتقرب بذلك إلى ربه.

وأن يكون بفقره مغتبطاً مشاهداً لعظيم نعمة الله تعالى عليه يخاف به أن يسلب فقره ويحول عن زهده، وذلك لأن النعم ثلاث كما قال العلماء: الإسلام والسنة والعلم بالله تعالى ، ثم الزهد فمن أعطيه مع الثلاث تمت عليه النعمة أى تمت نعمة الله عليه ، لأن من ورائه حرصاً كثيراً على الشبهات ورغبة عظيمة فى الشهوات.

ثم لا يجد حلاوة الزهد حتى يعلم الله تعالى من قلبه أن القلة أحب إليه من الكثرة، يقول بعض السلف: لا يفقه العبد كل الفقه حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى.

رابعاً: أن تبتعد عن الرياسة :

من أفضل الزهد ، الزهد فى فى الرياسة على الناس وفى المنزلة وفى الجاه عندهم والزهد فى حب الثناء والمدح منهم ، لأن كل ذلك من أكبر أبواب الدنيا عند العلماء، يقول الإمام الثورى: الزهد فى الرياسة ومدح الخلق أشد من الزهد فى الدينار والدرهم لأن الدينار والدرهم قد يبذلان فى طلب ذلك .

ويقول الفضيل: نقل الصخور من الجبال أيسر من إزالة رياسة ثبتت فى قلب جاهل.

وكان ابن السماك يقول: الزاهد قد خرجت الأفراح والأحزان من قلبه فهو لا يفرح لشئ من الدنيا أتاه ولا يحزن على شئ فاته، لا يبالى على عسر أصبح أم على يسر، وإن حب الرياسة يحول دون ذلك ولا شك .

وأخيراً : إنما الزهد زهد القلوب :

ونختم هنا بما بدأنا به بالابتعاد عن كل ما يشغل القلب، فيتوج ذلك بتحقيق معنى الزهد الحقيقى بأنه زهد القلوب وما نعنيه بذلك ألا ينصرف القلب زاهداً فى المال ويحب الرياسة ، أو أن ينصرف زاهداً عن الرياسة ويجمع المال أو أن يصبح زاهداً فى الأطعمة ولا يزهد فى الثناء والمدح.

ولكن حقيقة الزهد أن تزهد النفس فى ذلك كله لأنها عين الرغبة والهوى روح النفس، ولذلك كان يقول يونس بن ميسرة الجيلانى: ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يدالله تعالى أوثق بما فى يدك وأن يكون حالك فى المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء وأن يكون ذامك ومادحك فى الحق سواء.

ومن تقسيمات إبراهيم بن أدهم فى ذلك: الزهد ثلاثة أصناف زهد فرض وزهد فضل وزهد سلامة ، فالزهد الفرض فى الحرام والزهد الفضل فى الحلال والزهد السلامة الزهد فى الشهوات، أما الحارث ابن أسد المحاسبى يفسر زهد القلوب بقوله: (إنما الزهد إسقاط قيمة الدنيا من القلب وأن لا يكون لشئ عاجل فى القلب فإذا سقطت قيم الأشياء واستوت فى القلب فهو الزهد).

وأما أبو يزيد البسطامى فإنه كان يقول: ليس الزاهد من لا يملك شيئاً إنما الزاهد من لا يملكه شئ ، وعندما سئل الجنيد عن الزهد فقال: معنيان ظاهر وباطن، فالظاهر بغض ما فى الأيدى من الأملاك وترك طلب المفقود، والباطن: زوال الرغبة عن القلب ووجود العزوف والانصراف عن ذكر الله ذلك ، فإذا تحقق بذلك رزقه الله تعالى الإشراف على الآخرة والنظر إليها بقلبه فحينئذ يجد فى العمل بتقصير الأمل وتقريب الأجل ، لأن الأسباب عن قلبه منقطعة والقلب منفرد بالآخرة وحقيقة الزهد قد خلصت إلى قلبه فامتلأ من الذكر الخالص لربه سبحانه وتعالى. فالزهد عن حقيقة الإيمان للآخرة تكون بعد الزهد واستواء الأشياء فيكون عدمها كوجودها ، لاستواء القلب ومعه يستوى المدح والذم لسقوط النفس وذهاب رؤية الخلق فعندها خلص الإخلاص إلى قلبه لصفاء الزهد.

وقد نوع أحد أهل المعرفة الإيمان فى القلب على مقامين فجعل لهما



زهدين فقال: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب: أحب العبد الدنيا وأحب الآخرة وعمل لهما.

فإذا بطن الإيمان فى سويداء القلب وباشره: أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها.

ومجمل الأمر أن يصبح الزاهد منفرد الهم مجتمع القلب **فانفراد الهم**: يكون بعد محو الهوى ومحوه بعد امتحان القلب للتقوى.

واجتماع القلب: يكون مع طيب النفس وطمأنينتها بالإيمان وفلاحها بالتزكية والرضا.

**** وأخيراً:**

رحم الله السباع الموصلى عندما سئل: يا أبا محمد إلى أى شئ أفضى بهم الزهد؟ قال:

إلى الأنس بالله تعالى ..

فيا قلوب الزاهدين.. إلى الأنس والسرور بالقرب من الحبيب تعالى.

١٠ـ قلوب التائبين

** يقول الله تعالى:

﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ النور / ٣١، معناه ارجعوا إلى الله من هوى نفوسكم ومن وقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا بالقرب من ربكم فى نعيم لا زوال له ولا نفاد ولكى تفوزوا وتسعدوا بالجنة وهذا هو الفلاح.

ويقول الله تعالى لخاصة المؤمنين:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ...﴾ التحريم / ٨، فنصوحا من النصح جاء على وزن فعول للمبالغة فى النصح، وهو أن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه كما ارتكبه فى البداية لأجل هواه .. وسبيل ذلك إجماع القلب على التوبة، فمتى أتى الله عز وجل بقلب سليم من الهوى وعمل خالص مستقيم على السنة فقد ختم له بحسن الخاتمة.. وهذه هى التوبة النصوح.. وهذا العبد هو المتطهر الحبيب فيقول تعالى:

﴿... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة / ٢٢٢ .

**** التوبة النصوح :**

سئل الحسن عن التوبة النصوح فقال هى: ندم بالقلب واستغفار باللسان وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود إليه.

وحقيقة الندم : أن لا يعود إلى مثل ما وقع عليه الندم ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهى، وحقيقة هذه الاستقامة أن لا يقابل ما استقبل من عمره بمثل ما وقع الاعوجاج به وأن يتبع سبيل من أناب إلى الله.

يقول أبو سليمان الدارانى:

لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على فوت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف بمن يستقبل ما بقى من عمره بمثلما مضى من جهله.

**** وقد فصل العلماء كيف يتم ذلك ؟ فقالوا : (كيف تتوب توبة نصوحاً ؟)**

أولاً : المتابعة بأعمال الصالحات :

حتى يتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿... وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ...﴾ الرعد / ٢٢ ، أى يدفعون ما سلف من السيئات بما يعملون من الحسنات، وفى وصية معاذ: « **أتبع السيئة الحسنة تمحها** ».

ثانياً : المسارعة إلى الخيرات :

وذلك ليدرك بها ما ضيع وفات ليكون من الصالحين: فعلامة التوبة النصوح أن يكون حاله بعد التوبة صلاح وإصلاح ومسارعة إلى الخيرات.

ثالثاً : حلاوة الطاعة فى القلب :

فقد قال العلماء: لا تصح التوبة لعبد حتى ينسى شهواته ويكون ذاكراً للحزن لا يفارق قلبه، ذاهباً عن الذنب لا يخالج سره، ومعنى ذلك كما قال بعض السلف: من علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة وبفرح ركوب الذنب الحزن عليه والسرور بحسن الإنابة.

فحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه، ومن بقيت حلاوة المعصية فى قلبه خيف عليه العود فيها إلا بشدة مجاهدة وكراهة لها ونفى خاطرها عن نفسه، إذا ذكرها بالخوف والإشفاق منها.

رابعاً : أكل الحلال :

ولا يتم ذلك إلا عن طريق: أداء حق الله تعالى فى الخلق وحق الله تعالى فى نفسه فيتبرأ من حركته وسكونه إلا بالله تعالى وحتى لا يأمن الاستدراج بأعمال الصالحات.

خامساً : مباينة أهل المعاصى :

والاعتزام على ألا يعود فى معصية أبداً، فكما قيل لا يقوى على ترك الشبهات إلا من ترك الشهوات. وسئل يحيى بن معاذ رحمه الله كيف يصنع التائب؟ فقال: هو من عمّره يومين يوم مضى ويوم بقى فيصلحها بثلاث أما ما مضى فالبندم والاستغفار .وأما ما بقى فبترك التخليط وأهله والثالثة: لزوم الدؤب على العمل.

سادساً : رقة القلب وغزارة الدمع :

يقول النبى ﷺ : «**جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة** » ولتحقيق ذلك عليه أن يستعظم ذنوبه، فإنه يقال: إن الذنب كلما استعظمه العبد صغرعندالله تعالى، يقول بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت، وإنما عظمت الذنوب وكبرت فى القلوب لمشاهدة ذى الكبرياء ومخالفة أمره وكذلك كانت صغائر الخائفين عندهم كبائر ، وذلك أحد وجوه معنى قوله تعالى: ﴿ . . . **وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ الحج / ٣٢ ، قيل: الحرمات تعظم فى القلب فلا ينتهكها ومن هذا قول الصحابة للتابعين: (إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها فى عهد النبى ﷺ من الموبقات) ليسوا يعنون أن الكبائر التى كانت على عهد النبى ﷺ صارت بعده صغائر ولكن كانوا يستعظمون الصغائر لعظمة الله تعالى فى قلوبهم ولم يكن ذلك فى قلوب من بعدهم.

**** تجديد توبة القلب ودوامها : (كيف تدوم توبة القلب ؟)**

قد يتوب العبد من الشئ ويتركه ثم يخطر ذلك الشىء بقلبه فيجد حلاوة، حينما يراه أو يسمعه أو يخطر بقلبه!!

فما حكم هذه الحلاوة؟

وما خطرها؟ وكيف يتخلص منها القلب؟

أجاب الإمام أبو محمد سهل حينما سئل عن الرجل يتوب من الشئ ويتركه

ثم يخطر ذلك الشئ بقلبه فيجد حلاوة!

فقال: الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه ويدعو الله تعالى أن ينسيه ذكر ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته.

ثم قال: فإن هو غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار والحزن فإنه لا يضره.

ثم يعلق أبو طالب المكى قائلاً: وهذا عندى هكذا لأن التوبة لا تصح مع بقاء الشهوة ويكون العبد مراداً بالمجاهدة وهذا حال المؤمنين محو الشهوات من القلب بدوام توالى وصف العارفين.

ومجمل ذلك من وجد هذه الحلاوة فهذا أمر طبيعى للبشر ولكن عليه بالمجاهدة التى بينها الإمام أبو محمد سهل ، فهو من المؤمنين، وعليه أن يداوم على ذلك حتى لا تبقى الشهوة بل تمحى وهذا حال العارفين.

**** حلاوة التوبة فى القلب : (كيف تحقق حلاوة التوبة فى قلبك ؟)**

يقال: إذا عصى العبد أظلم قلبه ظلمة يثور على القلب منها دخان يشهده الإيمان ويكون ذلك الدخان حجاباً له عن العلم والبيان كما تحجب السحابة للشمس فلا ترى فإذا تاب العبد وأصلح انكشف الحجاب فيظهر الإيمان ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين / ١٤ .

قيل هذا الذنب على الذنب حتى يسود القلب ويصير الإيمان تحت الحجاب فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

وتتوالى على القلب الذنوب ولكن أعظمها ما كان ممتداً بعد وفاته، قيل: طوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه ولم يؤاخذ بها بعده، وطوبى لمن لم يعدد ذنبه غيره، وقال بعضهم: لا تذنب فإن كان لا بد فلا تحمل غيرك فتكسب ذنبين، ولذلك كان السلف يقولون: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصيته ثم يهونها عليه، فأخطر هذه الذنوب أن يظل العبد فى قبره يحاسب على ذنوب يفعلها غيره قد سنها لهم إلى أن تندرس أو يموت فاعلها فتسقط عنه.

وخاطر السوء حينما يتمكن من القلب بالإصغاء إليه يكون سبباً مباشراً فى



هلاك التائب، فكل سبب يدعو إلى معصية أو يذكر بها فهو معصية، وكل سبب يؤدى إلى ذنب فهو ذنب وإن كان مباحاً وهذا من دقائق الأعمال ولذلك كانوا يحذرون الإنسان قائلين: من أتى عليه أربعون من العمر وكان مقيماً على الذنب ولم يكد يتب منه إلا القليل من المتداركين.

ولذلك أردنا بهذه المقدمة أن نرى كيف السبيل إلى حلاوة التوبة ؟

فقيل الحلاوة أن تتمكن التوبة من القلب حتى ذهب بعضهم إلى قوله: لا تصح التوبة حتى يتوب من الحسنات ومعنى ذلك: أى من تقصيرهم فى أداء التوبة ، وكان أبو محمد سهل يقول: لا تصح التوبة إلا بترك كثير من الحلال مخافة أن يخرجهم إلى غيره.

والوجود الحقيقى للتوبة إنما فى توبة القلب وندمه أما توبة اللسان فكما قيل توبة الكذابين... وصدق القائل: (كم من توبة تحتاج إلى توبة) فى تصحيحها والإخلاص والنظر إليها والإدلال بها .. ومن رحمة الله بنا أن فتح أبواب التوبة يقول ابن عباس: غفور: لمن تاب، رحيم: حيث رخص فى التوبة.

وعمل القلب يعتبر التوبة من الذنب يتلخص فى أربعة أمور :

اعتقاد التوبة من الذنب وحب الإقلاع عنه وخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له، ثم يحتسب على الله تعالى بحسن ظنه وصدق يقينه كفارة ذنبه وهذا ما يكفر الزلل ويرفع العثار، يقال: صدقة الليل تكفر ذنوب النهار وصدقة السر تكفر ذنوب الليل.

والسبيل إلى حلاوة التوبة فى القلب عن طريقين :

الأول : تجنب معصية الله بنعمه :

وذلك لئلا تكون المعصية كفراناً لنعمته ، وجوارح العبد وماله من نعم الله تعالى فإذا عصاه بالنعمة فقد بدلها كفراً كما قال تعالى: ﴿ ... **بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا** ...﴾ إبراهيم / ٢٨ ، قيل استعانوا بها على معاصيه.

ثم توعد الله على التبديل بالعقاب الشديد فقال تعالى: ﴿ ... **وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ البقرة / ٢١١ .

فقد يكون العقاب على تبديل النعمة بالمعصية معجلاً فى الدنيا ويكون مؤجلاً فى الآخرة وقد يكون العقاب فى أسباب الدنيا ويكون فى حرمان أسباب الآخرة وقد يكون فيهما معاً، وقد تكون نفس المعصية بالنعمة عقوبة فى

تضييع الشكر عليها واستصغارها والركون إليها والتطاول والتفاخر بها.

الثانى : الرجوع إلى الله بالتوبة :

فبعد وقوفه مع نفسه وهو موافقة الهوى بالخطيئة يفترض على العبد الرجوع إلى الله تعالى والأوبة إليه، فتأخيره بالتوبة والإصرار على الذنب ذنبان مضافان إلى الخطيئة ، فإذا تاب من ذنبه وأحكم التوبة منه اعتقد الاستقامة على الطاعة ودوام الافتقار إلى الله تعالى ، ثم يتوب أبداً من الصغائر ومن الخوف والطمع فى المخلوق ، ثم يرقى إلى السكون إلى الشئ والراحة بالشئ حتى لا يبقى على العبد فيما يعلم مخالفة لربه عز وجل.

وقيل: إنه يعتب عليه فى هذه الدرجة خفى سكونه ولمح نظره إلى ما سوى الله تعالى ... وهذه حلاوة التوبة قيل: إن بعض التابعين حرموا حلاوة التوبة لعدم تحقيقهم هذا المعنى، ولو أنهم فعلوا ذلك لاستحقوا المزيد من الله تعالى لأنهم حققوا الإحسان... لقوله تعالى: ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة / ٥٨ ، ولذلك من أجل تحقيق هذه الحلاوة فى القلوب أخذوا أنفسهم بتفقد قلوبهم الدائم وتجديد التوبة المستمر، فإنما دخل الخسران على العالمين من حيث لا يعلمون تركهم التفقد ومحاسبة النفس وبمسامحتها مما يعلمون، ولا يكبر عن التوبة أحد ولو كان نبياً، ولكل مقام توبة ولكل توبة حلاوة فهذا تائب منيب الذى هومقرب من ربه وعنده حبيب، وهذاتائب مفتن أى مبتلى باختبار التوبة تواب إلى ربه، لينظر مولاه أينظر بقلبه إليه أو إليها أو يعتكف بهمته إليه أو إليها، أو يطمئن قلبه إليه بوجودها أو إليها، أو يطلب إياه هرباً منها أو إياها.

**** توبة القلب وعلاقاتها بالنفس :**

١ ـ توبة النفس المطمئنة المرضية :

وهى التوبة النصوح والتى سبق ذكرها وقلب صاحبها تائب من الذنب مستقيم على التوبة والإنابة لا يحدث نفسه بالعود إلى معصية أيام حياته، ستبدل بعمل سيئاته صالح حسناته فهذا هو السابق بالخيرات.

٢ ـ توبة النفس اللوامة :

وهى توبة العبد الذى عقد التوبة ونيته الاستقامة لا يسعى فى ذنب ولا يقصده ولا يهتم به، وقد يبتلى بدخول الخطايا عليه عن غير قصد منه ويمتحن بالهم واللمم فهذا من صفات المؤمنين يرجى له الاستقامة لأنه سلك



طريقها يقول تعالى:

﴿ ... يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ... ﴾ النجم / ٣٢ ، وهذا أيضاً من صفات المتقين يقول تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ... ﴾ آل عمران / ١٣٥ ، وهذه التوبة خاصة بالمقتصدين.

٣ ـ توبة النفس المسوّلة:

وهى توبة العبد الذى يذنب ثم يتوب ثم يعود إلى الذنب ثم يحزن عليه بقصد له وسعى فيه إلا أنه يسوف بالتوبة ويحدث نفسه بالاستقامة ويحب التائبين ويرتاح إلى قلبه مقامات الصديقين ولم يأن حينه لأن الهوى يحركه والعادة تجذبه والغفلة تغمره إلا إنه يتوب خلال الذنوب ويعاود، فتوبة هذا ترجى له الاستقامة لمحاسن عمله ولكن يخش عليه الانقلاب لمداومة خطئه وهذا هو الذى خلط عملاً صالحاً وأخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليه، وهو بين حالين بين أن يغلب عليه وصف النفس فيحق عليه ما سبق وبين أن ينظر إليه مولاه نظرة تجبر كسره فيتداركه بمنه فتلحقه بمنازل المقربين.

٤ ـ توبة النفس الأمارة بالسوء:

وهى أسوأ توبة للعبد وأعظمها على نفسه وبالاً، وأقلها من الله نوالاً، وهى عبد يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه ويقيم على الإصرار ولا ينوى توبة ولا يعقد إستقامة ولا يرجو وعداً ولا يخاف وعيداً ، هذه صفة قلب النفس الأمارة بالسوء ، فروحه أبداً من الخير فرارة ويخاف على مثله سوء الخاتمة لأنه سالك طريقها ومثل هذا النوع من التوبة فى عموم المسلمين وهم فى مشيئة الله كما قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ...﴾ التوبة / ١٠٦ ، أى مؤخرون لحكمه إما يعذبهم بالإصرار وإما يتوب عليهم .

وأخيراً ..

فى البداية استعرضنا الآيات التى يدعو فيها الله أهل الإيمان بالرجوع إليه والتوبة، ولكى تتحقق فى التوبة شروطها أوجب الإسلام تربية القلب كوقاية له من الولوغ فى الذنب من أول نور يدخل القلب المؤمن وهو نور اليقظة ثم نور الفرار إلى الله بمعنى فرار القلب عن كل ما سوى الله تعالى إلا إليه فإذا بالقلب يتذكر ويعتصم بربه وترى فيه الإخبات لله تعالى والتبتل حيث ينقطع القلب

إلى الله عن جميع حظوظ النفس، ومن هنا انقسمت التوبة إلى ثلاثة أقسام : فالأول توبة وهى لمن خاف العقاب، والثانى: الإنابة لمن طمع فى الثواب والدرجات، والثالث: الأوبة وهى لمن طلب مرضاة الآمر لا رغبة فى الثواب ولا رهبة من العقاب. وكما قيل بهذا المفهوم: (التوبة للمؤمنين والإنابة للمقربين يقول تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ق / ٣٣ ، والأوبة : صفة الأنبياء والمرسلين قال تعالى: ﴿...نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ص / ٣٠ ، فتربية القلب بقطع هذه المنازل هو طريق التوبة الصحيحة النصوح التى يسر بها القلب وتهنأ بها الروح ويرتقى صاحبها فى القرب والأنس بربه عز وجل نسأل الله تعالى حقيقة التوبة ومنازل المقربين منه تعالى .

١١ ــ قلوب المتوكلين

■■ توكل القلب :

يقول تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران / ١٥٩ ، فجعل المتوكل حبيب الرحمن، ويقول تعالى: ﴿...وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾إبراهيم / ١٢ ، فرفع المتوكلين إليه سبحانه، يقول عز وجل: ﴿... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...﴾ الطلاق / ٣ ، أى كافية مما سواه فمن كان الله تعالى كافيه فهو شافيه ومعافيه، ويقول تعالى: ﴿ ... وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ  فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ...﴾ غافر / ٤٤ : ٤٥ ، وقال بعض العلماء: ليس للتوكل حد ولا غاية تنتهى إليه وقيل فى قوله تعالى: ﴿...يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ...﴾ الملك / ٢ ، أى : أصدق توكلاً.

وأول التوكل أن يعرف القلب الوكيل، وأنه عزيز حكيم، يعطى بعزه ويمنع لحكمه، فيعتز القلب بعزه ويمنع بحكمه وبهذا أخبرنا الله تعالى فى كتابه فقال: ﴿ ... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال / ٤٩ ، فأيقن العبد أن الله تعالى فى يده ملكوت كل شئ وأنه يملك السمع والأبصار ، ويقلب القلوب والأيدى تقليب الليل والنهار، وأنه تعالى أحكم الحاكمين وخير الرازقين.

وحينئذ ينظر القلب إلى مولاه ويثق به ويعتمد عليه دون كل شئ، ويقنع منه بأدنى شئ، ويصبر عليه ويرضى عنه، ولا يعاين فى القبض والبسط إلا قدرته،

هنالك حقت عبادته وخلص توحيده، فينال العبد شرف معرفة الخلق من معرفة خالقه، فيطلب رزقه عند معبوده ورازقه، فلا يذم أو يمدح أحداً من الناس لأنه منعه أو أعطاه فالله هو الأول والآخر يمدح من مدحه الله ويذم من ذمه الله، ويشكر من أمره الله بشكره تخلقاً بأخلاقه واتباعاً لسنة المصطفى ﷺ فلا يخشى أحداً إلا الله ربه تعالى ، روى بعض العلماء عن الله تعالى (لو أن ابن آدم لم يخف غيرى ما أخفته من غيرى ولو أن ابن آدم لم يرج غيرى ما وكلته إلى غيرى) ويقال: إن الخوف من المخلوقات عقوبة نقصان الخوف من الخالق وإن ذلك من قلة الفقه عن الله تعالى، يقول تعالى: ﴿ **لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** ﴾ الحشر / ١٣ ، وكما قيل: (فكان العبد إذا أتم خوفه من الله تعالى أزال ذلك الخوف خوف المخلوقين عن قلبه وحوّل ذلك فى قلوب المخلوقات فصارت هى تخافه إن لم يخفها هو) وبهذا لا يخش من انقطاع رزق، إلا بتحقيق التوكل ، يقول النبى ﷺ : « **لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً** » وقد افترق الناس فى الرزق إلى أربعة لا يميزهم إلا القلب المتوكل على ربه فمنهم من يطلب رزقه بذلة وهم السائلون، ومنهم من يطلبه بامتهان وهم الصناع يكتسبون بمهنة وكره، ومنهم من يطلبه بانتظار وهم التجار ينتظر أحدهم إنفاق سلعته فهو متعوب القلب، ومنهم من يطلبه بعز من غير مهنة ولا انتظار ولا ذل وهم المتوكلون الذين حظوا بقلوب متوكلة على ربهم مع سعيهم فى التكسب سواء كانوا صناعاً أو تجاراً أم عمالاً، فى أى نوع من الأعمال. أما المذموم منهم الذين يأكلون من أرباب السلاطين فباعوا أرواحهم ، فتلك قسمة خاسرة ، وقد وقعوا فى الذل الصريح مهما كانت ألقابهم فقلوبهم بمنأى عن التوكل وحقيقته.

* * **حال القلب المتوكل:**

وحال القلب المتوكل يدور حول هذه المعانى:

* سكون القلب عن الاستشراف إلى الناس، أو التطلع لما فى أيديهم، وقطع الهم بالتفكر فى ذلك.

* عكوف القلب على المدبر، ففكره مشغول بقدرة المصرف المقدردائم التفرغ له تعالى.

* ثباته على الإيمان، فإن انعدمت الأسباب لا يحمله ذلك على الوقوع فى محظور ذمه العلم.

* ثباته على الحق: فإن كانت الأسباب فى أيدى الناس لا يمنعه ذلك أن يقول الحق وأن يعمل به وأن يوالى فى الله ويعادى ... ولا يمنعه ذلك على ترك الحق حياءً منهم أو طمعاً فيهم أو خشية قطع المنافع بينه وبينهم.

* لا تدخله الصعاب والنوازل والفاقات المفاجئة فى الانحطاط فى أهواء الناس والميل إلى الباطل أو الصمت عن حق أو يوالى عدواً أو يعادى ولياً ليرب بذلك حاله عندهم أو يشكر بذلك ما أسدوه إليه.

* يقينه برزقه ونفعه وخيره من الواحد الأحد، فلا يسكن إلى عادة من أخلاقه ولا يثق بمعتاد من مخلوق.

فكيف يفعل العبد بقلبه إن دخل عليه شئ من الأهواء المفسدة لتوكله على ربه؟ .

قيل: كان الأقوياء يقطعون تلك الأسباب ويحسمون أصولها وكان عملهم: اعتقاد تركها ومفارقة البلاد والتغريب عن الأوطان وترك الإلف والإيلاف فأخرجوا ذلك من حيث دخل عليهم ..

لئلا تسكن قلوبهم لغير الله، ولا تقف هممهم مع سوى الله، ولا تطمئن نفوسهم إلى غيره، ولا يسكنوا إلى أهواء النفوس وينخدعوا لسكونها عن سكون القلب فيوهن إيمانهم ويخسروا رأس المال فتفتتهم حقيقة حال القلب المتوكل وهذا لا يفطن له إلا العاقلون.

*** * حقيقة التوكل:**

أولاً: الفرار من التوكل:

بمعنى ترك السكون إلى منزلة التوكل، أى يتوكل ولكنه لا ينظر إلى توكله هل حقق كفاية أم وقاية أم معافاة وإنما يجعل نظره إلى الوكيل وحده فلا يكون بينه وبين الوكيل شئ ينظر إليه أو يعول عليه أو يدل به.

فالنظر إلى التوكل علة فى التوكل (بهذا المعنى السابق) تلزم المتوكل الفرار منها.

ثانياً: التبرئ من الحول والقوة:

بمعنى لا تنظر إلى حولك ولا قوتك والحول أشد من القوة فالحول: الحركة

والقوة والثبات على الحركة وهو أول الفعل، والتبرئ عدم النظر إلى حركتك مع الله المحرك إذ هو المحرك الأول ولا إلى ثباتك مع الله المثبت إذ هو الآخر.

ثالثاً : التوكل ترك التدبير :

ليس معنى ترك التدبير ترك التصرف فى التكسب أو السعى فى الرزق ومما أبيح للإنسان ووجه إليه، فإنه من طعن على التكسب فقد طعن على السنة، ومن طعن فى التكسب فقد طعن على التوحيد.

إنما معنى (ترك التدبير) ترك الأمانى وبذلك يكون معناها فيما بقى وما يأتى بعد... بمعنى أن تكون تاركاً للتدبير لله تاركاً للأمانى لأن الله أحكم الحاكمين ولأن العبد المسلم لمولاه فى الأقدار مع جهله بعواقب المآل وترك التدبير بهذا المعنى هو (اليقين).

**** أنواع التوكل :**

١ ـ التوكل فى طلب الرزق :

قال تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ...﴾ هود / ٦ ، ﴿**وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ** ...﴾ العنكبوت / ٦٠ ، فالمتوكل يعلم أن كل ما يناله من العطاء من ذرة فما فوقها ، إن ذلك رزقه من خالقه ، وإن رزقه هو له وأن ماله واصل إليه لا محالة على أى حال كان ، وإن حاله لا يكون لغيره أبداً وكذلك مالغيره من العطاء لا يكون لهذا أبداً.

ثم من فقه الرجل بربه وعلمه بحكمة الله تعالى أن يوقن بأن ماله وخزائنه وما فى يده من خزائن الله تعالى، فى أرضه يودعها من يشاء إلى الوقت الذى يشاء حتى يستقر إلى كيف يشاء فقد قال تعالى: ﴿ **فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ** ﴾ الأنعام / ٩٨ ، وقال: ﴿ **لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ** ﴾ الأنعام / ٦٧ ، وقال سبحانه: ﴿ **وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ المنافقون / ٧ ، وقد أخبرنا ﷺ بقوله: «**إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله** » ويقال: لو هرب العبد من رزقه كما لوهرب من الموت لأدركه.

روى أن رجلا لزم باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأجل الطلب فقال له: يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله، فاذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر، فذهب الرجل وغاب وتفقده عمر حتى وجده عابداً فقال له: إنى افتقدك فما الذى شغلك عنا، فقال: إنى قد قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وعن آل عمر

فقال له عمر: رحمك الله فما الذى وجدت فيه فقال: وجدت فيه ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ الذاريات / ٢٢ ، فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض فبكى عمر.

وقيل: (إن المتوكل لا يطالب مولاه برزق غد كما لا يطالبه مولاه بعمل غد) وقد قيل: إن الله تعالى يعطى الدنيا على نية الآخرة ولا يعطى الآخرة على نية الدنيا وهذا لعلو الآخـرة ودناءة الدنيــا وكان على رضي الله عنه يقول: ألا إن حرث الدنيا الآخرة العمل الصالح.

٢ ـ التوكل فى الصبر على الأذى:

يقول تعالى: ﴿ ... فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ... ﴾ المزمل / ٩ : ١٠ .

ويقول تعالى: ﴿ ... وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ إبراهيم / ١٢ ، ثم قـال لنبيــه ﷺ: ﴿ ... وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... ﴾ الأحزاب / ٤٨ ، إلى قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ... ﴾ الأحقاف / ٣٥ .

وقد قيل لا يثبت لأحد مقام فى التوكل حتى يستوى عنده المدح والذم من الخلق فيسقطان، وحتى يؤذى فيصبر على الأذى يستخرج بذلك رفع السكون إلى الخلق والنظر إلى علم الخالق.

٣ ـ التوكل فى الصبر على حسن المعاملة:

بمعنى ترك الطلب للمعارضة حياء من الله وإجلالاً له وتخوفاً منه وحباً له فقد وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ العنكبـوت / ٥٨ : ٥٩ ، فلما علمـوا صبروا على علمهم ثم توكلوا عليه فى جميع ذلك فأنعم أجرهم.

٤ ـ التوكل فى تسليم الحكم والرضا به:

يقول تعالى: على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يوسف / ٦٧ ، فإذا علم العبد أن كل شئ مراد لوكيله ومولاه وربه فينبغى أن يريد ما يريد مولاه وأن يكون مراد مولاه أحب إليه لأن ما أراده الله مما لا عقوبة به على العبد فيه ، ولا مسخطة لمولاه فإنه محبوب لله مختار له ، فلتكن محبة الله عز وجل مقدمة لديه على محبته هو واختياره إذ لله عاقبة الأمور.

**** وبقى أمر :**

قيل: إن التوكل الذى محله القلب فرض وفضل.

فأما الفرض : فهو مرتبط بالإيمان، وهو تسليم الأقدار كلها للقادر، والاعتقاد بأن جميعها هى قضاء الله وقدره ولذلك نجد أن الله تعالى أقسم بنفسه فى نفى الإيمان عمن لم يحكم الرسول ﷺ فيما اختلف عليه فقال تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ النساء / ٦٥ ، ومن الآيات الدالة على أن التوكل فرض قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ المائدة / ٢٣ ، وقوله تعالى: ﴿.. **إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾ يونس/ ٨٤ .

وأما الفضل : فهو مشاهدة الوكيل، لأن معرفته تعالى تجعله ينظر عين اليقين، وقد استدل العلماء على ذلك برد نبى الله هود على قومه فى قوله تعالى: ﴿ .. **فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ** ﴾ هود / ٥٥ .

قيل: فظهرت منه قوة عظيمةبقوى وأخبر عن عزيز بعز، فكأنه قيل له: ولم ذاك وأنت بشر مثلنا ضعيف فقال: ﴿ **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم** ﴾هود / ٥٦ .

قيل: فكأنه سئل عن أسباب توكله كيف سببه فأخبر بمشاهدة يد الوكيل آخذة بنواصى دواب الأرض فقال: ﴿ **مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾ .

ثم أخبر عن عدله فى ذلك وقيام حكمته وأنه مستقيم فى عدله فقال: ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ومن الآيات الدالة على أن التوكل فضل قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ آل عمران / ١٢٢ .

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾آل عمران / ١٥٩ .

فإذا حقق القلب فرض التوكل مَنَّ الله عليه بفضل التوكل من حبه إياه ومن معينه ورعايته.

**** الأسباب وقلوب المتوكلين :**

لسنا هنا بصدد الحديث عن حكم الأخذ بالأسباب بقدر ما نتبين معاً حركة القلب وموقفه من التوكل، وما فى ذلك من معانى دقيقة من رحمة الله تعالى، وقد عده ابن مسعود الانقطاع إلى الأسباب دون نظر القلب إلى مسببها دخن فى الاخلاص فقال: من الإخلاص أن لا تحب أن يحمدك الناس على عبادة

وأن لا تمدحهم على ما رزقك الله وقدر.

فما موقف القلب من قول بعض الناس: فلان أعطانى أو منحنى أو منعنى؟ أو قول بعضهم: فلان رزقنى، فلان قدّر على؟ مع أن هؤلاء جميعاً كانوا أسباباً ووسطاء وقد أُجرى ذلك كله على أيديهم! قيل: لا يصح للقلب أبداً تصديق هذه الأقوال ولو أنه علم الحقيقة ما جرى على اللسان هذه الأقوال .. وحقيقة ذلك أن المعطى هو الله وهو المانع والضاروالنافع كما هو المحيى والمميت لا شريك له فى ملكه ولا ظهير له من عباده فى خلقه ورزقه. وعكس ذلك يقدح فى التوحيد وهو من الشرك الخفى. وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف / ١٠٦ قالوا: مؤمن بالإقرار أن الله هو المقدر والمدبر ومشرك فى الاعتماد على الأسباب ورد الأفعال إليها.

وحول هذا المعنى يخرج العبد من الشرك الخفى وهو تحقيق قوله لا إله إلا الله بعد التصديق أى ليس من تأله القلوب وتأله إليه إلا الله بقوله: ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ البقرة / ٢٤٧ ، أى جميع ما أظهر ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ سبأ / ١ ، فى جميع ما أعطى ومنع يستحق الحمد كله فهو لا يستحقه غيره ﴿وهو على كل شئ قدير﴾ أى من الخلق فالقدرة كلها له، والخلق كله له، يحكم فى خلقه بأمره، ما شاء كيف شاء، ومثل الوسائل والأسباب هنا مثل الآلة بيد الصانع فلا يقال السوط ضرب العبد وإنما يقال فلان ضرب عبده بالسوط. وكذلك الناس يباشرون الأسباب فى ظاهر العيان والله من ورائهم محيط القادر الفاعل بلطائف القدرة وخفايا المشيئة... ومن ذلك قول النبى ﷺ للرجل الذى ناوله التمرة: « **خذها لو لم تأتها لأتتك** » والتمرة لا تأتى ولم يقل لجاءك بها رجل إذ يغنيه فى ذكر ذلك.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ النحل / ٩٦ ، فجميعاً عنده وفى خزائنه إلا أنه أضاف الدنيا إلينا لرجوع الأحكام علينا وليزهد فيها وأضاف الآخرة إليه تخصيصاً لها وتفضيلاً ليرغبنا فيها.

وكقوله تعالى لمريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ مريم / ٢٥ ، وقد علمت أن الرطب لم يتساقط بهزها ولا جعل ولا فعل لهزها فى الرطب ولكن أراد أن يظهر كرامتها ويجعل الآلة منه بيدها.

وكقوله تعالى: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ص / ٤٢ ، فنبعت



عينان فشرب من أحدهما واغتسل من الأخرى ولا فعل لرجله في إظهار العينين.

وإذا غابت هذه الحقيقة عن القلب وقع في محظور خطير، وهذا الغياب نتيجة لجهل بالحكمة وغفلة عن الحاكم، فيحيل هؤلاء ذلك إلى عاداتهم ويريدون أن يكون رزقهم من حيث معتادهم أو من حيث معقولهم باختيارهم ولا يكلون أمورهم إلى الله قيل فيهم: فيؤثرون عند ذلك أخلاق الجبابرة على أخلاق المؤمنين.

وكم تنزعج قلوبهم ولا تعرف الاطمئنان عند الابتلاء بالمصائب والفاقات والمفاجآت .. وذلك لأنهم نظروا إلى الأسباب بالمدح ولم ينظروا إلى خالق الأسباب وراحوا يذمون فوت العطاء عنهم لغفلتهم وضعف يقين قلوبهم.

ولو نظروا إلى أهل الإيمان والتوكل لوجدوهم قد أخذوا بكافة الأسباب ولكن قلوبهم فيها تسليم الأمر لله وفيها الإيمان، فإن هذه الأسباب تجرى بحكمة القادر بل وقد زاد على أهل الإيمان قلوب الموقنين بحسن اليقين وجميل الصبر وحقيقة الرضا فسكنت القلوب واطمأنت النفوس عند النوازل والبؤس وثبتوا في الابتلاء وهكذا حققوا في قلوبهم فرض التوكل، يقول يوسف بن أسباط:

كان يقال ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه:

من إذا رضى لم يخرجه رضاه إلى باطل.

وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق

وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

فشتان شتان بين القلبين، وهذا فرق دقيق لمعنى أدق لا تفقهه إلا القلوب الصادقات.

*** * هل توكل القلب يتعارض مع التكسب ؟**

لا تعارض بين توكل القلب مع التكسب بل قيل: (ولا يضر التصرف والتكسب لمن صح توكله ولا ينقص من حاله)، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**﴾ النبأ / ١١، وقال تعالى: ﴿ ... **وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ الأعراف / ١٠ ، ويقول النبى ﷺ: « **أجل ما أكل العبد من كسب يده وكل بيع مبرور**» وقال ابن مسعود: إنى لأكره أن يكون الرجل بطالاً

ليس فى عمل دنيا ولا فى عمل آخره.. وذلك لأن العلماء كان عندهم الصانع بيده أحب إليهم من التاجر والتاجر أحب إليهم من البطال.

واتفق العلماء على أن التكسب الذى يحقق توكل القلب فيه، له مظاهر مختلفة أجملوها فى هذه المظاهر: (التصرف فيما وجه فيه ودخل فى الأسباب وهو ناظر إلى السبب فى تصريفه معتمد عليه واثق به فى حركته فتسبب فيما يقلبه فيه مولاه، متعيش فيما يسببه له ويوجهه فيه، عالم بأن الله تعالى قد أودع الأشياء منافع خلقه، وجعلها خزائن حكمته ومفاتيح رزقه ويكون أيضاً متبعاً للسنة تاركاً للرقة والتنعم).

بل إن من الخطأ أن يفهم البعض أن التوكل هو أن يترك التكسب طمعاً فى الخلق وترفهاً للنفس واتباعاً للهوى وقد اتفق العلماء: من أنكر التكسب فقد طعن فى السنة ومن أنكر القعود عن التكسب فقد طعن فى التوحيد، وقد جاء النبى ﷺ والصحابة الكرام فيهم التاجر والصانع والقاعد ومن يسأل الناس ومن لم يسأل الناس فما قال لأحدهم اترك ما أنت عليه بل جاءهم بالإيمان واليقين فى جميع أحوالهم وتركهم مع الله فى التدبر، فعمل كل واحد بعمله فى حاله، وقد قال بعض المتوكلين: من فقد الأسباب فضعف قلبه، أو كان وجودها أسكن لقلبه من عدمها، لم يصح له القعود عن المكاسب لأن فيه انتظار لغير الله.

أما المتوكل الحقيقى فهو موقن بأن الله تعالى هو المعطى والمانع وأنه هو المسبب الرازق ولذلك فقلبه إلى الله ناظر ونفسه إلى قسم الله ساكنة وقلبه بالمقسوم راض أما حركته فى التكسب فجسمه فى المعلوم متحرك والمعلوم هنا ما وجه فيه وسبب له.

*** والسؤال الذى يتبادر هنا: لماذا لا يتوكلون وهم يكتسبون؟ أو بمعنى آخر ما الاسباب التى تنقص التكل وتخرجه عن حده وحقيقته السابقة من قلوب أهل التكسب؟!.**

قيل: اكتساب الشبهات للاستكثار.
أو السعى بالتكسب للجمع والافتخار.
أو الحرص على طلب ما حظره العلم عليه.
أو الحرص على طلب ما يكره المنال منه.

أو التسخط للأقدار إذا لم تؤاته على ما قدر .
أوترك نصيحة من يعامله بأن يحتال عليه أو يدبر .
أو التشرف إلى الخلق والطمع فى سبب .
فهذا كله لا يصح معه التوكل

قال بعض العلماء: إن العبد إذا دخل السوق للتكسب فكان درهمه أحب إليه من درهم غيره لم ينصح المسلمين فى المبايعة وهذا مما يخرجه من التوكل.

* **أما الآفات التى تخرج القلب من التوكل فهى :**

أولاً : أن يكون متوكلاً على الناس: بأن يطمع فيهم أو يتصدى لهم بالتعرض والتصنع.

ثانياً : أن يكون متوكلاً على صحة جسمه: ودوام عافيته وأنه إنما يُرزق من كده وتعبه وسعيه وقوته.

ثالثاً : أن يكون متوكلاً على ماله: بأن يثق به ويطمئن إليه ويحسب أنه إذا افتقر انقطع رزقه، ولذا فهو يضن بماله ويدعى نقصه وهو يعده ويخزنه.

وقد روى عن بشر بن الحارث قال : إن العبد ليقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة / ٥ ، فيقول الله تعالى كذبت ما إياى تعبد ولا بى تستعين لو كنت تعبد إياى لم تؤثر هواك على رضاى، ولو كنت بى تستعين لم تسكن إلى حولك ولا قوتك ولا إلى مالك.

وجماع ذلك كله قطع الطمع فى الناس واجتماع القلب مع العدم أعظم درجة عند الله فقد قال النبى ﷺ لابنى خالد: « **لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤسكما** » فالرزق لا ينقطع عن العبد حتى يظهر له ملك الموت فحينئذ ينقطع عنه رزق الدنيا ويدخل فى رزق الآخرة فيكون أول رزق الآخرة آخر رزق الدنيا ولا آخر لهذا الرزق.

ويقول سهل بن عبد الله : لو أن العبد سأل الله أن لا يرزقه لم يستجب له ولقال له: يا جاهل أنا خلقتك ولا بد من أرزقك أبداً.

وقد روى عن سهل أن الله تعالى يلقى على من يختارهم الفاقة ويحوجهم إلى الناس ويلقى فى قلوب الخلق المنع لهم فيحرمهم باقى أيديهم. ليردهم إليه فإذا رجعوا آيسين منقادين رزقهم من حيث لا يحتسبون.

فأهل التوكل هم الذين يأخذون بكل سبب، وهم الذين يكتسبون ويسعون



فى رزق الله ، ولكن بفقه معروف الكرخى فى قصر الأمل والنظر إلى مصرف الأمور باطمئنان وثقة ، كان إذا صلى الظهر يقول للجيران: اطلبوا لكم من يصلى صلاة العصر، وكان يقول: إنما أنا ضيف فى دار مولاى إن أطعمنى أكلت متى أطعمنى وإن أجاعنى صبرت حتى يطعمنى.

*** هل يضر الادخار قلوب المتوكلين ؟**

التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار، وترك الادخار وصحة التوكل مع الادخار تتوقف على الأمل فإذا كان أمله فى الحياة لطاعة مولاه وخدمته والجهاد فى سبيل الله كان ذلك فضلاً ولم يضر بقلب المتوكل.

فمن ادخر لصلاح قلبه وتسكين نفسه وقطع تشرفه إلى الناس فالادخار له أفضل، ومن ادخر لعياله لتسكن قلوبهم ولوجود رضاهم عن الله وللقيام بحقهم عليه ليتفرغ هو لعبادة ربه فهو فاضل فى ادخاره وقد اتفق العلماء على ذلك لأنه قائم بحكم ربه راع لرعيته التى هو مسئول عنها .

إذاً فالادخار يضيق ويتسع فكما أن الشريعة فيها الرخصة والعزيمة كذلك الادخار وقلب المتوكل يتسع ويضيق ولا يضر بالقلب ولا لوم على من يدخر، وإن كانت المسؤلية توجب الادخار ليتفرغ القلب من الدنيا إلى الآخرة وعبادة ربه.

*** هل يضر التداوى بقلوب المتوكلين ؟**

لا يضر التداوى بقلوب المتوكلين لأن النبى ﷺ أمر به وأخبر عن حكمة الله تعالى فيه ﷺ: « **ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام** (يعنى الموت)» وقال ﷺ: « **تداووا عباد الله** » .

ولابد من اعتقاد القلب بأن كل ذلك من الله تعالى وبإذنه روى عن موسى عليه السلام: (**يارب ممن الدواء والشفاء؟ قال: منى قال: فما يصنع الأطباء قال: يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادى حتى يأتى شفائى أو قبضى**).

وجعل علماء الأمة أمراض الأجسام رحمة بالناس يقول سهل: علل الأجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة وقد كان ابن مسعود يقول: تجد المؤمن أصح شئ قلباً وأمرضه جسماً وتجد المنافق أصح شئ جسماً وأمرضه قلباً .

ووجه الرحمة فى ذلك أن الله يقيده بالمرض عن المعاصى كما روى عن الله تعالى: [**الفقر سجنى والمرض قيدى أحبس بذلك من أحب من خلقى**] فلا يأمن



من تداوى فعوفى أن يقوى على المعصية فقد يطغى العبد بالعوافى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝﴾ العلق / ٦ : ٧ .

أما المنافقون يبتلون بأمراض القلوب لأن أمراض الأجسام ضعفها عن الأثام والطغيان وفى أمراض القلوب ضعفها عن أعمال الآخرة. ومن عجيب ما روى فى ذلك أن النبى ﷺ عرضت عليه امرأة فذكر من أوصافها حتى هم أن يتزوجها فقيل له إنها مامرضت قط فقال : « **لا حاجة لى فيها** » .

حتى قيل أن فرعون مامرض قط ولذا فقد طغى وتجبر وقال: أنا ربكم الأعلى.

وخلاصة الأمر :

إن تعجل المريض البرء بالتداوى فبرأ كان ذلك بقضاء الله وقدره على وصف السرعة من المعافاة ، فإن كان ناوياً فى تداويه واستعجال شفائه أموراً بنى عليها أموراً أخرى ، وهذه نيات القلوب فى التداوى:

١ ـ استعجال الشفاء لطاعة مولاه :

قيل: كان مثاباً على ذلك فاضلاً غير منقوص فى توكله.

٢ ـ استعجال الشفاء لصحة جسمه :

قيل: فإن كان صحة جسمه لنفسه والنعيم بالعوافى كان ذلك باباً من أبواب الدنيا ودخولاً فيما أبيح له منها وهو يخرجه من فضيلة التوكل وحقيقته.

٣ ـ استعجال الشفاء لقوة النفس :

قيل: إن كان لأجل الهوى والسعى فى مخالفة المولى كان مأزوراً لسوء نيته وخرج من المباح إلى المحظور وذلك مما يخرجه من حد التوكل وهذا من مذموم أبواب الدنيا وممقوتها.

٤ ـ استعجال الشفاء للتصرف فى التكسب والمعيشة :

قيل: (إن كانت نيته الإنفاق والجمع نظر فى شأنه فإن كان يسعى فى كفاف وعلى عيلة ضعاف وعن حاجة فهذا باب من أبواب الآخرة وهو مأجور عليه ولا يخرجه من التوكل وكانت مرتبته كالمرتبة الأولى) .

* وإن كان يسعى فى تكاثر وتفاخر ولا يبالى من أين كسب وفيما أنفق كان عاصياً وهذا من أكبر الدنيا المبعدة عن الله عز وجل .



*** الطريق إلى القلوب الواثقة :**

مطلب العقلاء :

مطلب العقلاء البحث عن اللذة والنعيم والعمل على تحقيقهما ، والإنسان يبحث عن كل وسيلة لتحقيق مقصوده ، ولا يعقل أن إنساناً يسعى لعذابه أو ألمه أو معاناته أو تعاسته... فهل يكد من أجل تحقيق هدف مكروه لديه؟ أو يجهد نفسه لغاية كريهة لنفسه؟ إن أبعد ما يفكر فيه إنسان أن يسعى لتحقيق هذا الأمر... ونعجب كل العجب لما نرى من فعل الإنسان: ﴿ ... إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ الأحزاب / ٧٢ ، حينما يعتقد بأن لذته ونعيمه فى (دين فاسد) وهو يعلم ذلك ، أو فى السعى وراء (دنيا فاجرة) وهو موقن بذلك ، ولأن غفلته قد أحاطته وأحاط بها، لا يدرك فى ذلك تعاسته وشقاءه، فإذا به يعانى باحثاً عن سر معاناته ولا يدرك فى أن السر داخله، وأنه مصدر عذابه ومكمن قلقه وأصل حيرته .. وهى نفس الأشياء التى كان يتوارى عنها ويهرب منها، وبدلاً من البحث عن علاها تراه يدفع ذلك عنه بحمل (الدين الفاسد) فكراً وعلماً وثقافة وعملاً ونشراً، ويرمى غيره بالتطرف والظلام والجمود والرجعية، أو تراه يدفع لا هياً ماجناً(بالدنيا الفاجرة) باسم الفن والثقافة والرقص والمال والفجور والمناصب والجاه، ويرمى غيره بالتخلف والتحجر والغباء!! .

أى دين يحملون ؟ :

وتكمن القضية فى أن الناس لابد أن يحملوا ديناً، والتساؤل أى دين يحملون؟ وهذه قصة الصراع بين فئة تفهم الدين بحق وأخرى تفهمه بباطل !! والناس بين الأمرين إما أن يحملوا ديناً أو لا يحملون، ولكن أى دين يحملون؟ .

وتأتينا الإجابة واضحة من الله تعالى فقد جعل النعيم كل النعيم التام لمن يحمل الدين الحق فهماً وعلماً وعملاً ونشراً، وتأمل آيات الله تعالى :

* يقول تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ الفاتحة: ٦ : ٧ .

* ويقول تعالى: ﴿... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ﴾ طه / ١٢٣ .

* ويقول تعالى: ﴿... فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة/ ٣٨ .

* ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ الإنفطار / ١٣ : ١٤ .

الثقة فى القلب :

* والسؤال المتواصل عبر الأزمان والدهور: ما بال أهل الإيمان مع ذلك يصابون دائماً بالمصائب، بينما الظالمون والفجار ينالون فى الدنيا المال والرئاسة؟ فهل العزة والنصرة والنعيم فى الدنيا لغير أهل الإيمان؟ أما هم فلهم الذلة والحظ العاثر؟! .

وقبل أن تجيب أدعوك أيها الأخ الحبيب إلى التؤدة والهدوء. والسكينة والاطمئنان، فكل شئ يبدو صغيراً ثم يكبر إلا المصائب، تبدو كبيرة ثم تصغر، ولذلك كان من دعائه ﷺ : « اللهم لا تجعل مصيبتنا فى ديننا» فنؤخذ على غرة.. « وإنما الصبر عند الصدمة الأولى»، فمقابلة المصائب بالهدوء وقوة الشكيمة والتؤدة تجعلنا نتعرف على حجمها، فيكون العلاج ناجعاً، وهيا معى نتلمس الإجابة:

ماذا لو تأملنا الآيات:

- ﴿... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ المنافقون/ ٨ .
- ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الصافات / ١٧٣ .
- ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ...﴾ المجادلة / ٢١ .
- ﴿... وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص/ ٨٣ .

الآيات تؤكد أن العزة والغلبة والعاقبة تكون للمؤمنين ولأهل التقوى ولأصحاب الرسالة، فإن لم يكونوا كذلك، فهناك خلل من عند أنفسهم، هذا الخلل جعلهم يسقطون فى ميزان الله الدقيق، ويخرجون عن الناموس الباقى، والسنة الماضية، وفى حقيقة الأمر يجب أن نتساءل :

- هل كان أهل الإيمان أعزاء بالله ليمتلكوا العزة فى الدنيا؟ .
- هل حققوا الجندية لتتحقق لهم الغلبة على أعدائهم؟ .



■ هل تحركوا كأصحاب رسالة لينالوا النصرة فى مجتمعاتهم؟ .

■ هل حققوا التقوى لتكون لهم العاقبة فى كل شئ؟ .

ومن هنا فالإيمان بالموعود لا ينفيه خلل الواقع، وإنما خلل الواقع وما يعيش فيه المسلمون دليل برهان على قوة الموعود...ومن هنا كان الطريق إلى الثقة التى محلها (القلب).

● **كيف تثق القلوب ؟ :**

* فمن الناس من يستقبل الأقدار بالكفر والإلحاد، يردد فى قلبه قول الملحدين (ما على الخلق أضرُّ من الخالق) بمصائب الأقدار ومفاجآت الدهور وكوارث الأيام وبلايا الليالى.

* ومن الناس من يستقبل الأقدار بالشك والارتياب، يردد فى قلبه قول الجاهلين: « ما كان ذنبى حتى فعلت بى هذا» لماذا تفعل بى كذا وأنا طيب القلب، حسن الضمير، لا أضمر شراً ولم أرتكب جرماً؟! .

* ومن الناس من يستقبل الأقدار ويردد فى قلبه قول من لا بصيرة له : (إن تبت وأنبت وعملت صالحاً ضيّق علىَّ رزقى ونكد معيشتى، وإذا رجعت إلى معصيته وأعطيت نفسى مرادها جاءنى الرزق والعون ونحو هذا) .

ويالها من ظنون كاذبة وأقوال حائدة عن الصواب، ترمى بصاحبها فى مهاوى ساحقة من الإحباط واليأس، ويضيق صدره فى بحر من القنوط، فإن كان عابداً فهو جاهل بربه، وإن كان ذا دين فهو لا بصيرة له، وأن جماع ذلك كله قلب واثق بأن سعادته وكمال لذته تتوقف على:

* علمه بالنعيم الحقيقى.

* محبته لهذا النعيم .

* وسيلته إلى تحقيقه.

* العمل بما اختار من وسائل.

* الصبر على تكاليف العمل.

* الثبات حتى يتحقق الهدف.

يقول تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ العصر: ١ - ٣ .

* **صاحب القلب الواثق:**

* **صاحب القلب الواثق**: الذى يحقق العبودية ويقيم الدين، وقد علم الحقيقة وتعرف على المعنى، فهو لا يعمل بها كسلاً أو تهاوناً، أو يوهم نفسه بأنه مشغول بما هو أكبر من ذلك... ولكنه الأحرى به أن يراجع قلبه بهذه الحقائق، فهذا من واجبات القلوب التى غابت عن الكثيرين، فوقعوا صرعى فى محرمات القلوب، وإنما الحركة حركة القلب أولاً.

* **صاحب القلب الواثق**: إذا حقق العبودية وأقام الدين بالمعنى السابق... لا يزعم قرباً من ربه وهو يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإصلاح المجتمعات وإحلال الأمن والسلام والطمأنينة بالدعوة إلى الله، متوهماً أن هذه الأمور تبعده عن تفقد صلاح قلبه والارتقاء به، بل هذا الوهم يجعله من أبغض خلق الله إلى ربه.

* **صاحب القلب الواثق**: هو الذى يؤمن بأنه على حق وغيره من أهل الإيمان على حق، فلا يفعل الظلم ولا يعمل بالجور، فيبطش بمعارضيه بلا عدل، ويرى مساوئه محاسن، ومحاسن غيره مساوىء، فهو لا يعرف هذا الوصف القبيح، والذى حذر الله منه فى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ...﴾ فاطر / ٨.

حتى أنه لا ينظر إلى خصومه بالمساوىء، بل يفتش عن كوامن الخير وأسرار الكرامة، ليدفعها نحو الإصلاح، وإن زادت إعراضاً عاملها بالتى هى أحسن، فإن لم تكن معه لمحة، لا تكن عليه لحظة، فلا يتعطل سيره إلى الله، فى صلاحه وإصلاحه، أو فى فلاحه وإفلاحه، وهذه هى الخطوات الواثقة فى حركة القلب مع الحياة... فما حشو هذا القلب إذن ؟.

* **حشو قلوب الواثقين:**

هذه الخطوات الواثقة لهذا الحشو فى القلوب الواثقة، المتمثل فى الضمان الكامل من الله تعالى، بنصر الحق وأهله، وبنصر الدعوة ورجالها، وبالتمكين للدين وأصحابه حيث أن الله لم يضمن نصر الباطل ولو اعتقد صاحبه أنه محق، أو حتى لأنه أقامه لحين من الدهر، وهذا الضمان فى قلوب الواثقين عقيدة راسخة لا تهتم برياح التزحزح، ولا تأبه بعواصف الميل، فلا يعرفها نكوص وارتداد، أو شك وريبة، أو تذبذب وتردد، فما فى قلوب الواثقين حتى

كانت لها هذه الصفات؟!!.. وتحضرنى الإجابة سريعة بإشراقات قرآنية تقول: فيها النصرة والتأييد والمعية والمدافعة والولاية ..وإليكم الأدلة:

* ﴿ ... وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران / ١٣٩ .
* ﴿ ... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ المنافققون/ ٨ .
* ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الحج/ ٣٨ .
* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال/ ٦٤ .
* ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾ البقرة/ ٢٥٧ .
* ﴿ ... وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال/ ١٩ .
* ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ غافر / ٥١ .

فمن نقص إيمانه بذلك نقصت ثقته، ومن نقصت ثقته نقص حظه من كل ذلك: أى من ـ (النصرة والتأييد والمعية والمدافعة والولاية) ـ .

وبذلك تفهم قوله تعالى: ﴿ ... وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ النساء / ١٤١ .

وفى تفسير هذه الآية:

(إذا ضعف الإيمان صار للعدو علينا من السبيل بحسب ما نقص من الإيمان، فنحن الذين جعلنا لهم سبيلاً، بما تركنا من طاعة).

فضمان الله مرهون بهذه العقيدة.. أو قل: بالإيمان والعمل ، أو قل: بالثقة، فهل بعد ذلك يحق القول بأن أهل الحق فى الدنيا يكونون مقهورين مغلوبين ، بخلاف من خالفهم إلى سبل أخرى؟ ولكنها الحقيقة يحملها قوله تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هود/ ٤٩ .

وفى قوله تعالى: ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ الطلاق / ٢ : ٣ .

وفى هذه الآية روى ابن ماجة عن أبى ذر أن النبى ﷺ قال: « **لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم** ».

** ثمرات قلوب الواثقين:

بل هى بشـــائر قلوب الواثقين، ينعم بها أصحابها ويتلذذون، نجعلهـــا فى خمس: (امتياز الثقة - هوان العوادى - منافع المصائب - ابتلاء التربية - الواثق لا يموت) وهاكم تفصيلاتها:

* امتياز الثقة:

يقول تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ ... ﴾ النساء/ ١٠٤ .

فى حلبة الصـراع تكون التضحيات التى لها معاناة وآلام، يقدمها أهل الإيمان كما يقدمها تماماً المناوئون لهـــم، فقد اشتركوا جميعاً فى المعاناة والألم، ولكـــن المؤمنين يمتازون رغم هذه المشاركة بامتياز الثقة: (برجاء الأجر والزلفى من الله) وهذا مالا يعرفه المناوئون، فالقلوب الواثقة لا يسكنها إلا الله تعالى، فهى دائمة النظر إليه، ترجو الأجر وتسعى للقرب منه ، حيث الأنس به، والسرور بوصاله.

* هوان الأعادى:

قد ينتفش الأعادى بما يملكون من ماديات مخيفة، وآلات مرعبة، أو تسلط مقهر واستبداد مرهب، فتراهم يختلفون ويفرحون كلما أصابوا جولة مع أهل الإيمان، وفى حقيقة الأمر أن ما يصيبهم من نصر وعزة هو صورة ظاهرية فقط، أما فى باطنها فهم فى ذل وهوان، وما أبلغ قول الحسن رحمه الله:

(إنهم وإن هملجت بهم البراذين
وطفطفت بهم البغال
إن ذل المعصية لفى قلوبهم
أبى الله إلا أن يذل من عصاه) .

* منافع المصائب:

مصائب المؤمنين كلها منافع لهم، بل المحنة تحمل فى باطنها المنة، والضراء تقدم بين يديها السراء ، والكوارث إذا أتت فهى مفتاح السعة والفرج وبشارة الخيرات، وهكذا حكم الله تعالى على انتصار المناوئين أن يكون فى كفة أهل الإيمان، نعمة سابغة، ورحمات ربانية، تصيب القلوب الواثقة، فلا تهتز وإنما

تنظر باحثة عن نفع المصيبة، وسراء الضراء وبشارة الكارثة، وهذا وصف الله تعالى عن يوم أحد:

﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)
إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)
وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)
أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)
وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣)
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ آل عمران / ١٣٩ : ١٤٤ .

فكانت الهزيمة فى يوم أحد دروساً وعبراً ومنافع لقلوب واثقة، فيها تنقلب الأشياء إلى أضدادها:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الأنبياء / ٦٩ .

*** ابتلاء التربية :**

وكما مر بنا أن درجات الابتلاء ثلاثة:

للمخلصين عقوبة، وللتائبين طهارة، وللطاهرين درجات، وعليه قال آخرون: (إما طرد وعقوبة، أو تطهير وتربية ، أو درجة وترقية) وقلوب الواثقين تخطت أن يكون ابتلاؤها طرد وعقوبة ، فهو تطهير ونقاء وصفاء وتربية، يؤهلها للدرجات والمنازل .

وقلوب الواثقين لا بد أن تمتحن، وامتحانها زيادة فى إيمانها، وثباتاً فى ثقتها، وتسليماً لربها يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب / ٢٢ .

*** الواثق لا يموت :**

وأخيراً ..كل الناس يموتون، ولكن الواثق لا يموت لأن غايته أن يستشهد فى سبيل الله، فبثقته يصنع موتته، التى تبدأ من عندها حياته فى الراحة



والريحان يقول تعالى :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ آل عمران / ١٦٩ : ١٧٠ .

١٣ ـ قلوب العابدين

*** أين أنت من قلبك ؟**

هل القلب يعاقب من الله ؟ ... نعم إن ترادف الذنب بعضه فوق بعض .. هو الران .. الذى يتعقب الكسب وهو عقوبة القلب .

يقول تعالى :

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين / ١٤

قيل المكاسب الحقيقة وأكل الحرام ، وفى التفسير هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب ، وأصل ذلك كله هو حب الدنيا وايثارها على الآخرة ، وغلبة الهوى على القلب .

كان الحسن يقول :

والله ما لعمل المؤمن من انتهاء دون الموت .

وكان أبو محمد يقول :

لا يبلغ العبد منازل الصديقين حتى يكون فيه هذه الأربع : أداء الفرائض بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهى فى الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك إلى الممات .

*** روح الصلاة فى حضور القلب :**

وحضور القلب يعنى به : أن يفرغ القلب عن كل شئ غير الله ، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول :

من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ .

ويقال إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضى الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة وقالوا : نبادر بها وسوسة الشيطان .

وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال على المنبر : إن الرجل ليشيب



عارضاه فى الإسلام ما أكمل لله تعالى صلاة قيل وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها .

فالأصل فى الصلاة الخشوع وحضور القلب وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى فى المعاد .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه) .

القلب وعاء القرآن :

يقول النبى ﷺ فيما رواه ابن عمر البيهقى فى الشعب :

« **إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل يا رسول الله وما جلاؤها فقال تلاوة القرآن وذكر الموت** »

ويقول أبو إمامة الباهلى :

(اقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء القرآن) .

الليل والقلوب المتيقظة :

شكى تلميذ إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه : يا بنى إن لله نفحات فى الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطئ القلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات ، فقال يا سيدى تركتنى لا أنام بالليل ولا بالنهار .

ويقول  عن جابر فيما رواه مسلم : « **إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه الله إياه** » .

ويقول بعض العارفين :

(إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين ، فيملؤها أنواراً فترد الفوائد على قلوبهم ، فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافى إلى قلوب الغافلين .

الله فى قلوب العابدين :

فى حديث ابن عمر قال : قيل يا رسول الله أين الله فى الأرض ؟ قال : هى فى قلوب عباده المؤمنين .

وفى معنى قوله تعالى ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء / ٨٩ ، قيل :

أى مما سوى الله ، ليس فيه غير الله .

وسئل النبى ﷺ عن معنى قوله تعالى :

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ... ﴾ الأعراف / ١٢٥

ما هذا الشرح ؟ قال : هو التوسعة يعنى أن النور إذا قذف فى القلب اتسع له الصدر وانشرح ، ولذلك فإن المؤمن ينظر بنور الله .

وتفصيل ذلك كما بين العلماء :

على العبد أن يعلم أن عمره كله يوم ، وأن يومه كله ساعة ، وأن ساعته كلها وقته الآن ، وأن وقته حاله ، وأن حاله قلبه ، فأخذ من حاله لقلبه إما لذكر أو شكر أو صبر أو رضا ، ينظر إلى رقيب ، ويجلس إلى حبيب ، لا ينظر إلا إليه ، ولا يعكف إلا عليه وهكذا يجب أن تكون القلوب .

❤ ❤ ❤

الموضوع	الفهرس	الصفحة

إهداء ٤

مقدمة ٥

* **تمهيد لماذا فقه القلوب ؟**

غاية خلق القلب. ٨

ماذا فى القلب؟ ٩

البصيرة عمل القلب. ١٠

الفقه صفة القلب. ١١

علم القلوب الفقه. ١١

أهمية فقه القلوب. ١٢

أولاً: صفات القلوب

بين يدى الصفات. ١٦

القلب مرآة .. فكن على حذر. ١٦

* **صفات قلوب الكافرين :**

١ـ أكنة على القلوب ٢٠

٢ـ حمية الجاهلية. ٢٠

٣ـ قلوب منكرة. ٢١

٤ـ قلوب مقفلة. ٢٢

٥ـ ولكن تعمى القلوب. ٢٣

٦ـ اشمئزاز القلب. ٢٤

٧ـ قلوب مختومة. ٢٤

٨ـ قلوب قاسية. ٢٥

٩ـ قلوب مطبوعة. ٢٧

* ولا يحذر الكافرون مكر الله :

١ـ الرعب فى قلوبهم. ٢٨

٢ـ شتات قلوبهم. ٢٩
٣ـ حسرة فى قلوبهم. ٣٠
٤ـ إشراب القلب. ٣١
*** ثانياً: صفات قلوب المنافقين:**
١ـ ريبة فى القلوب. ٣٤
٢ـ وتأبى قلوبهم. ٣٥
٣ـ قلوب غافلة. ٣٥
٤ـ قلوب مريضة. ٣٦
٥ـ قلوب مطبوعة. ٣٨
٦ـ ولما يدخل الايمان فى قلوبهم. ٣٩
*** فليحذر المنافقون مكر الله.** ٤١
*** ثالثاً: صفات قلوب المؤمنين**
تمهيد :
١ـ قلوب مطمئنة. ٤٦
٢ـ قلوب وجلة. ٤٩
٣ـ قلوب مهدية. ٥١
٤ـ قلوب تقية. ٥٣
٥ـ قلوب منيبة. ٥٤
٦ـ قلوب سليمة. ٥٤
٧ـ قلوب ساكنة. ٥٥
٨ـ قلوب مزينة. ٥٦
٩ـ قلوب مؤلفة. ٥٧
١٠ـ وربطنا على قلوبهم ٥٨
*** فليحذر المؤمنون مكر الله :**
١ـ البداية إلف المعصية. ٥٩



٢ـ ثم تذهب بصيرة القلب. ٥٩
٣ـ حجب القلب عن الرب. ٦٠
٤ـ القلب بين اللذة والألم. ٦١

ثانياً : أحوال القلوب

تمهيد : قل لنا : ما في قلبك ؟! .
أين أنت من قلبك ؟ ٦٥
١ـ كيف تجد قلبك مع الله دوماً .
١، ٢ الجوع والسهر : أو قل (التطوع بالصوم وقيام الليل) ٦٧
٣ـ الصمت : (أو الإعراض عن اللغو) ٦٨
٤ـ الخلوة : (أو كف الأذى عن النفس والعناية بها) ٦٩
٢ـ روح الصلاة في حضور القلب .
حضور القلب ٧١
كيف تعمل على إحضار قلبك ٧٣
الصلاة مفتاح القلوب ٧٤
٣ـ القلب وعاء القرآن .
٤ـ قلوب أرضية وقلوب سماوية .
كيف تمتلك قلباً سماوياً ٨٠
٥ـ الليل والقلوب المتيقظة .
●● **فكيف إذا جن الليل تلذذت به أصحاب أصحاب القلوب المتيقظة ؟**
■ **أولاً** : يأخذ من نهاره لليله ٨٦
■ **ثانياً** : أن يأخذ من قلبه لقلبه ٨٦
أن يكون سليماً ٨٦
أن يكون خائفاً ٨٦



■ **ثالثاً** : أن يأخذ من علمه لقلبه ٨٧
■ **رابعاً** : أن يأخذ من إيمانه لقلبه ٨٧
٦ـ قلوب المحبين : أرق أوانى الله فى أرضه .
من تختار لصحبتك ٨٩
حياة المتحابين روح فى القلوب ٩١
حياة المتحابين ٩٢
استدامة المحبة ٩٦
١ـ النصيحة والفضيحة ٩٦
٢ـ العتاب والتوبيخ ٩٧
٣ـ المداراة والمداهنة ٩٧
٤ـ الغبطة والحسد ٩٧
٥ـ الفراسة وسوء الظن ٩٨
حلاوة الأخوة .. كيف تدوم ؟ ٩٨
بركة الأخوة فى دعوة قلبية ١٠٠
٧ـ مالا يعلمه القلب ولا يخطر عليه .
٨ـ (عقود القلب) .
بها أنت خير من عمر !!
٩ـ أكل الحلال .. نور القلوب وحكتها .
١٠ـ بالجوع .. تخرج حلاوة الدنيا من القلوب .

ثالثاً : دواء القلوب

● أولاً : **القلوب والشيطان .**
١ـ تطهير الجنان لسد مداخل الشيطان ١١٦
٢ـ تطهير القلوب من الذنوب ١١٨
٣ـ وساوس القلوب : ما تؤاخذ ومالا تؤاخذ به ١١٩

الموضوع تابع الفهرس الصفحة

٤ـ فقه القلب فى قطع الوسوسة ١٢١

● **ثانياً : إنما الطب طب القلوب :**

١ـ من أين المرض ١٢٤

٢ـ كيف العلاج ١٢٤

٣ـ وسائل العلاجات فى ترك الشهوات ١٢٥

● **ثالثاً : أمراض القلوب وعلاجها .**

١ـ غيبة القلب ١٢٧

٢ـ غضب القلب ١٢٨

٣ـ حسد القلب ١٣٢

٤ـ دنيا القلب ١٣٤

٥ـ جاه القلب ١٣٨

٦ـ بخل القلب ١٤٠

٧ـ رياء القلب ١٤٢

٨ـ كبر القلب ١٤٥

٩ـ عجب القلب ١٥٤

١٠ـ غرور القلب ١٥٦

رابعاً : حياة القلوب

١ ـ قلوب الراجين ١٦٥

٢ ـ قلوب المؤمنين ١٧٠

٣ ـ قلوب المحبين ١٧٢

٤ ـ قلوب الذاكرين ١٧٧

٥ ـ قلوب الخائفين ١٨٠

٦ ـ قلوب الشاكرين ١٨٤

٧ ـ قلوب الصابرين ١٨٨



الموضوع	تابع الفهرس	الصفحة

٨ ـ قلوب الراضين ١٩٣
٩ ـ قلوب الزاهدين ١٩٧
١٠ ـ قلوب التائبين ٢٠٤
١١ ـ قلوب المتوكلين ٢٢١
١٢ ـ قلوب الواثقين ٢٢٣
١٣ـ قلوب العابدين ٢٣٠
فهرس ٢٣٣





كتب للمؤلف

العنوان	الناشر
١ـ الدعوة المؤثرة .	دار التوزيع
٢ـ القيادة المؤثرة.	دار التوزيع
٣ـ المشاعر المؤثرة .	دار التوزيع
٤ـ فقه النفوس .	دار الدعوة
٥ـ فقه القلوب .	دار ابن الوليد
٦ـ فقه السالكين .	دار التوزيع
٧ـ دليل المسافر.	دار المدائن
٨ـ الجنة والنار رأى العين .	دار الدعوة
٩ـ الغزوات فى ظلال القرآن .	دار الدعوة
١٠ـ العراق إلى أين ؟ .	دار المدائن
١١ـ فلسطين تحت الحصار .	دار المدائن
١٢ـ ورد القلوب شرح ورد الرابطة .	دار التوزيع
١٣ـ الحب روح الحياة الزوجية .	دار أم القرى
١٤ـ حياة القلوب .	دار المدائن
١٥ـ حياة الأرواح .	دار المدائن
١٦ـ أيام وليالى رمضان .	دار المدائن
١٧ـ أمير الشهداء أحمد ياسين .	دار المدائن
١٨ـ الطبيب الشهيد عبد العزيز الرنتيسى .	دار المدائن
١٩ـ تربية النفوس.	دار المدائن
٢٠ـ الزوجان فى مملكة الحياة الزوجية .	دار أم القرى
٢١ـ فقه الحركة فى المجتمع .	دار الدعوة
٢٢ـ رسالة الشفاء .	دار المدائن
٢٣ـ كيف تنجح فى الحياة ؟	المدائن ـ الفنار
٢٤ـ الزوج رجل والزوجة امرأة .	المدائن ـ الفنار



كتب للمؤلف

٢٥ـ يا حبيبى يا رسول الله . — المدائن ـ لؤلؤة

٢٦ـ حقق حلمك فى الحياة . — دار المدائن

٢٧ـ ١٠٠ عبرة ودرس من قصص الأنبياء . — دار المدائن

٢٨ ـ مجتمع آمن مستقر . — دار الدعوة

٢٩ـ سلوك المسلم المعاصر . — دار المدائن

٣٠ـ التربية المؤثرة . — دار المدائن

الاتصال بالمؤلف
٠١٢٣٢١٧١٤٥

المدونة :	qmady-maktoobblog.com
الايميل :	gamalmady@ yahoo. com
	madygamal@gmail.com